

اليهود واليهودية في العصور القديمة

(بين وهم الكيان السياسي وأبدية الشتات)

ترجمة وتقديم

دكتور/ رشاد عبد الله الشامي

الطبعة الأولى

القاهرة ٢٠٠١

الكتاب: اليهود واليهودية في العصور القديمة
(بين وهم الكيان السياسى وأبدية الشتات)

ترجمة وتأليف: دكتورا/ رشاد الشامى
عن كتاب «السلام فى الأرض المقدسة
تحليل تاريخى لمشكلة فلسطين»
فون ناجوت جلوب

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٢٠٨٥
الترقيم الدولى: ISBN
977--5841-50--x

تاريخ النشر: ٢٠٠١

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات (طباعة - نشر - تصدير كتب)
حقوق الطبع والترجمة والانتباس محفوظة للمكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

الإدارة: ٥ ش مصطفى طوموم - المنيل - القاهرة
تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب الذى أقدمه للقارئ العربى تحت عنوان «اليهود واليهودية فى العصور القديمة بين وهم الكيان السياسى وأبدية الشتات»، هو كتاب ألفه ونشره فنون باجوت جلوب تحت عنوان «السلام فى الأرض المقدسة، تحليل تاريخى لمشكلة فلسطين» بالإنجليزية إبان الستينيات، وقد أتيج لى أن أطلع عليه فى حينه، واستفدت منه كثيرا دون أن أدقق كثيرا فى منهجه ثم وضعت فى ملف خاص ونسيته تماما. وعندما عن لى أن أقدم للقارئ العربى مؤلفا يتناول تاريخ بنى إسرائيل واليهود فى العصور القديمة لسد الفراغ فى هذا المجال فى المكتبة العربية، تذكرت هذا الكتاب فأخرجته من الأضابير وعكفت على قراءته مرات ومرات مدونا ملاحظات على هوامشه إلى أن اكتشفت أن هناك خطان يربطان بين صفحاته يسيران بالتوازي هما: خط تطور الانغلاق الدينى وخط التبلور السياسى لبنى إسرائيل واليهود عبر التاريخ القديم. كما اكتشفت كذلك أن جلوب يسير على هدى المدرسة النقدية لمصادر العهد القديم على المستويين الدينى والتاريخى، وأن هناك هدفا يسعى إلى إثباته عبر كل هذا، بالإفصاح تارة، وبالإشارة تارة أخرى، وهو أن بنى إسرائيل واليهود عبر الأحداث التاريخية التى مروا بها، ومن خلال التطور التاريخى الذى تبلورت من خلاله أسس العقيدة اليهودية فى صورتها الأخيرة على يد الأنبياء، لا يصلحون لأن يكونوا أمة أو جماعة سياسية لها دولة مثل سائر الشعوب، وأن تجاربهم فى هذا الصدد باءت جميعها بالفشل عبر التاريخ لأسباب موضوعية وأنهم لا يصلحون إلا أن يكونوا جماعة دينية تعيش فى وسط الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها. وقد شغلتنى هذه الفكرة وقررت أن أقوم بعملية تأصيل لها لتكون بمثابة مقدمة تعين القارئ على فهم منهج هذا الكتاب والذى أخذ به، فيما بعد، عدد لا بأس به من الباحثين الذين نفوا عن اليهودية صفة القومية وأكدوا أنها دين فحسب، وأن اليهود لا يصلحون إلا أن يعيشوا كجماعة تحكمها

المربرجر. ففي بداية عام ١٩٤٢ ألقى الحاخام برجر الزعيم الروحي لجماعة اليهود الإصلاحيين الذين عارضوا فكرة إقامة دولة يهودية ذات طابع سياسي، خطاباً بلور فيه وجهة نظر قديمة جديدة بشأن ماهية اليهودية ومستقبلها في المجتمع المعاصر وقد حاول برجر أن يرجع الخلاف السياسي بين المجلس الأمريكي من أجل اليهودية والحركة الصهيونية ورفاقه من الحركة الإصلاحية المؤيدين لها، إلى الصدام التاريخي بين الإدراك الديني للحياة اليهودية وبين التفسير السياسي لها. حيث تجلّى الفارق الشاسع بين وجهة النظر، في رأيه، في مسألة هل اليهودية في حاجة من أجل وجودها إلى دولة قومية خاصة بها؟ وقد أجاب على ذلك بالنفي مستدلاً على ذلك بتفنيدين: التنفيذ الأول، الرئيسي، هو أن اليهودية وفقاً لمضمونها ليست قومية، وأنها كسبت بفضل مبادئها العالمية مكانة وتأثيراً في التاريخ الإنساني. والتنفيذ الثاني. وهو تنفيذ تاريخي بدعم به تبريراته الأساسية. ووفقاً لرأيه فإن على اليهود ألا يتفاخروا بتلك الفترات من تاريخهم التي شكلوا فيها شعباً ذو سيادة. ففتره الملكية في عهد داود وسليمان هي فترات منبوذة في رأيه بالمفهوم الأخلاقي. وقد سعى ليؤكد أن وجهة نظره التاريخية لا تسعى إلى رفض الأهمية التاريخية والدينية لفلسطين بالنسبة لليهودية، ولكن هذا التبرير ليس من شأنه إضعاف تفنيده بل يقويه، لأن فرادة اليهود في الماضي والحاضر لا تكمن في قوميتهم بقدر ما تكمن في طابع إيمانهم. وعلى عكس معظم حاخامات الحركة الإصلاحية واصل برجر التمسك بالرأي الأخلاقي بأن فرادة اليهودية تكمن بالذات في قيمها الدينية العالمية التي لا ترتبط بمكان أو زمان معينين، وإنه بفضل هذا فقط استمر اليهود كطائفة دينية فريدة، بينما اختفت من التاريخ شعوب أقوى وأكبر منهم^(١).

(١) جوراني، يوسف: البحث عن الهوية القومية (هحيوس أحر هزموت هلقوميت)، مكتبة أوقافهم، دار نشر دعم عوفيدة إسرائيل، ١٩٩٠، ص ٢٥ - ٢٦.

ويتعرض في العصر الحديث لنفس المصير لنفس الأسباب، في إطار الصراع الدائر حالياً في إسرائيل بين الصهاينة العلمانيين الذين أقاموا دولة لليهود في فلسطين على غرار دول الحضارة الغربية الحديثة (شعب مثل سائر الشعوب) وبين الدينيين الذين يرفضون كافة الأسس والقوانين والنظم التي قامت عليها هذه الدولة ويسعون لتحويلها إلى دولة تحكمها الشريعة اليهودية، وهو ما يذكرنا بما حدث في فترة المكابيين عندما أقام اليهود مملكة يهودية، إحتدم فيها الصراع بين الدينيين المتشددين وبين المتأخرين (العلمانيين حالياً) إلى أن تم القضاء عليها.

أما على الطرف الآخر، الخاص بالعلاقة بين دولة اليهود في فلسطين في العصر الحديث والشتات اليهودي، فيمكننا أن نقرر على نحو ما حدث، في العصور القديمة، في ظل الحضارات الفارسية واليونانية والرومانية، (حيث إنتشر اليهود في أرجاء العالم القديم)، أن هذا الشتات اليهودي ما زال يلعب نفس الدور القديم، حيث أنه هو الذي يسند الوجود السياسي للدولة ويدعمها ويحافظ على وجودها وإستمرارها، وليس العكس، كما توهم الطرح الصهيوني الكلاسيكي.

ولزيد من الإيضاح بشأن التطور التاريخي لظاهرة الصراع بين الدين والسياسة في التاريخ اليهودي القديم، أو الصراع بين التبلور السياسي والإنغلاق الديني، سوف أقوم باستعراض أهم المراحل التاريخية التي مرت بيني إسرائيل واليهود والتي أدت في النهاية إلى هذه النتيجة التي توصل إليها كثير من الباحثين اليهود والإسرائيليين من خلال قراءة موضوعية لهذا التاريخ، وهو ما يتفق تماماً مع ما إنتهى إليه هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته إلى القارئ العربي.

يعتبر من أكثر المعبرين، في العصر الحديث، عن وجهة النظر الخاصة بإعتبار أن اليهود هم طائفة دينية لا تملك مقومات الدولة الحاخام اليهودي الأميركي

المربرجر. ففي بداية عام ١٩٤٢ ألقى الحاخام برجر الزعيم الروحي لجماعة اليهود الإصلاحيين الذين عارضوا فكرة إقامة دولة يهودية ذات طابع سياسي، خطاباً بلور فيه وجهة نظر قديمة جديدة بشأن ماهية اليهودية ومستقبلها في المجتمع المعاصر وقد حاول برجر أن يرجع الخلاف السياسي بين المجلس الأمريكي من أجل اليهودية والحركة الصهيونية ورفاقه من الحركة الإصلاحية المؤيدين لها، إلى الصدام التاريخي بين الإدراك الديني للحياة اليهودية وبين التفسير السياسي لها. حيث تجلّى الفارق الشاسع بين وجهة النظر، في رأيه، في مسألة هل اليهودية في حاجة من أجل وجودها إلى دولة قومية خاصة بها؟ وقد أجاب على ذلك بالنفي مستدلاً على ذلك بتفنيدين: التنفيذ الأول، الرئيسي، هو أن اليهودية وفقاً لمضمونها ليست قومية، وأنها كسبت بفضل مبادئها العالمية مكانة وتأثيراً في التاريخ الإنساني. والتنفيذ الثاني. وهو تنفيذ تاريخي بدعم به تبريراته الأساسية. ووفقاً لرأيه فإن على اليهود ألا يتفاخروا بتلك الفترات من تاريخهم التي شكلوا فيها شعباً ذو سيادة. ففتره الملكية في عهد داود وسليمان هي فترات منبوذة في رأيه بالمفهوم الأخلاقي. وقد سعى ليؤكد أن وجهة نظره التاريخية لا تسعى إلى رفض الأهمية التاريخية والدينية لفلسطين بالنسبة لليهودية، ولكن هذا التبرير ليس من شأنه إضعاف تفنيده بل يقويه، لأن فرادة اليهود في الماضي والحاضر لا تكمن في قوميتهم بقدر ما تكمن في طابع إيمانهم. وعلى عكس معظم حاخامات الحركة الإصلاحية واصل برجر التمسك بالرأي الأخلاقي بأن فرادة اليهودية تكمن بالذات في قيمها الدينية العالمية التي لا ترتبط بمكان أو زمان معينين، وإنه بفضل هذا فقط استمر اليهود كطائفة دينية فريدة، بينما اختفت من التاريخ شعوب أقوى وأكبر منهم^(١).

(١) جوراني، يوسف: البحث عن الهوية القومية (هحيوس أحر هزموت هلقوميت)، مكتبة أوقافهم، دار نشر دعم عوفيدة إسرائيل، ١٩٩٠، ص ٢٥ - ٢٦.

وفيما يلي سنعرض للتطور التاريخي لهذه القضية:

١ - عن البداية الأولى لظهور مملكة يهودية تخبرنا أسفار العهد القديم أن النبي صموئيل (شموئيل) كان قد بلغ من الكبر عتياً، ولم يكن أحداً من أبنائه قادراً على تولى أعباء القيادة، فذهب إليه شيوخ بني إسرائيل الكبار وطلبوه بأن يكون لهم ملكاً يتولى قيادتهم. وقد كان ما يريدونه شيعاً «طبيعياً» وهو أن يكونوا «شعباً مثل سائر الشعوب». وأن تكون لهم دولة وملكاً، ويخبرنا سفر صموئيل الأول الاصحاح الثامن عن تحذير النبي للشعب من رسامة ملك عليهم لأنه سيستبد بهم ويصادر ممتلكاتهم ويستحل نساءهم ويكونوا له عبيداً، ولكن «أبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك، فتكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا» (صموئيل الأول ٨: ٢٠)، وفي الأصحاح الثاني عشر يتكرر الموقف السابق فيستعرض أمامهم صموئيل تاريخ أسلافهم وما حل بهم من غضب الرب ولعناته وهزائمه لهم، لأنه اشترط عليهم أن يستجيبوا لوصايا الرب حتى لا تكون يد الرب عليهم كما كانت على آبائهم: «وإن لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم كما كانت على آبائكم» (صموئيل الأول ١٢: ١٥). وفي النصف الثاني من هذا الاصحاح نجد الرب يتراجع عن موافقته ويرى أن وجود ملك لبني إسرائيل هو الشر بعينه: «وترون أنه عظيم شركم الذي عملتوه في عيني الرب بطلبكم لأنفسكم ملكاً» (صموئيل الأول ١٢: ١٧). «وهذه الآراء المتعارضة التي من المحتمل أن تكون قد كتبت بعد مضي قرن من الزمان، تعكس وجهة نظر عجوز من رجال الأسباط كان يتحرق شوقاً إلى حرية الرعاة القديمة، بينما تمثل الرواية الأولى (الاصحاح الثامن) وجهة نظر ملكي، ريمان أتباع سليمان يسعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحبذ الملكية، ثم جاء مدون بعده بفترة وجمع وجهتي النظر المتعارضتين»^(١)

(١) جلوب. جون باجوت (جلوب باشا): السلام في الأرض المقدسة (تحليل تاريخي لمشكلة فلسطين).

وقد عين صموئيل شاؤول ملكا، وفتح بذلك بداية عصر الملكية فى تاريخ بنى إسرائيل.

٢ - «سقط شاؤول وسقط داود (١٠٠٠ ق.م - ٩٦٧ ق.م) وسقط سليمان (٩٦٧ ق.م - ٩٢٧ ق.م) (ملوك بنى إسرائيل الأول) ووضعَت الملكية والملوك فى الميزان فبان العجز. والقصة منذ وفاة سليمان ونهاية مملكة إسرائيل الموحدة قصة حزينة مزرية للفساد والتآمر والحرب، ودفعت إسرائيل ثمن لعبها بسياسة القوة وتقليدها السلوك الوضيع للأسم؛ واختسبها الخاطيء الانفصال عن الدين»^(١).

وخلال هذه الفترة كانت الأسرة المالكة فاسدة تماما، فأبناء داود يغتال أحدهم الآخر، أو يعصى ويشور، وقد قتل سليمان كل إخوته، ويتضح من هذا أن البشرية تبنى فى خيالاتها بشكل دائم عصورا ذهبية فى الماضى لتتخلص من آلام الحاضر - لقد كان فترة حكم داود وسليمان سلسلة ممتدة من الثورات والحروب والاضغاثات، وفى أواخر عهد سليمان كانت الدولة تغلى بالثورة التى انفجرت بعد موته مباشرة، وأدت إلى إنقسام المملكة إلى مملكتين هما: يهودا فى الجنوب وإسرائيل فى الشمال.

٣ - زالت مملكة يهودا الجنوبية عام ٥٨٦ ق.م وسقطت مملكة إسرائيل الشمالية عام ٧٢٢ ق.م ، وخلال فترة هاتين المملكتين سادت الحروب بينهما وبين الدول المحيطة بهما وكثرت الاغتيالات والمؤمرات وحاد الشعب عن طريق الرب وعمل الملوك الشر فى عينى الرب، فظهر الأنبياء الذين كان من أشهرهم إشعيا وحزقيال وعاموس. وقد ابتكر إشعيا بفعل الظروف السياسية والدينية فكرتين لايزال أثرهما ملموسا إلى اليوم بين اليهود، وهما: فكرة القدسية الدائمة لأورشليم

(١) المرجع السابق، نقلا عن «وليام نيل» (تعليق على الكتاب المقدس).

(القدس) ، وعقيدة مجيء المسيح المخلص ، كما سادت أيضا ، عقيدة أن الرب هو الذي يكرس الشعوب الأخرى من أجل إنزال العقاب بشعبه المتعنت بنى إسرائيل (السبي الأشوري لاسرائيل الشمالية والسبي البابلي ليهودا الجنوبية) .

وقد عبر المؤرخ اليهودي س. و. بارون في مؤلفه الضخم «تاريخ إسرائيل» عن هذه الظاهرة بقوله: «لقد استخلص الأنبياء بطريقتهم الخاصة تفسيراً للوضع العالمي غير الطبيعي: لقد رأوا دولا تختفي ثم تعود فتظهر من جديد، ورأوا سلطة الدولة في إسرائيل وفي يهودا تستخدم بواسطة الطبقات الحاكمة كوسيلة لظلم الجماهير، ورأوا عددا لا يحصى من اليهود يقيمون في بلاد أجنبية، فاستخلصوا من ذلك أن هناك وحدة أكثر صلابة من وحدة الدولة ووحدة الأرض.. وأن مبدأ التمسك بالأرض والحدود في إطار مساحة معينة يؤدي إلى قيام المنازعات بينما يفتح مبدأ الأمة أبعاداً للتعايش المستديم بين الأجناس المختلفة مع التعاون الكامل بين المراكز الثقافية المختلفة»⁽¹⁾ .

٣ - بعد عودة اليهود من بابل تحت قيادة عزرا، كانت هذه هي البداية من أجل ما يمكن أن نطلق عليه إسرائيل ما بعد السبي البابلي، حيث ولدت الديانة اليهودية التي صاغها عزرا والقائمة على الانعزالية الدينية التي تتضمن سلسلة جديدة من التشريعات التي تهدف إلى فصل أولئك الذين اعتنقوا الديانة اليهودية عن بقية البشر، مثل منع الزواج المختلط واقتباس الكثير من الأفكار الدينية من ديانة زاردوشتا البابلية مما أضفى على اليهودية صفة العنصرية، وهو الأمر الذي عارضه كثير من الأنبياء الذين ظهروا في تلك الفترة مثل إشعيا وزكريا ويونان وراعوث التي يعتبر سفرها بمثابة نشرة مضادة للتمييز العنصري.

(1) baron. S.W.: History of Isaeal, part 1, p. 131.

وبعد أن تحول الاسرائيليون إلى يهود، وإلى طائفة شتات دينية تحولت «أرض إسرائيل» إلى بلاد مقدسة، وتم تكريس الشتات اليهودى القائم على الارتباط الشديد بالدين وأحكامه وقوانينه.

٤ - كان الدرس الذى استخلصه حكماء اليهود من تجربة مملكة الحشونائيم (١٦٦ ق.م. - ٦٤ ق.م.)، هو أن الهدف الرئيسى لثورة المكابيين، وهو الرغبة فى تحرير اليهود من الضغوط الفكرية والتأثيرات الثقافية والدينية الاغريقية لتتاح لهم ممارسة شعائر وطقوس دينهم دون قيود، وعدم الخضوع لحضارة أجنبية، هو هدف لم يتحقق إثر إنتصار الثورة المكابية، وأنهم ما أن إنتصروا حتى أصبحوا مثل أعدائهم يطبقون نفس الأساليب توسعا فى الأرض وطرادا للشعوب غير اليهود من أراضيها، وإجبارهم عل التغيير الجماعى للدين، والقمع القاسى والوحشى لكل حركة شعبية يهودية. وهكذا أصبح المكابيون أنفسهم سلطة ظالمة وخالفوا أهم المبادئ الأساسية للعقيدة اليهودية التى ثاروا من أجلها. وانتهى الأمر بحاخامات اليهود إلى تفضيل الحكم الأجنبى عن قبول ملك يهودى، حتى ولو كان يحظى باحترام قومى، طالما أنه لا يحافظ على شرائع التوراة.

٥ - كانت الضيعة التى توصل إليها عدد من الحاخامات برئاسة يوحانان بن زكاي مع الرومان بشأن اتخاذ «يقنه» مركزا روحيا لليهود، هى صيغة قبل بموجبها الحاخامات اليهود السيادة القيصريية دون مراجعة وتم فرضها على الجمهور اليهودى، مع التخلي عن أى ظموح قومى، مقابل صلاحيات بسلطة مطلقة للحاخامات اليهود على الجمهور اليهودى، الذى فقد السمات القومية التى كان قد حصل عليها فى فترة «الحشمونائيم» وهوردوس، وعاد وقبل سمات الطائفة الدينية المغلقة والمنغلقة، التى تحكمها «الهالاخاه» ومفسريها من «الفريسيين» على غرار ما كان عليه الأمر فى فترة الحكم الفارسى. وهكذا أصبح التفسير الحقيقى

«للتبلور والوحدة الدينية» هو التخلي عن القومية، وتحويل اليهود إلى مجرد طائفة دينية.

٦ - غذى انغلاق اليهودية على ذاتها وعودتها إلى وضع الطائفة الدينية، (وهي الخطوات التي قادها حكماء «يفنه»)، بصورة متناقضة، «الاسكاتولوجي» (الارتباط بالإيمان بأخرة الأيام) المسيحاني المتعلق. ومن المحتمل أن يكون هذا الانعزال عن العالم هو الذي مهد الأرض لتجاهل جزء من جيل الحاخامات التالي لحقائق الواقع السياسي العالمي. ويتضح هذا التناقض على ضوء حقيقة أن تعاون الحاخامات مع الرومان قد تطور خلال جيلين (نشبت تمرد بركونجا بعد ٦٠ عاما من قيام يوحانان بن زكاي بالتعاون مع الرومان في إطار المحافظة على اليهودية من الضياع نظير التخلي عن الطموحات اليهودية القومية السياسية) إلى تمرد مسيحاني، تعاون فيه كثيرون من الحاخامات. وهذه الواقعة لها تناظرات وظيفية في العصر الحديث، حيث أن دوائر دينية يهودية معتدلة وبعيدة نسبيا عن السياسة القومية تحولت خلال سنوات قليلة إلى متعصبين «مسيحانيين».

٧ - بعد ظهور المسيحية أدركت المؤسسة الفريسية (نسبة إلى الفريسيين) أن موجة اعتناق المسيحية تنطوي على خطر انشقاق وتعدد داخل اليهودية؛ ولذلك فإنها فضلت صيغة الطائفة الصغيرة المبلورة جيدا والمنضبطة، والمسيحية جدا من كل جوانبها، عن صيغة دين الملايين الذي يضم يهودا مززعجين، وتفسر طوائفها المختلفة التوراة حسب هواها، دون أي صلاحية توحيدية خاضعة لها.

١٠ - على عكس المسيحية التي أثراها الخارجون عليها والانشقاقات التي تعرضت لها، لفظت الارثوذكسية المنغلقة خارجها كل كتلة تجرأت على تحدى الصلاحية المطلقة «للها لاخا» وحاملى لوائها. وهكذا لفظ في البداية «السامريين» و«المتأغرقين»، وبعد ذلك «الصدوقيين»، و«الاسينيين»، و«المسيحيين»، و«القرائين»

و«الفرانكيين»، و«الشبتائين»، وليس بعيد أن تلفظ «الحسيدية» هي الأخرى من اليهودية.

وهكذا أصبح الطابع الروحي لليهودى متمشياً بالكامل تقريباً مع وجود «الهالاخاه» (الشريعة اليهودية) ودراساتها والحفاظ على البناء الطائفي المرهون بذلك في حد ذاته، ومن هنا فإن الحفاظ على اليهود، لم يعد يعنى إلا الحفاظ على سيادة اليهودية الاوثوكسية فى طائفتها.

٨ - أصبح الطابع المهيمن والمسيطر على عقلية الطائفة اليهودية ذات النظام وطابع الحياة والبناء الاجتماعى المتضامن، هو «لاتبحث فيما هو مثير لدعشتك، ولا شأن لك بالأشياء الخفية». ومن هنا، كانت ظاهرة اللاعقلانية الواضحة فى اليهودية. وقد كانت هذه السمات، بالذات، هى التى أتاحت لليهودية قوة الصمود، وعزلت بذلك نفسها عن التاريخ، ولم تخف عن المؤمنين بها أى تفسير للتاريخ الخاص «بالمنى» الذى سيخلصهم منه المسيح المخلص. لقد كان منطلقها فى هذا، هو أنه كلما إنقطع إتصالها بأى وعى مع الواقع، فإن هذا يؤدى إلى تطور أنظمة طقسية وجدلية لاقامة جسر، أيا كان، بين الوعى والواقع. وبموجب هذا، فإن كل الكوارث التى تحل على اليهود فى الشتات ليست فى حاجة إلى تفسير، باستثناء أن الشتات هـ حكم إلهى على اليهود بسبب خطاياهم. وهكذا تم خلق بناء سيكولوجى مغلق، يقوى نفسه، من منطلق أن الكارثة هى الدليل على الخطيئة، بدلا من أن تكون سببا للتأمل فى معايير الرب، على النحو الذى فعله أيوب. ولذلك، فإنه كلما كانت تزداد الكوارث كان يزيد الوعى بالخطيئة، ومن أجل تبرير الوعى بهذه الخطيئة كانت تتطور منظومة لانهائية من التحريمات والعقوبات لايسمح لأى، كائن يهودى بتجاوزها.

٩ - كان مغزى إنعزال الطائفة عن التاريخ، هو الإنعزال عن الدين يصنعون التاريخ، والذين كان ينظر إليهم باعتبارهم «جوييم» (شعوب كافرة). ولذلك فقد

أصبحت هناك حالة من الغربة السيكولوجية الموضوعية بين أولئك الذين في وسط التاريخ وأولئك الذين خارجه. ولم يعد كل من هؤلاء قادر على فهم الآخر، وبدأوا يشككون كل في الانسانية المشتركة لكليهما.

١٠ - تبلورت قوة صمود الطائفة اليهودية عن طريق شبكة متفرعة من مؤسسات المساعدة المتبادلة في داخلها، عن طريق تأكيد الجماعة التي تنطوي عليها، والتي تزود كل فرد بالمساعدة والأمان النفسى، ولكن في مقابل تخليه عن الفردية والاستقلالية الفكرية لديه، وذلك عن طريق منظومة من القوانين والشرائع المقيدة للفرد.

١١ - منذ عصر تمرد بركوخيا (١٣٢ - ١٣٥م)، وحتى ظهور الصهيونية كان يتم التعبير عن المفهوم السياسى الرئيسى لليهودية من خلال «العهد» التلمودية الثلاثة التي أمر بها الرب. ويمكن إيجازها فيما يلى: عدم حدوث حركة انتقال جماعية (هجرة) لليهود من بلاد الشتات إلى «أرض إسرائيل» (فلسطين)، وعدم الثورة على شعوب العالم، وألا يحدث إفراط فى إضطهاد الشعوب غير اليهودية «للشعب اليهودى». وكانت تلك عقيدة يهودية هامة، حتى بالرغم من عدم إثارتها للكثير من الجدل، حيث أنها كانت تبدو أثناء الظروف، التاريخية فى تلك العصور، على أنها أمر واضح، بل وعادى. وكان لب هذا المفهوم هو السلبية المتمثلة فى تفادى العمل السياسى، إنتظارا لحيء «المسيح المخلص» فى صبر، دون محاولة التعجيل بقدمه لأن ذلك محرم تماما.

ولذلك كانت الصهيونية محرمة، وحاولت الصهيونية الدينية المعاصرة إعادة تفسير تلك العهد والحد من قوتها، فزعمت على سبيل المثال، أن «العهد كانت بمثابة صفقة متكاملة، وحيث أن شعوب العالم لم تلتزم بما عليها فى الصفقة،

طبقا لما جاء في العهد الثالث، فإن اليهود المعاصرين يمكنهم الهجرة الجماعية إلى فلسطين.

ومثل ذلك التفسير، يجعل من الصهيونية مسألة شرطية محضة: فلو أن غير اليهود لم يتجاهلوا عهد «عدم إضطهاد اليهود» لكان على اليهود أن يمتنعوا عن الهجرة الجماعية إلى فلسطين. ومن هنا فإن جماعة مثل جماعة «حسيدية سطمار» (التي تنسب إلى الحاخام تايطننويوم المعروف بلقب «الحاخام من ساطمار») ويمثل الصلاحية العليا لاتباعه من «الحسيديم» في الولايات المتحدة الأمريكية، وللطائفة المتشددة دينيا في إسرائيل «الحريديم» ومن بينها جماعة «نطوري كرتا» المعارضة للصهيونية تستغل العهود ذاتها لتجريح الصهيونية كصفقة متكاملة بالمعنى العكسي تماما، إذ أن إنتهاك اليهود للعهود بسعيهم تنفيذ المشروع الصهيوني، هو الذى أدى إلى «الهولوكوست» (المحرقة).

ومن ثم، فإنه يمكن فهم العهود على أنها قرار للجيلولة دون ظهور أية مبادرة من شأنها تقويض أسلوب الحياة اليهودية بالشكل الذى وصلت اليه فى «الشتات»، ونظرا لخشية الدوائر اليهودية التقليديه من التغييرات التى يمكن أن تقوض هذا الأسلوب من الحياة، فقد كانوا شديدى المعارضة للصهيونية، إذ كانوا يتخوفون من أن يؤدى تحقيق هدف الصهيونية إلى خلق تحد جديد وصعب لليهودية.

وبالنسبة لموقف الديانة اليهودية من قيام دولة يهودية، يمكن توضيح ذلك، على ضوء أن حكماء اليهود قد حددوا قوانين الديانة اليهودية على أساس التشريع والعادات المتوارثة، وهو أمر حدث فى زمن لم تكن توجد فيه دولة يهودية، ولذلك تم تجاهل المسائل المستحصية المتعلقة بكيفية أداء الدولة اليهودية لوظائفها.

لقد كانت المهمة التى واجهت حكماء اليهود بعد تدمير الهيكل الثانى، وقمع تمرد بركوخبا على يد الرومان، هى تأمين بقاء اليهود فى أوساط معادية.

ورأوا أن الحفاظ على بقاء اليهود لايتأتى إلا من خلال إنعزالهم، وشرعوا لذلك الهدف في «الهالاخاه»، وهو مجموعة من التشريعات الدينية الموضوعة لتقنين أسلوب معيشى والزامى.وبذلك أصبح السلوك اليهودى الفريد، والمتأصل فى الوعي اليهودى يجد تعبيراً خارجياً دقيقاً فى كافة مناحى الحياة، وفقاً لما جاء فى التلمود الذى يمثل المرجع الرئيسى للتشريعات اليهودية^(١).

وفيما يلى سأقدم للقارىء أهم النتائج التى أثبتتها المؤلف فى كتابه والتى تؤكد ما سبق أن أشرت إليه فى المقدمة حول توجهات المؤلف بشأن شيوع الصراع بين الدين والسياسة فى التاريخ اليهودى القديم:

(١) تتوافق وجهة نظر المؤلف مع ما ذهب إليه الباحثون فى مجال الدراسات النقدية للعهد القديم فيما يتصل بمصدقية الرواية التوارثية وتعدد رواياتها ومدونيتها وتأخر تاريخ التدوين الى ما بعد الأحداث بقرون عديدة.

(٢) التأكيد على ملازمة ظاهرة الشتات اليهودى للتاريخ اليهودى وعدم أهلية اليهود لتأسيس دول أو ممالك لتعارض ذلك مع مضمون وروح اليهودية، وأن الذى حافظ على اليهود هو الدين وليس الاستقلال السياسى.

(٣) تدل كلمة «سامى» فى الأصل على مجموعة من اللغات. ويتعذر أن يطلق اسم «الشعوب السامية» على سكان الشرق الأدنى بصفة عامة، نظراً لأختلاط أنساب هؤلاء السكان اختلاطاً شديداً.

(٤) من المحتمل أن تكون قصة سيدنا إبراهيم قد كتبت بعد وفاته بحوالى تسعمائة سنة، بل لعل القصة كما نعرفها الآن قد اكتملت بعد وفاته بنحو ألف وخمسمائة عام. ونتيجة لإعادة التدوين تظهر فى السرد إضافات هنا وهناك تعبر عن الآراء السائدة لقرون تلت هذا الحدث بكثير.

(١) هركاين، يهوشافاط: ساعة اسرائيل المصيرية، الهيئة العامة للاستعلامات، كتب مترجمة (٧٩٤)، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٥) الكثرة الغالبة منا تعتقد أن «البيت» يعنى مكانا ما، إلا أنه بالنسبة للرعاة الرحل يعنى جماعة من الناس. وكان رب الرعاة هو حامى الأسرة. ونحن معتادون على عبارة «إله إبراهيم واسحق ويعقوب» حتى أننا لانقف عندها لكي نحللها ولكن إذا ما فعلنا ذلك وجدنا أن التعبير يوحى بحامى أسرة واحدة بعينها. ويبدو أنه ليس من المحتمل أن إبراهيم قد أعطى فكراً كبيراً أبداً لكل العالم، حيث لم يكن فى إمكانه أن يكون لديه أى تصور وإدراك له.

(٦) يتفق العلماء على أن وعود إبراهيم لم تكتب لفترة امتدت قرابة تسعمائة عام، وعندما كتبت كانت مملكة داود تتطلع، فى ذلك الوقت، إلى حكم فلسطين كلها، ومن ثم يشور احتمال بأن المدونين الذين جمعوا وصنفوا سفر التكوين كانوا هم الذين نسبوا أطماعهم إلى إبراهيم البدوى راكب الحمار. فإذا كنا مستعدين لقبول اعتبار أن إبراهيم لم يكن أول الموحدين بالله وأنه كان يسعى إلى الآلهة لحماية أسرته، فإنه ينبغى لنا أن نسأل أنفسنا كيف أصبح الاعتقاد فيما بعد بأن الإله الذى خاطب إبراهيم كان هو الله رب العالمين.

(٧) إننا لم نعرف من هم آلهة إبراهيم، إلا أنه بعد وفاته ببضع مئات السنين ظهر «يهوه» باعتباره رب إسرائيل. ولعل رجال الدين الذين نشروا العهد القديم استخدموا اسم «يهوه» بدلاً من الأسماء الأخرى التى كانت تطلق على آلهة إبراهيم فى الرواية الأصلية، كما فقد المترجمون مغزى أهمية الأسماء المختلفة التى كانت مستخدمة من قبل بترجمتها جميعاً باسم «يهوه». ويربط هذه العبارة ذهنياً مع الله خالق السموات والأرض، افترض اليهود بأنه هو الله الذى تناول العشاء مع إبراهيم فى خيمته وأنه هو الذى تناقش مع الشيخ الجليل حول مصير سادوم (بلدة لوط المذكورة فى التوراة).

(٨) إن الاسترقاق الذى مارسه فراغتة مصر ضد الرعاة الفقراء المقيمين على حافة الدلتا واستخدامهم فى أعمال السخرة بدلاً من استخدام رعاياهم، ولا يمكن

فى الواقع أن يسمى «عبودية». وقد اقتترض بنو إسرائيل من المصريين، قبل مغادرتهم مصر، الحلوى من الفضة والذهب بغرض سرقتها منهم: «وأعطى يهوه عمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين».

وهنا لا ينظر إلى يهوه، على أنه رب العالمين، بل على أنه رب إسرائيل، الذى يحتال ويسلب المصريين. ومع هذا فإن إقراض المصريين حلبيهم لبنى إسرائيل لا يوحى بالعبودية كما نتصورها ولكنه دليل على جوار بدون صداقة. نرد على ذلك بأنه عندما اشتدت الظروف وصعبت أحوال المعيشة، فيما بعد، حزن بنو إسرائيل على فقد حياة الترف والرغد فى مصر، بما يشير إلى ارتفاع مستوى معيشتهم فيها وليس عبوديتهم.

(٩) ليست هنالك أية بيانات عن الفترة التى امتدت قرابة أربعمئة عام أى من فترة الأباء إلى عهد سيدنا موسى، ولانستطيع أن نعرف ما إذا كان بنو إسرائيل فى عهد موسى قد انحدروا فعلاً من سلالة إبراهيم. ولقد كان إبراهيم من غير شك هو سلف القبيلة من الوجهة النظرية، إلا أنه لم يكن هناك مفر من عقد كثير من الزيجات المختلطة، وكمثال زواج يوسف عليه السلام من زوجة مصرية.

(١٠) كانت لموسى عليه السلام تجربة قدسية أصيلة فى «العليقة المشتعلة». وقبل هذه التجربة لم يكن بنو إسرائيل قد سمعوا قط عن «يهوه» الذى سيصبح إله إسرائيل. ومرة أخرى تلقى موسى الوحي على جبل سيناء.

(١١) يوافق كثير من المعلقين على أن ديانة بنى إسرائيل الأولى أخذت متبعها من الصحراء. وهناك بعض الدلائل على أن قادش كان مركز عبادة «يهوه» الذى كان موقراً فى أيام ما قبل إسرائيل باعتباره رب سيناء. حوريب.

(١٢) كان تطور الحالة العقلية والروحية العامة بين الرعاة مختلفاً تماماً عنه بالنسبة للأنبياء بعد خمسمئة عام، كما كان مختلفاً أيضاً عن الكهنة الذين أشرفوا فى النهاية على تجميع وإخراج نسخة العهد القديم.

(١٣) اكتشف في مصر عمود عليه نقوش أثرية من عهد الفرعون مرتتاح ابن رمسيس الثاني، وتصف هذه النقوش حملة إلى فلسطين، ويزعم فرعون مصر أنه هزم الحيثيين والكنعانيين والحموريين، ثم يضيف أن إسرائيل قد «تشتت شملها وإنه لم تتفرق ذريتها». وفيما يختص بالشعوب الأخرى، فقد جاء ذكر مدنهم، إلا أنه لم تكن هناك إشارة إلى أية مدن تنسب لإسرائيل. وكانت هذه أول مرة يذكر فيها اسم إسرائيل خارج العهد القديم، وربما كان تاريخ ذلك حوالي عام ١٢٢٠ قبل الميلاد. ونظراً لأنه لم تذكر أية مدن إسرائيلية، فإنه يبدو أن إسرائيل، كانت لاتزال تسكن الخيام في سيناء. وعندما ضربوا خيامهم في سهول بير السبع ليشتروا الحبوب باغتهم واجتاحتهم العجالات الحربية المصرية.

(١٤) يذكر العهد القديم أنه كان لدى إسرائيل تسعمائة ألف رجل في سن الجندية. وبالتالي يوحى هذا الرقم بأن العدد الإجمالي للعشيرة هو مليونان من الأنفس. ويعتقد أغلب الباحثين المصريين أن إسرائيل كان لديها نحو خمسة آلاف مقاتل، وبالتالي كان مجموع سكانها خمسة عشر ألف أو ستة عشرة ألف نسمة. وإذا رجعنا إلى أن بنى إسرائيل كانوا جميعاً قادرين على أن يستقوا من بئر واحدة، وأنهم ساروا حول «أريحا» سبع مرات في صباح واحد فإنه يصعب القول بأنهم كانوا أكثر من ذلك عدداً.

(١٥) بينما يحكى سفر يشوع أنه غزا كل سلسلة الجبال من الخليل إلى شكيم، وبأنه مسحها قسمها بين الأسباط، يقص سفر القضاة قصة أكثر واقعية، حيث يصور الأسباط المختلفة وقد كل قام لك سبط منها بعمل مستقل في محاولة منها للاستيلاء على منطقة خاصة بها، وغالبا ما تم ذلك بالاتفاق مع السكان الموجودين في المنطقة.

ويعتقد أغلب الباحثين المصريين أنه حدث قتال على أضيق نطاق، بل يذهب البعض إلى القول بعدم وقوع قتال البتة شمال بيت إيل في هذه المرحلة، حيث تسلل بنو إسرائيل إلى أرض كنعان وتوصلوا إلى تفاهم مع السكان. وما جاء في سفر يشوع من أنه كان يقسم الأرض ويقيم الحدود بين الأسباط، فتلك عبارات مألوفة في مجتمع زراعى مستقر ولا تتفق مع حياة الرعاة الرحل. وتلك العبارات، مثل غيرها كثير مما جاء في أسفار موسى الخمسة، لا بد وأنها كتبت بعد مضي عدة قرون.

(١٦) يوجز سفر القضاة الاصحاح الثالث/٥، الموقف الناجم عن الغزو كالاتى: «فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبناتهم وعبدوا آلهتهم». وقد تشير عبارة «سكنوا بينهم» إلى أنهم كانوا يضربون خيامهم بين القرى، كما تدل هذه العبارة، ضمنا، على أن بنى إسرائيل كانوا أقل عددا من «أهل البلاد». ويستنتج البعض أن القبائل في هذه المنطقة كانوا على شاكلة بنى إسرائيل وأنهم إنضموا إليهم طائعين، حيث أن بنى إسرائيل في مصر كانوا جمعا مختلطا.

(١٧) أن الآراء المتعارضة حول تنصيب ملك على إسرائيل الواردة في سفر صموئيل تبدو وكأنها تمثل وجهة نظر عجوز من رجال الأسباط يتحرق شوقا إلى حرية الرعاة القديمة، بينما تمثل، من وجهة نظر أخرى، وجهة نظر ملكى، ربما من أتباع سليمان، سعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحبذ الملكية، ثم جاء مدون بعدهما بفترة بجمع وجهتى النظر المتعارضتين.

(١٨) أن ديانة بنى إسرائيل الأقدمين كانت فى بعض مظاهرها أشبه بديانات الأمم المحيطة بهم، إلا أن ديانة بنى إسرائيل كانت عرضة للتغيير الدائم، ولذا فإن

أقصى ما مكن عمله هو وصفها فى وقت محدد، لأن تقديم القرابين من الأغنام والشيران لا يمكن أن يتم إلا فى ظروف زراعية، لذا فمن الأرجح أن تكون هذه القرابين منقولة عن «شعب البلاد». وقد إندمج الشعبان الكنعانى وبنو إسرائيل وصاروا شعبا واحدا، وإكتمل الإمتزاج بينهما بالتزواج والتعاهد والمتاجرة، وصارت إسرائيل الشريك البارز وتحوّلت كثير من العادات الكنعانية إلى عادات إسرائيلية، وبصفة خاصة، إندمج كثير من الديانة الكنعانية فى ديانة يهوه.

(١٩) على الرغم من مضى ٢٥٠ عاما منذ غزو يشوع، فقد ظلت أورشليم فى حوزة اليبوسيين، وكانت المدينة بوجودها على حدود يهودا الشمالية، بالإضافة إلى أن الجبعونيين والمدن غير الإسرائيلية الأخرى فى السهل حتى بئروت وبيت إيل، تعزل يهودا عن القبائل الشمالية، وفضلا عن ذلك كانت لأورشليم سمعتها بأنها حضن لا يقهر، مما جعل داود يرى أنه بمركزها المتوسط خليقة بأن تكون عاصمة ممتازة لإسرائيل الموحدة، لذا إستولى عليها ونقل مقره إليها، إلا أن اليبوسيين ظلوا يشكلون الأغلبية فى المدينة كما ظلوا كذلك أيام السبى البابلى، وكان لليبوسيين تقليد مرعى يرجع إلى ٨٠٠ سنة على الأقل، ذلك هو تقليد الملوك الكهنة، وهو التقليد الذى أوحى لداود بفكرة مباحته الخاصة ليهوه، وأوحت الرعاية الملكية بأن يهوه عقد عهدا خاصا مع داود كى يتحكم أسرته إلى الأبد، وأن أورشليم المدينة اليبوسية هى المقر الخاص بيهوه، وكان لهذه الرعاية دور فى تغيير تاريخ العالم، إلا أن القبائل الشمالية، فى ذلك الوقت، لم تخدع بهذا الدعاية، وظلت مخلصا لمعابدها المحلية القديمة وعملت على التقليل من شأن معبد داود (الجديد) فى أورشليم.

(٢٠) لكى ينفذ سليمان كل أعماله البنائية استخدم عمال السخرة من كل أنحاء إسرائيل، أى كما كان يفعل رمسيس الثانى فى مصر، وعلى الرغم من ذلك

فقد غرقت البلاد في الديون واضطر سليمان لبيع عشرين مدينة على حدوده الشمالية للملك صور.

(٢١) لم يعد في الامكان تقييم معنى مصطلح «بنى إسرائيل»، حيث استمر تبادل الزواج حراً مع شعب البلاد على كافة المستويات. وتوضح المطالعة الدقيقة للعهد القديم بالذات، أن وحدة بنى اسرائيل كانت وحدة جد غامضة سياسياً وعرقياً، فلم يكن دين يهوه دين منطقة جغرافية بعينها، بل كان دين الارستقراطية العسكرية والكهنوتية، ولم يكن أبداً الدين الوحيد القائم داخل حدود مملكة بنى اسرائيل، إلا أننا إذا كنا لانستطيع أن نعترف من هم بنو إسرائيل، ولانستطيع أن نفرصهم عن الجماعات الأخرى، فكيف كانوا، والأمر كذلك بالنسبة للشعب المختار الذي يختلف عن سواه؟

(٢٢) كانت إسرائيل القديمة مجرد ولاية صغيرة ناشئة تترنح من أزمة إلى أزمة، مثلها مثل أى دولة أخرى من الدول، التي قامت ثم سقطت، وقد أسلمت أمرها لقيادة مخطئة وفشلت فعلاً في أن تدرك أن العجى وراء الثروة والصيت والسلطان يشتري إحساساً زائفاً بالأمن.

(٢٣) أعيدت كتابة العهد القديم بأيدي كهنة أورشليم عندما زالت دولة إسرائيل، ومع أنهم ضمّنوه بعض مواد من الشمال (الرواية الايلوهيمية)، فإنهم كانوا أحراراً في نبد أية مادة لا تروق ليهم، وبالتالي كانوا قادرين على تحريف القصة كلها. بل إن من الباحثين من يعتقد أن بعض المزامير إستعاره كهنة أورشليم من طقوس العبادة الكنعانية.

(٢٤) بدى الغزو البابلى (٥٨٦ ق.م) ليهودا كارثة كاملة، حيث سويت المدن كلها بالأرض وذبح سكانها، ولم يكن ذلك من قبيل إضطهاد اليهود، بل كانت تلك هى الطريقة التي يعامل بها الآشوريون والبابليون الولايات الشائرة

عليهم، وتركت يهودا خربة ومقفرة وغير مسكونة، وأرسلت الطبقات العليا إلى السبي في بابل، وتفرقت البقية في عمون وموآب وسوريا وفي مصر فشكلت بذلك بداية التشتت.

(٢٥) لقد تحطمت المعتقدات اليهودية القديمة بعد السبي البابلي حيث سقطت مقولة (أن أورشليم هي مقر يهوه، ومن ثم فهي لن تقهر، وأن بيت داود سوف يحكم إلى الأبد)، إذ لم يدافع يهوه عن صهيون ولم يحكم آل داود إلى الأبد، ووجد المنفيون في مصر وبابل حضارات تفوق حضارتهم بمراحل وأدركوا كم كانت يهودا صغيرة، وشكوا في إمكانية أن تكون دولة صغيرة كدولتهم محل إختيار الله العظيم.

(٢٦) خطَّ إشعيا النبي سطرا جديدا وصف فيه يهوه بأنه رب العالمين وخالق الكون، وهكذا من أعماق الكارثة بدأت الديانة اليهودية الروحانية. وإذا كان اليهود قد حرموا من الهيكل كنقطة جغرافية يلتقون حولها، فقد أصبحت مراعاة الشريعة الدينية هي العلامة المميزة لليهودى، وأعيدت كتابة أسفار موسى الخمسة وأدخل سفر اللاويين على التوراة لتسجيل الطقوس الدينية للهيكل الذى دمر.

(٢٧) كانت الجماعة الأولى التى عادت إلى القدس (من بابل) فى عهد قورش جماعة صغيرة وبقي كثير من اليهود فى بابل لأنهم آثروا ألا يتركوا ممتلكاتهم. وانتعشت الطائفة اليهودية فى بابل وفارس إنتعاشا عظيما وكان كثير من أعضائها على درجة كبيرة من الثراء بينما شغل بعضهم مناصب هامة فى الحكومة أو البلاط.

(٢٨) كان عزرا هو الذى غير تاريخ اليهودية، حيث حدد أنه على «الجنس المقدس»، منذ ذلك الوقت فصاعدا أن يكون فى معزل عن البشر. وقد هلك البعض لاصلاحات عزرا ووصفه البعض الآخر بضيق الأفق، ولكن حركة الاصلاح التى

بدأها لاتزال ملموسة حتى اليوم، وكان منع الزواج المختلط فكرة جديدة تماما، حيث كان لبني إسرائيل مطلق الحرية فى الزواج من أهل البلاد على مدى ثمانمئة عام، ولكنه أراد أن يبعث أيام يشوع من جديد فى محاولة لإحياء إحتقار الغزاة القديم لأهل البلاد. وكان عزرا يتحدث بغير دقة عندما يصف اليهود فى الشرق الأدنى، بينما حدث الاختلاف بين هؤلاء الذين يعبدون يهوه وأولئك الذين لا يعبدونه.

(٢٩) لم تكن الديانة اليهودية مقصورة على يهودا أو فلسطين دون غيرهما، ومن الأرجح أن يكن تعداد اليهود خارج فلسطين أكثر فعلا من عدد سكان يهودا. وتبدى الديانة اليهودية منذ ذلك الوقت لإتجاهين متعارضين، فاليهود المنتشرون فى أنحاء العالم صاروا هم المدافعين عن الرأى المتحرر لجميع الشعوب، بينما أصر الآخرون على إنعزالية «الأمة المقدسة».

(٣٠) فى الفترة اليونانية بدأ صبغ أورشليم بالصبغة اليونانية على يد اليهود أنفسهم، ولم يكن ذلك من قبيل التكر للديانة اليهودية، بل لأن اليونان كانت هى الدولة القائدة فى ذلك الوقت، وكان تقليد اليونانيين يعتمبرا تعصرا وعدم تقليدهم يعتبر تخلفا وتأخرا. وكانت الأمباطورية اليونانية تضم كثيرا من المجموعات الدينية الصغيرة التى تدين لها بالولاء، وبدى الأمر فى يهودا وكأن الدين هو الذى يشير عدم الولاء، ولذلك حاول أنطيوخس طمس معالم الديانة اليهودية، فحرم الختان وأعتبر تحريم أكل الخنزير جريمة لا تغتفر ونصب تمثال جوبيتر فى الهيكل.

(٣١) على الرغم من أن بداية حكم الحشمونيين إتخذ طابع الثورة الدينية، إلا أن عهدهم تميز بالعداء الشديد بينهم وبين اليهود الاتقياء الذين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت باسم «الحسيديم»، إلا أنهم كانوا معروفين وقتئذ باسم «الفريسيين».

(٣٢) على نحو ميلاد إسرائيل الجديدة العسكرية العدائية من الاضطهاد النازي، أحالت المقاومة الأصيلة ضد أنطيوخس الرابع يهودا إلى ولاية عسكرية عدوانية متعصبة، وهاجم يوحانان هيراكينوس كل جيرانه وكانوا يفتقرون إلى التنظيم العسكري. ولكي يزيد يوحانان من أعداد جيشه حول الادوميين (الذين كانوا يستوطنون الخليل) قسرا إلى الديانة اليهودية، وهي سياسة جديدة تؤكد بطلان أية دعوى يهودية بالوحدة الجنسية العرقية. وقد نعمت يهودا تحت حكم الحشمونيين بفترة قصيرة من الاستقرار بين الامبراطوريات، الأمر الذي يشبه كثيراً ما حدث في الشرق الأوسط في أيامنا بين البريطانيين والروس.

(٣٣) يجوز أن نذكر فيما يتعلق بالمعزل اليهودي (الجيتو)، الذي قام فيما بعد، أنه في عام ٣٠٠ ق.م كان اليهود يفضلون أن يعيشوا في مجتمع يهودي خاص بهم، بالرغم من أنهم كانوا، في ذلك الوقت يتمتعون بامتيازات خاصة، وكانوا أبعد مايكونون عن الاضطهاد.

(٣٤) لم يكن في العالم القديم من يهتم بعلم الأعراق البشرية، لذا يتعذر علينا أن نكتشف من كانوا اليهود في المهجر، ويقول سترابو (ولد سنة ٦٣ ق.م)، العالم الجغرافي الروماني - اليوناني، أن اليهود كانوا يملأون الدنيا حوالي عام ٤٨٧ ق.م، بحيث كان يصعب أن نجد مكاناً في الدنيا ليس به جالية يهودية ضخمة ذات نفوذ كبير. وتختلف تقديرات نسبة أعداد اليهود في العالم الخارجي إلى أعدادهم في يهوذا، قبل ظهور المسيح لوقت قصير، اختلافاً شديداً، بل أنها تختلف من القول بأن اليهود في المهجر كان عددهم مساوياً، على الأقل، لعدد اليهود في يهوذا، إلى القول بأنه ربما كان عدد اليهود خارج فلسطين عشرة أمثال عددهم في يهوذا. ومن الأرجح أن عدد اليهود في المهجر كان مساوياً لأربعة أمثال أو خمسة أمثال عددهم في يهوذا وهذا يعتبر تخميناً مقبولاً. ويكتب الحاخام ريزين

فى معرض حديثه عن عهد الحشمونيين (١٦٦ - ٣٨ ق.م) عن تدفق اليهود المستمر الى الدول الأخرى، ويستطرد فيقول «إن كثرة عدد اليهود فى جميع أنحاء العالم قبل غزو الروم لفلستين لم تكن ناتجة عن كثرة التوالد الطبيعي، لأن نسبة كبيرة منهم كانت من الوثنيين الذين تحولوا إلى الديانة اليهودية.

(٣٥) من المليون يهودى الذين كانوا بمصر فى عهد بطليموس، كان بعضهم واسع الثراء، كما عمل كثير منهم فى جباية الضرائب. وهكذا يبدو أن الارتباط التقليدى بين اليهود والشعون المالية بدأ فعلاً فى الاسكندرية قبل ظهور المسيح. فلما كتب يوسيفوس بعد سنة ٧٠ م أن اليهود لم يكونوا شغباً تجارياً، كان يشير فقط إلى أهل يهودا.

(٣٦) قد خدم يهود الاسكندرية البطالمة قرابة ثلثمائة عام، إلا أنهم عندما وصل الرومانيون تركوا اليونانيين وأخذوا يقدمون المساعدات للغزاة الجدد لقاء مزايا خاصة من أباطرة الروم. وسحب أوغسطس الاستقلال الديمقراطى من الاسكندرانيين ولكنه أكد امتيازات اليهود. وبناء على ذلك كره اليونانيون فى الاسكندرية اليهود باعتبارهم التابع الذى يدلله غزاتهم الرومان. ويبدو أن اليهود ينجحون دائماً فى أن يكونوا فى صف الجانب الغالب.

(٣٧) يقول رينان أن «اليهود قدموا فى وقت مبكر جداً إلى بلاد الغال قبل مولد المسيح بزمان طويل، وقد استقبلوا استقبالاً طيباً ونجحوا فى تحويل ديانة كثير من الناس إلى اليهودية، فقد كانت هناك جماعات من الناس ربطوا أنفسهم بالديانة اليهودية دون أن يكونوا لهم سلف واحد فى فلسطين.

(٣٨) كان الاصرار على حتمية أن يصبح الوثنى المهتدى يهودياً من جميع الوجوه (تاركاً جنسيته الأصلية وعلاقته بأسرته مع ضرورة معايشة الجالية اليهودية) أمراً حاسماً، وكان ذلك هو مفتاح ظاهرة كيف يستطيع اليهود أن يتشابهوا فى

كثير من الأمور، بالرغم من إنتمائهم إلى سلالات مختلفة لا تدخل تحت حصر.

(٣٩) ليست هناك طريقة لاحصاء نتائج التبشير اليهودى (لتحقيق التحول الدينى) فى الحقبة التى يتناولها بحثنا هذا، إلا أنه لاشك فى أنها كانت جد كبيرة، وكان الداخولون فى دين اليهود من أجناس كثيرة، ومن كل طبقات المجتمع. وقد كان بعض من أكبر الباحثين البارزين فى القرن الثانى بعد الميلاد من أصل وثنى مثل الحاخام عقيبا الشهير.

(٤٠) من بين الامتيازات العديدة التى كانت ممنوحة لليهود دون غير فى الامبراطورية الرومانية الاعفاء من الخدمة العسكرية، ومن العمل أيام السبت. وكان تصدير الذهب محظوراً، إلا أن اليهود فقط كان فى إمكانهم جمعه وإرساله إلى أورشليم. وعل أية حال فقد وصل كثير من اليهود إل مرتبة فارس روماني كما كان هناك أعضاء من اليهود فى مجلس الشيوخ الروماني. وليس بمستغرب أن تضج الطوائف الأخرى بالشكوى من أن اليهود ينالون جميع المزايا التى ينالها المواطنون الآخرون مع أنهم، يعنى اليهود، كانوا معفيين من معظم الواجبات. ولم تسبب الثورات فى يهودا أى انتقاص لهذه الامتيازات فى جميع أنحاء الامبراطورية.

(٤١) لم يمتلك اليهود «فلسطين» ابتداء من الرجوع من بابل إلى تدمير الهيكل سنة ٧٠ بعد الميلاد ولكنهم كانوا يسيطرون فقط على مقاطعة يهودا الصغيرة. فقد غزا الحشميونيون الادوميين وسكان الجليل حيث أجبروهم على اجراء عملية الختان سراً. وقد أصبح كل هؤلاء يهوداً بالدخول فى ديانة اليهود دون أن يكونوا يهودا من أصل أسلافهم، ولم يحدث قط أن احتل اليهود السهل الساحلى.

(٤٢) عقد يوحانان بن زكاي، وهو واحد من أبرز أحبار ذلك العصر، العزم على الهروب من أورشليم. ولما كان يخشى رجال العصابات فقد تظاهر بالموت وحمل في تابوت الموتى على أكتاف تلاميذه. وما أن ابتعد عن المدينة حتى ذهب إلى فسبازيان وحصل على الإذن بافتتاح مدرسة لدراسة الشريعة في يفته على السهل الساحلي، وكان عمله هذا هو ما غير تاريخ اليهودية. وهو تحول غريب في التاريخ اليهودي فمن المنازعات الضارية «للزيلوت» المتعصبين الى حوار معلمي الشريعة المثقفين، ومن المحاكم الدموية لشمعون بر جيورا ويوحنا الجيشالي والزيلوت إيعازار إلى الباحثين المسالمين عند جملثيل، ومن قعقة الأسلحة وفوضى المدن المحاصرة ومساوىء القحط والمذابح والحرائق إلى المجادلة في اللحوم غير النظيفة والأحلام الجديدة ومراعاة عطلة السبت. وقرر الأحبار في «يفنه» أيضا، أن العهد القديم لم يوح به من الله كلمة فكلمة وحرفا بحرف، بل كتبه الانسان. أما المسيحيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يهودا حتى سنة ٧٠ ميلادية، فقد كانوا يتمسكون بالاعتقاد اليهودي السابق، بأن العهد القديم يتضمن كلمات الله بنصها وروحها. وبناء على ما ذكره الحاخام بريزين كان الأسيار اليهود يقيمون العهد القديم على أساس أنه مصدر للموعظة أكثر منه ذو صفة تاريخية.

(٤٣) لم يكن المتطرفون الذين ثاروا ضد روما هم أغلبية اليهود في فلسطين. وما يثير الدهشة أن أكثرهم كان من سكان الجليل أو الأدوميين الذين أجبروا على اعتناق الديانة اليهودية ومن لم يعترف بهم اليهود باعتبارهم من غير السلالة اليهودية الأصيلة. ولأيدو أن وازعهم كان وازعا دينيا، حيث كانوا يقتلون الحاخامات ويدنسون الهيكل، ولعل وازعهم كان بغض الأجانب وكراحتهم وشهوة السلطة والجشع. وقد هرب الصدوقيون والفريسون والمواطنون البارزون من المدينة على قدر ما أمكنهم. ومن الأرجح أن طوائف اليهود المسالمة كانت تتمتع بحماية تيتوس وفسبازيان فلم تتعرض لاضطهادهما. حقيقة كانت المعاملة التي يلقاها

الأسرى معاملة وحشية، إلا أنها كانت متمشية مع العادات المرعية فى ذلك الوقت. فقد رأينا الكسندر جانائى ملك يهودا يصلب ثمانمائة من إخوانه اليهود، وعندما استولى اليهود على السامرة ذبحوا سكانها جميعاً.

(٤٤) لا يمكن القول بصفة دقيقة أن تيتوس طرد اليهود من فلسطين أو حتى من يهودا. وكان أولئك الذين يعتنقون الديانة اليهودية فى العالم خمسة أمثال اليهود فى فلسطين، كما كانت هناك مشاغبات من اليهود فى الاسكندرية، وطرابلس فى بداية الحرب، ولكن فيما عدا ذلك لم يتأثر اليهود فى العالم. بل كان هناك شىء أكثر مغزى وهو أن الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها لم ينتقص منها شىء. والظاهر أن الحكومة الامبراطورية اعتبرت أن هذه الحوادث هى مجرد تمرد فى فلسطين، ولم تعتبرها ثورة من جانب اليهود. ويبدو أن السبب هو أن كثيراً من يهود العالم كانوا من المتهودين المحليين الرومان أو الأسبان أو الغاليين أو البربر أو الجرمان - ممن لم يكن لهم روابط مع فلسطين.

(٤٥) عندما نفذ صبر هارديان آخر الأمر، عكس الآية فقير مسلكه السلمى (كما فعل أنطيوخس إيفانيس من قبل) وأصدر تشريعاً يقضى بتحريم الختان، فثار رجل فى يهودا يطلق عليه «بركوخبا» (ابن الكوكب) وقد باركه الحاخام عقيبا، عالم التلمود الشهير، ووصفه بالمسيح المخلص. وفى عام ١٣٥ م. أنحمت ثورة بركوخبا بعد أن أريق دماء كثيرة وأعدم الحاخام عقيبا، وأعيد بناء أورشليم. كمدينة رومانية سميت برسم «إيليا كبتولينا»، وهكذا فشل أسلوب السيف فى الحفاظ على حياة اليهود، وكان الأسلوب الروحاني هو الأسلوب الآخر الذى اتبع بحماس شديد... فلقد قدر لليهود ألا يشكلوا مملكة على هذه الأرض.

وفى ختام هذا العرض أرجو أن قد وفقت فى مساعدة القارئ على فهم الفكرة الرئيسية التى تضمنها هذا الكتاب والتى يمكن أن تعين كثيرا فى قراءة متن الكتاب بتفاصيله، كما تعين فى نفس الوقت على قراءة الواقع السياسى المعاصر الذى تمر به دولة إسرائيل حاليا.

وتأكيدا لمصادقية هذه الرؤية للتاريخ اليهودى القائمة على نظرية أن اليهود يشكلون جماعة دينية شتاتية (دياسبورية) وأن الشتات هو الوسيلة الأكثر ضمانا لاستمرار وجودهم من خلال التقوقع داخل إطار الدين وضمانا لأمنهم الاقتصادى (قدر اللحم)، وأنهم لا يصلحون لأن يكونوا شعبا مثل سائر الشعوب فى إطار سياسى فى فلسطين، وأن فلسطين ظلت عبر التاريخ مفتوحة أمامهم دون قيود، ولكنهم لم يهاجروا إليها بجمعهم، واكتفوا بترديد شعارات الأحلام والشوق إليها وانتظار الخلاص المسيحانى، تأكيدا لهذا كله، أقدم رؤية الأديب والمفكر الاسرائيلى أفراهام ب. يهو شواع حول هذه القضية والتى نشرها فى كتاب بعنوان «بفضل الطبيعية» (بزخوت هنور مالىوت)، تحت عنوان «المنفى - الحل العصابى».

والله الموفق

د. رشاد عبد الله الشامى

مصر الجديدة ٢٠٠٠/٩/٣٠

«المنفى* - الجدل العصابي»

للأديب الاسرائيلي أ.ب. يهوشواع** عن كتاب «بفضل الطبيعة»

(دار نشر شوكن - تل أبيب ١٩٨٠)

تعتبر مسألة «المنفى» أهم وأعمق سؤال يجب على اليهودى أن يسأله لنفسه، حينما يتوه في مضمون الشعب اليهودى. ان «المنفى» هو مصدر المشاكل التى يتخبط فيها اليهود منذ أجيال كثيرة، وعلى الأخص فى القرن الماضى، وهو لب المشاكل العملية التى تتخبط فيها دولة اسرائيل فى الحاضر. إن فهم ظاهرة المنفى هو المفتاح من أجل فهم الظاهرة اليهودية، ومن شأنها أن تحرك مشاعرنا أكثر من كل شىء من أجل التمييز الأمين جداً للصراعات القاسية، التى تورط فيها اليهود ومازالوا فيها حتى الآن. إن الشعب اليهودى يحوى تنوعات غنية، وأحيانا تناقضات من العقائد والأفكار والقيم. ومن بين هذه الأشياء ما كان ارتبا للشعب لفترة متواصلة وحظى من أجل ذلك بتأكيد أكثر. وعلى وجه العموم فإنه يمكن طرح وجهة نظر ما جاء فى المصادر الدينية المكتوبة، ويمكن طرح وجهة نظر مختلفة تماما فى مقابلها، لها أيضا سند فى المصادر. ولكن كل أصحاب التفاسير المختلفة لمغزى القيم اليهودية يتعرفون فى نهاية الأمر ببعض المسلمات الشائعة، مثل «حب

(*) يستخدم يهوشواع فى كتابه مصطلح «المنفى» (جالوت) بدلات من «الشتات» (الدياسبورا) عل إعتبار أنهم فى المصطلح الصهيونى يفرقون بين «المنفى» كظاهرة قسرية إجبارية، وبين «الشتات» كظاهرة إختيارية، وذلك عل الرغم أن مضمون فكرته يقوم على أساس أن اليهود هم الذين إختاروا الحياة خارج فلسطين عبر التاريخ طواعية وليس جبراً أو قسراً أى أنهم عاشوا فى «شتات» وليس فى «منفى».

(**) ولد أ. ب. يهوشواع فى القدس عام ١٩٢٦ ويعيش حالياً فى حيفا. درس الأدب والفلسفة فى الجامعة العبرية بالقدس. عاش خارج إسرائيل من ١٩٦٣ - ١٩٦٧. يعتبر من أبرز علامات الأدب العبرى فى إسرائيل منذ الستينيات حتى الآن. من الأدباء المحسوبين على اليسار الإسرائيلى، وينادى فى كتاباته بأن تكون إسرائيل دولة كل مواطنيها بما فيهم عرب ١٩٤٨. يتبنى وجهة نظر بأن الشتات ركيزة رئيسية للوجود اليهودى. نشر العديد من الأعمال الأدبية تعاطف فى بعضها مع الحق الفلسطينى. من أبرز أعماله: «فى صيف ٥٧٠»، «فى مواجهة الغايات»، «الماشق»، «الطلاق المتأخر»، «الفصول الخمسة» (مولوخو)، «السيد ماني»، «رحلة إلى الهند».

أرض إسرائيل» ، و«شعب إسرائيل» ، «والإيمان بحق الشعب في الوجود الوحدة» ، وما شابه ذلك من المبادئ الثابتة والبيديهية. وهذه الأشياء تساعدنا على الوصول إلى فهم أكمل لمضمون الشعب اليهودى. وحينما نحاول أن نحلل واقع المنفى الموجود فى التاريخ اليهودى لالفيين وخمسمائة عام تقريبا فاننا نقتررب من فهم أكثر واقعية للب المشكلة اليهودية.

ففى السنوات الخمس عشرة الأخيرة يوجد تركيز على الأسئلة العملية التى يثيرها المنفى: كيف نزيد الصلة بين دولة إسرائيل والمنفى؟ كيف نمنع الانصهار؟ هل سيقوم فى إسرائيل مركز للعالم اليهودى؟ - ولكن السؤال الكبير أو السؤال الأساسى - الذى اثارته الصهيوتية بعنف - «لماذا المنفى على وجه العموم»؟ - وهذا السؤال يبدو أنهم يخجلون اليوم من سؤاله.

هناك وجهتا نظر اساسيتين مختلفتين فى تناول المنفى. وجهة النظر الأولى تنظر الى المنفى باعتباره حادثة وقعت للشعب اليهودى وكارثة كانت الشعوب هى السبب فيها وفرضتها على اليهود، وبينما كانت الشعوب الأخرى تنهار تماما عند حدوث كارثة كهذه وتفقد هويتها كشعب، فإن الشعب اليهودى (بسبب الحصانة الروحية الدخلية) نجح فى الصمود والطوفان فوق امواج التاريخ. صحيح أن المنفى ظاهرة متواصلة، وربما لم يبذل الشعب كل الجهود العملية من أجل التخلص منه، ولكنه كان فى نظره دائما بمثابة حالة مؤقتة، ولم يفقد فى أى مرة رغبة العودة الى أرضه، التى فيها يكتمل استقلاله ويتم خلاصه خلاصا قوميا وروحيا. أى أن الشعب ببساطة ينتظر ظروفنا أحسن، تمهد لحيء الخلاص المرتقب. وعن وسيلة تؤدى به للاستقرار فلسطين. وحينما يأتى السلام ويسود قليلا، يتفتت المنفى ويتدفق رويدارويدا الى إسرائيل.

وهذا الاتجاه الفكرى، الذى يفترض أن المنفى هو حالة فرضت على اليهود، يتجاهل حقيقة أساسية وهى، أن المنفى لم يفرض على اليهود، بل هم الذين فرضوه على أنفسهم، ولا يجب أن ننظر اليه كحادثة أو ككارثة بل كاعوجاج قومى داخلى أعمق... لذلك فإن الطريق نحو الحل، إذا ما كان الشعب يريد الحل فعلا، يختلف تماما عما هو شائع فى مناهج التفكير. إن الشعب اليهودى غير جدير بالمديح الذى نكيله له لأنه صمد فى المنفى. فلو كانت هذه بالفعل كارثة فرضت عليه، لكان هذا الشعب جديرا بالمديح الذى يكال له لأنه صمد ولم ينهار بسبب هذه الكارثة. ولكن نظرا لأنه شو نفسه قد إختار ومازال يختار هذه الطريقة فى الوجود، إذن فلا داعى للتعجب والانفعال لأنه كيف وجوده القومى مع هذه الحالة.

أما وجهة النظر الثانية، فإنها تنظر إلى المنفى كظاهرة دائمة وشبه طبيعية بالنسبة لليهود. انها تعترف بالتعاون الوثيق بينها وبين هذا الشكل من أشكال الوجود. ووفقا لوجهة النظر هذه تعتبر اليهود شعبا شتاتيا، وهنا تكمن قوته الوجودية. ووفقا لهذا الاتجاه الفكرى يجب ألا نتدهش لأن الشعوب الأخرى لا تقيم منفى جديرا باسمه كوسيلة مدروسة من أجل ضمان وجودها القومى على مدى الفين من السنين. وهذه المدرسة الفكرية تفهم جيدا مدى عمق حاجة اليهود للمنفى، لدرجة أنه أصبح متداخلا بشكل عضوى فى مضمون اليهودى وفى ابداعه الروحى، ولذلك فإنها تحاول أن تنظر إلى المنفى باعتباره ظاهرة شرعية وطبيعية. ووفقا لهذه المدرسة الفكرية يثور أحيانا السؤال التالى: «إذن لماذا الدولة؟»، وحتى اذا كانوا يعترفون بضرورة المركز القومى المستقل، فانه بناء على وجهة النظر هذه توجد ازدواجية متساوية القيمة وهى: المنفى والمركز.

إن هذه المدرسة الفكرية تتجاهل الحقيقة البسيطة المتصلة بأن المنفى كان مصدرا لسلسلة الكوارث الصعبة التى اجتاحت اليهود، وأنه بسبب هذا الوجود

تمت ابادة ثلث الوجود اليهودى، وأنه فى المنفى فقد الشعب اليهودى عن طريق الانصهار ملايين اليهود. لقد كان عدد الشعب اليهودى عشية خراب الهيكل الثانى بين ٤ - ٦ مليون نسمة (وهو عدد محترم - فى نطاق العالم القديم)، وبسبب الوجود الحيوى فى المنفى وصلنا فى بداية القرن السابع عشر الى مليون نسمة فقط. لقد أبيد يهود كثيرون فى المنفى ومازال خطر الاضطهادات المتوقعة للطوائف اليهودية فى المستقبل لم يتبدد (فى الاتحاد السوفيتى وفى أمريكا اللاتينية على سبيل المثال). إن المنفى هو السبب المباشر لذلك «المصير اليهودى» المرير والقاسى، الذى أصبح بمثابة مادة موضوعية فى أى مناقشة حول المسألة اليهودية.

إن هذه الجملة البسيطة: «المنفى سبب النكبة»، لم يقلها اليهود على وجه العموم. إن الشعب اليهودى يشبه انسانا يسير فى وسط الطريق، وحينما تصدمه سيارة يقودها مجنون فإنه يتهم، بالطبع، السائق ويواصل طريقه «الشجاع» فى وسط الطريق، بينما يحاول أن يطور نظرية روحانية وأيديولوجية، حول كيف يجب على السائقين أن يدوروا حوله يمينا وشمالا حتى لا يصيبوه. وهذا الموقف المبدئى الذى ينظر إلى المنفى كمضمون طبيعى وطريقة وجود شرعية لليهود، يتجاهل حقيقة أن اليهودى لم يعط على الإطلاق شرعية روحية نهائية لهذه الطريقة من الوجود.

بناء على ذلك. يجب على النقد أن يبدأ بهز وجهتى النظر وأن يحاول أن يبنى أطروحة جديدة. وسوف أقسم أقوالى الى ثلاثة أجزاء:

أ - استعراض تاريخى موجز لالبيات الاطروحة، القائلة بأن المنفى هو ثمرة رغبة الشعب، وأنه لم يلق بالشعب بالذات الى المنفى، بل هو الذى ألقى نفسه ومازال يواصل القاء نفسه اليه.

ب - محاولة تبرير أسباب هذه الظاهرة، مع أخذ حقيقة أن المنفى هو مصدر كل تلك الاضطهادات التى حلت على رؤوس اليهود، وأنه يعتبر (حتى فى الفترات

الهادئة) أمراً مؤقتاً، وتبرير الأسباب الداخلية لعلاقة الحب والكره هذه تجاه المنفى، وتجاه هذا التعذيب الذاتى.

ج - الاستنتاجات الايدولوجية والعملية على المدى الطويل والمدى القصير التابعة من هذا التحليل.

المنفى كمضمون إرادى

سأبدأ بذكر بعض الحقائق التاريخية البسيطة والمعروفة للجميع والتي يفيد فهمها أحيانا وبربك أحيانا أخرى.

لقد ولد ابراهيم ابو الأمة خارج فلسطين، واستدعاه الرب لترك وطنه وبيت أبيه ليصل الى أرض جديدة اختارها له الرب من أجل أن يخلق فيها شعباً جديداً مع عهد وميثاق جديد. اذن، فإن اليهودى الأول هو المهاجر الأول، ولكن هذا المهاجر هو أيضاً النازح الأول. لقد كانت الظروف الاقتصادية فى أرض كنعان صعبة ونزح ابراهيم فوراً الى مصر. وكم هو مفرع أن نعتقد أن هذا الرجل الكهل، الذى ترك موطنه وبيت أبيه بأمر الرب لكى يصل إلى أرض الميعاد، المزمع أن تكون بلد الشعب الذى سيولد من نسله، لا ينجح فى الصمود فيها، بالرغم من أنه كان رجلاً موسراً، وينزح منها إلى بلد آخر. كان من الممكن أن نفهم ضعفه لو كانت قد عمته الاشواق الى وطنه. ولكن الأمر لم يكن كذلك. إنه لم يعد الى وطنه، ولكنه نزح إلى بلد آخر. أن إصطلاح «نازح» ولد فى قصة ابراهيم، واليهودى الأول هو المهاجر الأول. والنازح الأول. وقد ظل اليهودى يحمل فى داخله هاتين الصفتين المرتبطتين با هجرة والنزوح عبر التاريخ كله. إن ابراهيم يهاجر وينزح، ويعود للهجرة. ولم ينقض الا جيلين حتى يعود يعقوب الحفيد مرة أخرى للنزوح الى مصر، ولكن دون أن يحظى بالهجرة عائداً ويموت فى مصر (المنفى). لقد

ذهب إلى مصر (المنفى) مع أبنائه، لأنه كان هناك جوع في البلاد. وأنا واثق من أنه كان هناك سكان آخرون في البلاد ظلوا فيها بالرغم من الجوع. ويطلب يعقوب، أن يعيدوا رفاته إلى فلسطين ويدفنه هناك. هل هذه هي الرسالة الخفية لفلسطين، وهي أن تكون مقبرة لرفات اليهود، أم أنها أرض الأحياء؟ إذن فالآباء الأول، والأمة الجديدة المولودة، وعلاقة الأوائيل بالبلاد، والذين كان من المفروض أن تكون علاقتهم بها بمفهوم معين نموذجاً لكل الشعب، هي علاقة ذات مغزى مزدوج (الهجرة والتزوج).

لقد خلق الشعب اليهودي في مصر. هل هذه الحقيقة مدركة لدينا بمغزاها الكامل؟ إن الشعب اليهودي لم يخلق في فلسطين. إن العلاقة المادية والأولية بين الشعب ووطنه ليست علاقة طبيعية. لقد تم إعداد اليهود كشعب في مصر، ومن هنا فإن المنفى كبوتقة لصهر اليهود تسلل إلى أعماق الوجود اليهودي. وأكثر من هذا. لقد أعطيت التوراة في الصحراء وليس في فلسطين. والتوراة - إطار الصفات التي سوف تحدد هوية اليهود، وتحدد رسالتهم - لم يتم منحها في فلسطين. إن العلاقة الخاصة التي قطعت بين الشعب وبين الرب كانت بدايتها في الصحراء، وفي منطقة خاوية، في منطقة وسط، بين المنفى وبين فلسطين ونحن نرى كيف أن الشعب يعود طوال التاريخ ويريد أن يجد هذه المنطقة الخالية عبر كل تاريخه، وبصفة خاصة حينما يريد توية أو تجديد روحانياً. إن اليهود في الصحراء يكونون في حالة الميت الحي. إن الصحراء هي مكان الموت، وفي مكان الموت هذا يحدث التجدد الروحي، والصحراء أيضاً هي مكان نفي، غير موبوء، وطاهر، وهناك يقوم اليهود باستعداداتهم من أجل المجيء إلى البلاد. والرب يطلب بالفعل استعدادات دقيقة. إن الدخول إلى البلاد هو دخول ذو مغزى كبير، إنه ليس احتلالاً مادياً فقط للبلاد بواسطة شعب جوال، بل هو احتلال ذو مغزى روحي. ووعده الشعب بالبلاد

مقرون بشروط خطيرة، لأن القوة بمفردها لن تضمن سيطرته عليها، إن الشعب يستطيع أن يصمد في أبلاد فقط إذا ما أطاع صوت الرب وأقام شرائعه، وإذا لم يفعل - فانه سيتحمل عقوبات شديدة، ذروتها - الطرد من البلاد، أى المنفى، ويتم إدراك البلاد كبلاد مقدسة، والمخطئون من بين الشعب ينجسونها ولذلك تتقيأ البلاد الشعب منها. وقد حدد في هذه النصوص الأولى مبدأ أساسى وهو: الشعب أسبق من البلاد بكل المفاهيم. هناك شروط خطيرة وواضحة للبقاء في البلاد، ولكن ليست هناك شروط من أجل نفس وجود الشعب. فيمكن للشعب أن يخطئ أخطاءً جسمية للغاية، وبالرغم من كل ذلك فإن وجوده مضمون فوق كل شك. إنه يعاقب، ولكنه لا يباد. إنه سيذهب للمنفى، ولكن هذا الذهاب ليس نهاية المطاف، فمن الممكن أن يتواجد في المنفى ومن الممكن أن يعود منه أيضاً. وقد استقر في الوعي اليهودى القديم، أن الخروج للمنفى لا يتم بسبب قوة خارجية، بل بسبب خطأ روحى داخلى من الشعب، حينما كان في الصحراء. وقيل أن يحقق اليهود دقيقة واحدة من الاستقلال، وقيل أن تطلأ أقدامهم بلادهم كانت ما زالت تتحدد في السماء امكانية السير إلى المنفى والعودة منه (أسفار الخروج والعدى). وبصورة واضحة تحدد لليهود الذى ولدوا في المنفى الامكانية العملية للوجود القومى يلا يلد، إقليم لا هناك شك في أن يكون احتمال كهذا ممكن حتى في خيال الشعوب الأخرى).

إن وجود الصحراء في الوعي اليهودى مهم للغاية. إن كل الأعياد القومية التى يحتفل بها اليهود (المظلل والفصح والأسابيع، خلافاً للأعياد الدينية الخالصة مثل: رأس السنة وعيد الغفران) - مرتبطة بوجود اليهود في الصحراء.

وبناءً على ذلك، فإن اليهود يخافون من التحول إلى البلاد. وكلمة "خطف" هى مفتاح آخر من أجل علاقة اليهود بفلسطين. إن اليهود يخافون من ألا

يستطيعون تنفيذ الشروط الصعبة التي وضعها الرب من أجل وجودهم في البلاد. وهنا تكون قضية الجواسيس مثيرة للاهتمام: إن الشعب الذي يحارب شعوبا أخرى بنجاح منذ خروجه من مصر يمتليء خوفا من سكان البلاد، لدرجة الرغبة في العودة إلى مصر. إلا أن جيلا كاملا يجب أن يموت في الصحراء وجيل جديد، لم يعرف المنفى، يجب أن يولد من أجل يكون جديرا ومجهزا للدخول إلى البلاد.

ويصل اليهود إلى أرض كنعان، ويحتلوها ويقيموا فيها مملكتهم. وبعد فترة من الزمن تنقسم المملكة، وتمر مئات السنين وتتخرب مملكة إسرائيل. وتنفي الأسباط العشرة وتختفي. وذلك الجزء من الشعب، الجزء «الإسرائيلي» الذي تصرف حسبما يبدو، بصورة طبيعية للغاية أكثر من الجزء «اليهودي» الذي أقام في منطقة يهودا، تصرف بصورة طبيعية هو الآخر حينما قذف به إلى المنفى. لقد فقد مع فقدان أرضه ووطنه كل من هويته وقوميته. إن البلاد، والأرض، هي أجزاء موضوعية في توصيف قوميته. لقد تصرف هذا الجزء من الشعب اليهودي في بداية التاريخ حسبما تصرف سائر الشعوب.

وبعد حوالي مائة وخمسون عاما تم تخريب مملكة يهودا، وخرج الشعب إلى المنفى في بابل وصمد. لقد حافظ على هويته وتصرف وفقا للخطة الذي تحدد في سفر العدد. لقد أثبت أن الشعب يستطيع أن يحافظ على هويته دون أن يتواجد ماديا في البلاد. لقد بين ما هي قوة التواجد الكامنة في الخيال وفي الروح. وكان هذا المنفى قصيرا للغاية حيث استمر فقط لمدة خمسون عاما. وحينما سمح وعد قورش في عام ٥٢٠ ق.م لليهود بالعودة إلى فلسطين ليعيدوا بناء استقلالهم فيها، عاد فقط جزء صغير إلى فلسطين ليبنى الهيكل الثاني، ولم يعد جزء محترم وهام من الشعب وظل طواعية في المنفى. إن الرجال الذين ولدوا فلسطين، أو الذين ولدوا أبائهم فيها، رفضوا العودة إليها وفضلوا البقاء في المنفى. إنهم لم يتنكروا لأصلهم

ولهويتهم القومية - بل على العكس من ذلك، ظلت رابطتهم بالشعب عميقة، وأيضاً أيدوا وشجعوا السائدين، ولكنهم هم أنفسهم لم يعودوا. وهنا نحدد النقطة الأولى للتصديق على افتراضنا لمصدر المنفى، والتي من الآن فصاعداً سوف تسيطر على التاريخ اليهودي. لقد قيل: لو هاجر إلى إسرائيل قدر من المنفى لما كان الهيكل قد تخرب ثانية. وينطوي هذا القول على حقيقة كبيرة. إن ذلك الجزء الذى ينضم إلى العائدين لاعداد الاستقلال من جديد قد زرع بذرة الاضطهاد. إنه ربما كان يتطلع إلى احتمال، ألا يصمد هذا المركز القومي، ويكون من المستحسن حينئذ أن تبقى البلاد بمثابة حلم، وبمثابة هدف وتطلع ومراد، بدلا من أن يروها كواقع مخيب للأمال.

وعشية خراب الهيكل الثانى كان حوال نصف الشعب اليهودى مشتت خارج فلسطين، لقد ترك اليهود فلسطين طواعية وتشتتوا فى بلاد مختلفة. ونحن نجد شواهد على وجود طوائف يهودية شمال أوروبا فى روسيا، وعلى حدود ليبيا، وفى بابل، وفى الاسكندرية، وفى روما، وفى آسيا الصغرى. لقد ذهب اليهود برغبتهم الحرة واستقروا فى أماكن بعيدة، ولم يكن هذا، لا سمح الله، لأنه لم يكن فى فلسطين أماكن كافية لهم. إن الحقيقة القاطعة هى أن فلسطين كانت مليئة بالاجانب الذين يقيمون فيها ويحتلون مساحات كبيرة منها، لأن اليهود لا يقيمون فيها. وكانت هذه المنافى تقيم رابطة عميقة مع فلسطين وتبعث بالتبرعات لبيت المقدس، وتؤيد الثورة ضد الرومان تأييدا سياسيا، وهى تلك الثورة المجنونة التى لم يكن لها أى أمل، والتى أدت إلى تخريب فلسطين وخراب القدس. إن هذه الثورة غير الضرورية، المتطرفة عن كل الثورات ضد الامبراطورية الرومانية، والتى قادها متعصبون دينيون قوميون جروا اليهود جميعا إلى صراع لا أمل فيه - هذه الثورة ظلت تحظى بتشجيع معين من يهود الشتات. إن أولئك، الذين كانوا

يعيشون داخل بيئة شتاتية واضحة، وبين الأصنام والأوثان، والذين تخلوا راضين عن أى ظل من الحياة القومية فى بلادهم، هم الذين كانوا يشجعون المتطرفين والمتعصبين فى القدس من أجل المطالبة بالتخلص من من الأوثان فى الهيكل تعبيرا عن استقلالهم السياسى والدينى الكامل، وهو الأمر الذى لم يمنح لاي أمة فى الامبراطورية الرومانية.

إن خروج ربي يوحانان بن زكاي من القدس عشية التخریب من أجل إقامة « يفنه» قد حدث لعلمه بالتخریب الآخذ فى الاقتراب وضرورة التخلي عن البلاد كعنصر رئيسى فى الهوية القومية والاستعداد لخلق حياة منقى واضحة ربما لاتقام خلالها الازدواجية منقى مركز. إن الشريعة الجديدة التى بنيت، هى بالذات بمثابة عودة إلى حالة الصحراء. وكان معنى هذا، أن اليهود الذين فقدوا استقلالهم وفقدوا فلسطين بعد ذلك، يستعدون مرة أخرى من أجل العودة إليها، ولكن الاستعداد هذه المرة سيكون جديا، وسيكون بمفهوم معين أيضا إستعداداً لانهاى: الخلاص الكامل، نهاية التاريخ، نهاية الأيام.

وهكذا بدأت ألف وثمانمئة عام من المنفى، ولعلى لا أكون مخطئاً إذا ما قلت أنه خلال هذه المئات من السنين، ومنذ خراب الهيكل الثانى وحتى بداية الصهيونية، وبالذات حتى أيامنا هذه، لم يبذل اليهود أى مجهود جدى وذو مغزى من أجل العودة إلى فلسطين، ليس فقط من أجل إعادة استقلالهم السياسى بل حتى من أجل محاولة الاستيطان والتمسك بها. إن هؤلاء اليهود الذين ابدوا حصافة ومرونة ودهاء لكى يتسللوا تقريبا الى كل مكان على وجه البسيطة - من جبال الأطلس حتى وديان الصين، ومن بلاد جنوب أمريكا حتى صحراء سيبيريا - لم يبذلوا أى محاولة حقيقية للعودة والاستيطان فى فلسطين. لقد جال اليهود طوال التاريخ من مكان الى آخر، وبدلوا بلادا، ولكنهم كانوا دائما يتجاوزون فلسطين.

لقد استوطن اليهود بشكل دائم فى كل بلاد البحر الأبيض المتوسط، ولكنهم كانوا ينجذبون اليها من ناحية ويخافونها ويتجاهلونها من ناحية أخرى. لقد أدى الطرد الأسباني والبرتغالى فى نهاية العصور الوسطى الى عمليات تشتت لآلاف اليهود فى بلاد الشرق، ولكن الذين وصلوا الى فلسطين كانوا قلة معدودة. لقد أقام اليهود فى سوريا، وفى مصر، وفى العراق، وفى اليمن وفى اليونان وتركيا، وكانت فلسطين هى الوحيدة الخالية من اليهود. لقد أقام أعظم فلاسفة اليهود ربي موشيه بن ميمون فى مصر على مسافة صغيرة من فلسطين، وحينما احتل صلاح الدين القدس عام ١٧٧١م نجده لا يذكر هذه الحقيقة الرهيبة فى كتاباته ولو بكلمة واحدة. ومن المثير أن نسمع الايديولوجيين، على اختلاف أنواعهم، يحصون بحماس عدد اليهود فى فلسطين عبر الأجيال من أجل إثبات أنه كان هناك تتابع استيطاني لليهود فى فلسطين، ويشيدون بالأسرة القديمة التى أقامت فى فقيعين، ويمجدون كل حاخام هاجر إلى فلسطين مع طائفة أتباعه وصمد هناك لعدة سنوات. إن اليهود لو كانوا قد اتصلوا بفلسطين مثلما اتصلوا ببولندا، على سبيل المثال، أو بابل، ولو كان اليهود قد حاربوا من أجل حقهم فى الإقامة فى فلسطين كما حاربوا من أجل حقهم فى الإقامة فى إنجلترا التى طردوا منها عام ١٢٩٠، لما كان هناك ضرورة لاثبات، أنه هنا قد أقامت حفنه من اليهود وأن ربي يهودا هليفي قد عمته الأشواق الجارفة ووصل إلى فلسطين رغم كل شىء. كل هذه الهجرات الصغيرة اليهودية الى فلسطين، والتى لم تتوقف فعلا على الاطلاق، تثبت أنه كان من الممكن الوصول إلى فلسطين والاستيطان فيها، ولكن الغالبية العظمى من اليهود لم ترغب فى ذلك. صحيح، أنه قد فرضت عمليات منع وأحكام على اليهود الذين أقاموا فى فلسطين، ولكن ما هو المكان الذى لم يحدث فيه مثل هذه العمليات من المنع والطرده والمذابح والأحكام القاسية؟ ان اليهود كما نجحوا فى

التسلل عبر الشقوق التي فتحت في أسوار بلاد كثيرة، وان يصمدوا في ظروف أنظمة حكم مختلفة وغريبة، ووسط ثقافات أجنبية وبعيدة، كانوا يستطيعون أن يفعلوا هذا أيضا في فلسطين، التي تبذلت عليها ستة أنظمة من الحكم منذ خراب الهيكل الثاني.

إن الدليل القاطع على أن اليهود لم يبذلوا أى جهد من أجل العودة إلى فلسطين هو عدد اليهود الذين كانوا يقيمون فيها في بداية القرن التاسع عشر. لقد كان مجموع اليهود ١٥ ألف من بين شعب يبلغ تعدادهم ٢٥ مليون نسمة. إن اليمن، على سبيل المثال، تلك البلد التي اضطهد فيها اليهود بشكل قاسى للغاية، وكانوا يعيشون فيها في فراغ ثقافى ومادى، كان فيها في نفس تلك الفترة، وهى بداية القرن التاسع عشر، حوالي ثلاثين ألف يهودى.

لقد بدأت الصهيونية في نهاية القرن الماضى، ليس من أجل اشواق جديدة الى فلسطين، ولا كذلك بسبب كراهية مفاجئة للمنفى. لقد كان اليهود يكرهون المنفى دوما، وكانوا يشتاقون إلى فلسطين بكل جوارحهم. ولكن كراهية المنفى والاشواق الى فلسطين لم تحرك اليهود من مكانهم. لقد بدأت الصهيونية بسبب الاحساس بالخوف من المنفى. لقد اتضح لليهود فجأة الى أى مدى من الممكن أن يصبح واقع هذه الوجود خطيرا ومروعا. والخوف من المنفى هو الذى زاد لدى البعض على الخوف من فلسطين.

لقد كانت الصهيونية في بدايتها حركة قلة معدودين، ورفضها معظم أجزاء اليهود: أولا وقبل كل شىء، رفضها الدينيون، ورفضتها جماعة البوند أيضا، ورفضها الاشتراكيون اليهود، ورفضها المنصهرون بأنواعهم، ورفضها الحالمون بحلم الحكم الذاتى الثقافى. إن اليهود بجمعهم لم يكونوا راغبين فى الصهيونية ولم

يؤمنوا بها. وهذه الحقيقة الحاسمة يجب ألا تنسى. وبعد الحصول على وعد بلفور وبعد أن فتحت أبواب فلسطين، ومنحت دولة عظمى مثل بريطانيا حمايتها لامكانية اقامة دولة يهودية في فلسطين مازال الشعب اليهودي لم يأت الى فلسطين. إن أى محاولة للحكمة والفهم والتفسيرات المثالية لا تمحو هذه الحقيقة الحاسمة التي تبدو جلية للعيان. لقد كان بإمكان اليهود أن يقيموا دولة يهودية في فلسطين خلال العشرينيات، ولكن من بين ملايين الذين هاجروا من الشرق الى الغرب وضل الى فلسطين خلال السنوات ١٩١٧ - ١٩٢١ ثلاثون ألف يهودى فقط. وخلال العشرينيات وصل إلى فلسطين بصعوبة مائة ألف يهودى. وكان تعداد اليهود في العالم في تلك الفترة حوالى ١٥ مليون يهودى. ولو كان عشرة بالمائة من تعداد اليهود قد وصلوا الى فلسطين، أو حتى خمسة بالمائة فقط، لكان من الممكن أن تقوم دولة يهودية من قبل وقوع الكارثة النازية - على كل أرض فلسطين أو على جزء منها. إن مليون يهودى في فلسطين خلال العشرينيات كانوا يحددون حقيقة حاسمة داخل الشرق المستيقظ من غفوته الطويلة، كذلك فإن الكارثة النازية ما كانت لتحدث على الإطلاق بأبعادها الرهيبة، لو كانت الدولة اليهودية قد قامت قبل الحرب العالمية الثانية. إذن فاليهود مسؤلون عن مصيرهم الرهيب في ذلك القرن.

ولكن إذا كان هناك أحد في حاجة إلى الدليل النهائى والقاطع بشأن العلاقة المشكوك فيها بين اليهود وفلسطين، وبشأن حقيقة أنهم لم يحاولوا العودة إلى فلسطين بشكل جدى، وبشأن خشيتهم من العودة والتصاقهم بالمنفى، فإنه ليس أمامه إلا أن يستعرض ويفحص سنوات الدولة الخمسين. ان الابواب مفتوحة، والامكانيات هائلة - ولكن المهاجرين لا يأتون. إن موجات الهجرة التي وصلت إلى فلسطين كانت في غايتها العظمى موجات هجرة تحت ضغوط: لاجيء النازية،

لاجئىء البلاد العربية، ولاجئىء البلاد الشيوعية. الخ. أقلية لا بأس بها فقط هى التى وصلت الى اسرائيل بدافع من الرغبة الحرة، وهذه الأقلية تثبت مرة أخرى، وبشكل متناقض، مثل الهجرات الحرة عبر مئات السنين التى مرت، أنه يمكن الوصول إلى اسرائيل بدافع من الرغبة الحرة.

إن القاسم المشترك لعدم مجئىء الطوائف اليهودية، التى تختلف كل عن الأخرى فى تكوينها الاجتماعى، الى فلسطين، هو نفس القاسم المشترك الذى حال دون مجئىء اليهود إليها عبر مئات السنين. إن يهود روسيا الذين يعرضون أنفسهم للخطر من أجل مغادرة الاتحاد السوفيتى يفضلون الإقامة فى ضاحية مدينة المانية والعيش على تبرعات وكرم مؤسسة يهودية أو مسيحية، وألا يأتون الى إسرائيل، التى تعرض عليهم ظروف استيعاب معقولة بالتأكيد. لقد فضل يهود لبنان حتى السنوات الأخيرة أن يعيشوا على بعد مائة متر فقط من مركز الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبالقرب من مراكز العداء والكراهية الكبيرة للغاية ضد اسرائيل، ولا يأتون الى اسرائيل بالذات. ويهود الأرجنتين يفضلون الحياة فى ذلك البلد الفاشستى المنهار من الناحية الاقتصادية وفى مواجهة معاداة سامية متعاطمة وألا يصلوا الى اسرائيل. إن النماذج آخذة فى التزايد: يهود سوريا حتى عام ١٩٦٧، ويهود الجزائر، ويهود إيران وكل يهود الغرب بالطبع. ولكل طائفة من هذه الطوائف، بالطبع، تفسير خاص بها لتبرير عدم الهجرة: فهنا تبرير اقتصادى وهنا تبرير أمنى، وهنا تبرير صنعويات الخروج وهنا تبرير دينى. ولكن بالذات بسبب التنوع الكبير فى التبريرات المختلفة، التى تتناقض أحيانا كل مع الأخر، وعلى ضوء حقيقة أن ظروف دولة اسرائيل قد تغيرت تماما فى الثلاثين عاما الماضية وتبدلت فى اللون والصورة - من دولة طلائعية الى دولة استعمارية، ومن دولة ذات طابع

علمانى الى دولة ذات طابع دينى قومى - يجب أن يكون هناك تبرير ثابت، تبرير أساسى، لهذا التمسك بالمنفى.

إننا، على سبيل المثال، وإذا جمعنا مندوبين نموذجيين للجماعات المختلفة التى تشكل الوجود اليهودى: أحد أتباع الربى من ساطمر، وأحد أتباع الربى من لوفافيتش، وحاخام أرثودكسى، وحاخام محافظ، وحاخام إصلاحى، وزعيم صهيونى، وعضو طائفى وبروفيسور محافظ، وبروفيسور منصهر، ويهودى غنى، ويهودى فقير، وطالب من أعضاء جمعية الدفاع اليهودى وطالب يسارى - لأدر كنا أن كل واحد منهم يفسر مضمون اليهودية وطابع الانتماء اليها بصورة مختلفة، ولوجدنا أن لكل واحد منهم صورة خاصة عن إسرائيل وعن رسالتها، ولوجدنا أن لكل واحد تبريرا مختلفا تماما عن عدم هجرته الى إسرائيل، ولوجدنا أن لكل واحد مهم نقدا مختلفا لما يجرى فى إسرائيل. ولكنهم جميعا يشتركون فى شىء واحد، وهو أنهم لا يهاجرون الى إسرائيل.

ولو كان من الممكن أن نضم الى هذه الجماعة يهودا من كل الفترات التاريخية ومن أماكن بعيدة ومن حضارات مختلفة لكان كل واحد منهم سيحضر معه وجهات النظر اليهودية الخاصة بعصره، والتأكيدات والتفسيرات الخاصة به. ومرة أخرى - مع كل الاختلاف الهائل، سيكون هناك شىء واحد يشتركون فيه جميعاً: هو عدم مجيئهم لفلسطين. ومن المستحيل إزاء ظاهرة المنفى الموهلة فى القدم، وإزاء التنوعات الكثيرة جدا للوجود اليهودى، الاكتفاء بالتفسيرات الجزئية، التى قد تبدو طيبة فى حينها فقط، بل يجب أن نبحث عن الأسباب الأولية والأساسية لهذه الظاهرة، وبصفة خاصة فى مواجهة الحقيقة الحاسمة، وهى أن اليهود بكل تعبيراتهم الروحانية والوجودية قد رفضوا المنفى كاحتمال دائم للوجود

اليهودى ورفضوه رفضا داخليا. إن اليهود لم يمنحوا المنفى شرعية على الإطلاق، بل العكس هو الصحيح، حيث كان المنفى فى وجدان اليهود دائما بمثابة كارثة، ولعنة، وانحطاط، ومصدر للشر، وحالة مؤقته بالطبع. إن الروح القدس «منفية» هى الأخرى مع الشعب، والعالم لن يعود الى صلاحه إلا بعد عودة اليهود الى فلسطين.

ولم يكن وهذا مجرد تفكير مجرد، بل وجهة نظر وجودية حية. لقد كانوا يفكرون فى فلسطين من الصباح حتى المساء وكانوا يتجهون بصلواتهم إليها، ويتحدثون عن العودة الى فلسطين والحنين إليها، وكانت أشعار الخلاص جزءا من الوجود الدينى لليهودى. وكانت جملة «للعام القادم فى القدس» جملة أساسية فى الوجدان الروحى. ويمكن أن يشير الإيمان «بالتناسخ» الى مدى عمق وجهة نظر المرحلة الإنتقالية بالنسبة لحالة المنفى. إن اليهودى اذا مات فى المنفى فإن جثته، وفقا لهذه العقيدة، تعود بطريقة التناسخ الصعبة الى فلسطين. وبعث الموتى سيكون فى فلسطين. وكانوا من الصباح حتى المساء يدرسون الشرائع المرتبطة بفلسطين وكانوا يحتفلون بالأعياد وفقا للتقسيم السنوى الذى يناسب فصول السنة فى فلسطين. وانفجارات الحركات المسيحانية والصدى الهائل التى كانت تثيره بين اليهود تبين بوضوح مدى عمق الرغبة فى الخلاص لدى كل الطبقات اليهودية.

إننا نرى إذن، كراهية ورفض مطلق لحالة المنفى من ناحية، وانجذاب قوى لاقامته والحياة فيه، من ناحية أخرى. وقد فشلت كل المحاولات (وهى قليلة للغاية) من أجل منح شرعية لوجود المنفى، ومن بينها محاولة الاسلحيين فى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل بناء إطار شرعى لليهود فى البلد الذى يعيش فيه، بينما تكون علاقته بفلسطين قائمة بدون العنصر القومى، ومبنية على الصلة المجردة على

غرار علاقة المسيحيين الكاثوليك بالفاتيكان. لقد فشل الاصلاحيون في محاولتهم هذه، بالرغم من أنه من الناحية النظرية كانت لديهم كل الظروف للنجاح. وقد عادوا بعد الحرب العالمية الثانية الى أحضان الحركة الصهيونية.

وهنا يتضح سلوك ذو طابع عصايبى واضح: الشعب يكره المنفى ويحلم بفلسطين، والشعب يرفض المنفى بكل طبقات نشاطه الروحاني والأصيل، ولكن في مقابل هذا ولكن مشغول بغاية واحدة وهى: كيف يصمد فى المنفى؛ وكيف يواصل إقامة هذا الوجود المكروه.

ما هى التبريرات التى اعطاها اليهود أنفسهم لهذا الموقف. إن التبرير الرئيسى كان منطويا على التعبير «فدس اللحم» أى الخوف من الصعوبات الاقتصادية فى فلسطين، أو الخوف من ترك موقف اقتصادى مرتفع فى بلاد المنفى.

هل هذا حق؟ يهيؤلى، أنه ليس هناك أى تبرير أدى إلى تضليل كبير للغاية مثل هذا التبرير، الذى تم عرضه باعتباره حقيقة لا تقبل الجدل.

إننى أعتقد أنه من المستحيل تفسير تاريخ أى شعب على أساس الديناميكية والباعث الاقتصادى فحسب، وسيصعب بالتالى عمل هذا بالنسبة لليهود، وعلينا أن نكتشف سبب احتاج اليهود للبقاء فى المنفى، تلك الحاجة التى جرت عليهم الكوارث الكثيرة للغاية. إن سبب هذه الحاجة، ليس فقط أنه يجب أن يكون ميرها بوضوح، بل إن هناك أيضا مغزى لكشف قوته المميزة لليهود، بينما توجد شعوب أخرى معناه منه. هل علينا حقا أن نوافق على أقوال ماركس - بأن الرب الحقيقى والوحيد للشعب اليهودى هو إله المال؟ وأن المحرك الحقيقى للشعب اليهودى هو شهوة المال؟ وأنا بانك فقط يمكن أن تفسر الانجذاب العميق والبياثولوجى (المرضى) للشعب الى وجود، هو نفسه يستكره تماما.

هل حقا؟ هى يمكن أن تتصور تاريخ اليهود باعتبار أن المحرك الأساس له هو

عنصر المال؟ يهيؤلى أن حتى المعادى للسامية يتردد فى هذا . فمن ناحية نحن نرى يهودا يضحون بأنفسهم على مذبح الرب، ويقبلون على أنفسهم أحكاما قاسية للغاية من أجل المحافظة على الاخلاص للفكرة وللعقيدة، ومن ناحية أخرى نفس هؤلاء اليهود يوصفون بأن الذى يحركهم هو المال فقط. أليس هذا مناف للعقل؟ ولكننا نسأل السؤال التالى: هل خلق المنفى فعلا بالنسبة لليهود ظروفًا اقتصادية مريحة بصفة خاصة؟ هل نجح اليهود حقا (الذين يتحركون، بواسطة الرغبة فى المال فقط) فى الحصول على مرادهم بإقامتهم فى المنفى؟ يهيؤلى أن الاجابة على ذلك هى اجابة حاسمة: لقد كان اليهود بالذات بعميدىن جدا عبر تاريخهم كله فى المنفى عن الوصول إلى الوضع الاقتصادى المرتفع. لقد كان غالبيتهم العظمى فى حالة متردية من الفقر. لقد صدرت ضدهم أحكاما خطيرة للغاية بسبب وجودهم فى المنفى، وكانت أملاكهم تحدد وتصادر طوال الوقت. أى مكاسب اقتصادية كانت لليهود بولندا أو ليهود اليمن أو لساكنى المغارات فى جبال الأطلس فى المغرب؟

وأكثر من هذا - ليس معنى الإقامة فى فلسطين هبوط فنورى وحاد فى الوضع الاقتصادى. هل التاجر اليهودى الموسر فى سوريا أو فى العراق كان سيفقد رأس ماله لو انتقل للإقامة فى فلسطين، وماهو التبرير لفكرة أن الشعب اليهودى يختلف موضوعيا عن أى شعب آخر فى علاقته بالمال، ولذلك فهو يفرض على نفسه الالتصاق بالمنفى بضمن تاريخى ثقيل للغاية، وهل هناك أيضا أى دليل على أن الحياة فى المنفى قد منحت، حقا، لليهود أمنا اقتصاديا؟

إنه من المثير للاهتمام استخدام التعبير «التاناخى» (الستاناخ هو اسم عبرى لكتاب العهد القديم) «قدر اللحم». إن مصدر هذا التعبير هو جيل الصحراء، ونحن نعرف جيدا أن رجال ذلك الجيل كانوا عبيدا فى مصر، ولذلك لم يكن لديهم أى

«قدر لحم» وأنهم حينما يشتاقون اليه فإنما يشتاقون لشيء لم يكن لديهم على الإطلاق. إن حقيقة أننا نتصلب في استخدام هذا التعبير، المدحوض من أساسه، يبين مدى التناقض في الاستخدام الدلالي له، ومدى عدم كشفه للسبب الحقيقي لهذا الانجذاب نحو المنفى. إن التبرير الاقتصادي يستخدم بمثابة تغطية أو كبديل لتبريرات أعمق، نخشى الاعتراف بها.

كذلك أيضا التبرير الأمني، الذي يقول أن إسرائيل خطيرة و«تأكل ساكنيها» ليس صحيحا. إننا نجد طوال كل فترة المنفى طوائف يهودية تعيش في أماكن معرضة أكثر للخطر وتحت سيطرة حكام قساة للغاية. لقد رأينا نصب أعيننا أن يهودا إيران، الذين يستطيعون أن يخرجوا محترمين من بلادهم وخلال ثلاث ساعات ليكونوا مواطنين في دولة إسرائيل، لم يخافوا من حاكم خطير ومجنون في صورة الخميني ويعيشون في داخل البركان. إن اليهود، لو كانوا قد أقاموا في فلسطين ولو حتى كأقلية اقليمية لكانت لهم حقوق أكبر بكثير من مجرد اقلية من الأجانب المشتتين في أماكن كثيرة. إن «حالة الحرب السائدة في البلاد» تبدو بمثابة تبرير خال من أي حقيقة مع مجيء السلام. ونحن نعرف جيدا، ان مجيء السلام لن يجذب إلى إسرائيل موجات الهجرة.

أن الخرافتين المعاديتين للسامية، خرافة حب اليهودي للذهب وخرافة الخوف اليهودي - هما اذن مدحوضتين. ان اليهود لو كانوا فعلا من محبي المال وجبناء، لكان من الممكن منذ زمن بعيد أن يجتمعوا للاقامة في فلسطين ويجنّبون أنفسهم ضائقات وأشكال مختلفة من المعاناة الصعبة.

الخلاصة

لقد حاولت حتى الآن أن أتناول ثلاثة آراء علمية:

أ - أن المنفى كحالة وكاحتمال هو من بين الأسس الأولية للغاية التي تشكل مضمون الوجود اليهودي. وأنه يوجد في الجزئيات وفي الذرات التي تبنى هويته الروحية والوجودية. وأنه جزء عضوي من الخرافات القومية لليهود. وأن المنفى ليس حالة خارجية مفروضة، بل حالة داخلية اختارها اليهود ويشتاقون إليها. وأن وجود اليهود يتخطى أي ظرف من الناحية الدينية، وكذلك أيضا من الناحية القومية. إن اليهود يمكنهم. أن يصنعوا أكبر الرذائل في نظر إليهم، ويمكن أن يفقدوا كل ملامح هويتهم القومية ويظل وجودهم مضمونا. أنهم يعاقبون ولكنهم لا يبادون على الإطلاق، وفي مقابل هذا يمنحون الوجود السيادي في فلسطين، ويمكن القول أيضا الإقامة في فلسطين ذاتها، في ظروف صعبة جدا ليست مفهومة تلقائيا. إن اليهود يمكنهم أن يتواجدوا خارج فلسطين وجودا مؤقتا منحدرًا، ولكنهم يظلون بمثابة وجود (وقليلة هي الشعوب التي تستطيع أن تتصور لنفسها كيف يمكن المحافظة على الهوية القومية بينما الشعب كله منفي من وطنه).

ب - إن المنفى عبر كل النشاط الروحاني لليهود عبر التاريخ كان ينظر إليه ويستنكر كوجود مهين ومتدهور، وكحالة من الانحطاط، ولم تعط أي شرعية حقيقية للمنفى كحالة دائمة، وقد كان السؤال دائما، كيف نصمد كيهود في المنفى لحين مجيء الخلاص، الذي لم نتخل عنه أبدا. ولم يكن الخلاص شيء مجرد، بل كان عودة حقيقية ومادية لفلسطين. لقد كان المنفى بمثابة حالة تؤدي باليهود الى وجود الكاذب (ابراهيم، المنفى الأول وصل الى مصر واضطر على الفور للكذب بشأن زوجته). ان الكذب والخلاص كل منهما من مندمج

فى الآخر؁ وذلك لأن الشعب كان يجب عليه ان يسير بحذر حول ولاءات مزدوجة؁ فهو يجب أن ينظر اليه كميت من الناحية القومية من أجل ألا يضع قومته فى صراع صريح مع القوميات التى يعيش فى وسطها. ولكن حيث أن وجود اليهود كان يتجاوز أى ظروف؁ فانهم كانوا يكرسون كل خيالهم ويستثمرون كل مواردهم الوجودية من أجل الصمود فى المنفى؁ وإن كانوا يرفضونه من الناحية الروحانية.

وهكذا؁ أصبح هنا موقف متناقض؁ شبه مرضى. اليهود ينجدبون الى المنفى باعتبارها الاعكانية التى يتطوى عليها وجودهم؁ ويكرهونه ويبدلون كل ما فى وسعهم من أجل الصمود فى داخله ولكنه بالذات يعد العودة الى فلسطين؁ بسبب صفته الاخذة فى التحسن للصمود فى المنفى. أن اليهود يشعرون بأنه مذنبون لأنهم لا يعودون الى فلسطين؁ ويناد على ذلك فانهم يتفخرون بها ويرفعونها أكثر وأكثر؁ ويحددون لها مضمونا أعمق وقدسية ويجعلونها بلدا عجيبة وهذا لكى يبررون حقيقة أنه جدير بالعودة اليها؁ ومن ناحية أخرى يتجنبونها باعتبارها كابوس؁ وبلد خطيرة؁ ومجنونة؁ «تأكل ساكنيها» لكى يبرر مخاوفه من العودة.

ج - حاولت أن أوضح أن «قدر اللحم»؁ والخوف من فقر البلاد؁ والخوف من الخطر المادى الخ - هى بمثابة حجج خارجية؁ ومن الممكن أن تثبت أن طوائف كاملة وجماعات يهودية كبيرة عاشت فى ظروف من الفقر؁ والخطر وفى قفار أراضى الشعوب الأخرى - ولكن هذا الوجود لم يقلقهم على الإطلاق. وأكثر من هذا؁ كان اليهود هم أكبر الثائرين فى التاريخ؁ وتحركوا من بلد إلى بلد؁ وبالرغم من ذلك فانهم كانوا يتجاوزون فلسطين دائما. ان اليهود الدينيين لم يعودوا بسبب الخوف من «دفع نهاية الأيام»؁ والعلمانيون لم يعودوا لأنه كانت لديهم «بشرى» روحانية للشعوب الأخرى. وقد قلق الأغنياء

على ممتلكاتهم وخاف الفقراء من فراق أقاربهم. وقد أمل الاشتراكيون في الغاء كل الفوارق القومية، ولم يعرف اليهود الذين عاشوا في افغانستان أو الهند ببساطة أين تقع فلسطين (ولكنهم عرفوا أين تقع إنجلترا أو فرنسا) واليهود الذين اقاموا في روما خافوا من سلطة روما القاسية في فلسطين، واليهود الذين عاشوا في سوريا أو في مصر انتظروا أن تمتلىء البلاد بيهود آخرين وحينئذ يستطيعون التقدم في آخر الطابور. واليهود الاصلاحيون لايهاجرون لاسرائيل لأن الاصلاح لا يحظى باعتراف كامل، واليهود الارثوذكس لا يأتون لانهم لا يحترمون قدسية يوم السبت في تل أبيب. إننى مقتنع، أنه في القرن الحادى والعشرين والثانى والعشرين ستقام مستعمرات لسكان الكرة الأرضية في الفضاء، ومن بين هذه المستعمرات سوف توجد طائفة يهودية صغيرة سيكون لها خاخام ومعبد معلق في الفضاء وسوف يصلى في الفضاء وسوف يردد فيه العلماء اليهود «للعام القادم في القدس». إننى واثق أن جزء منهم سوف يرسلون أبناءهم ليدرسون لمدة عام في اسرائيل، ومن المحتمل أن يقيم هناك مبعوث اسرائيلى في المركز الطائفى ويحاول تشجيعهم على الهجرة. وحينما سيسألونه لماذا لا يأتى اليهود، فانه سيحاول تبرير هذا بتبريرات مثل، صعوبات التكيف مع قوانين الجاذبية الموجودة في اسرائيل. ليست هناك نهاية لخيال الحجج. ولكن أين هي الحقيقة؟

واذا كان الأمر كذلك فأننا نسأل السؤال الموضوعى - لماذا؟ ما هو السبب لهذا الاختيار المؤلم والمفروض للمنفى؟ لماذا يخاف اليهود الى هذا الحد من الحياة ذات السيادة الطبيعية في فلسطين؟ إن هذا في رأى هو السؤال الأكبر المتصل باليهود ولا بد من أن نكرس من أجل توضيحه كافة قوائنا الروحية.

الفصل الأول آباء ورعاة

بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام في الرؤيا قائلا «لاتخف يا أبرام. أنا ترس لك» .. «فقال أبرام أيها السيد الرب» ماذا تعطينى وأنا ماض عقيم؟ .. «فإذا كلام الرب إليه قائلا .. «الذى يخرج من أحشائك هو يوثك» .. ثم أخرجه إلى خارج وقال أنظر الى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها» .

سفر التكوين، الاصحاح الخامس عشر

يشير العهد القديم الى النفور الذى كان يشعر به المصريون نحو البدو الذين كانوا يرعون قطعان الأغنام والماعز شرق الدلتا، إلا أن البدو استطاعوا عبر التاريخ إبقاء قطعانهم فى تلك المنطقة بصفة عامة. وحتى فى يومنا هذا يظهر العرب البدو بصفة منتظمة فيها.

س. أف. بفايفر، «مصر وسفر الخروج»

من المتعارف عليه أن تاريخ مصر ينقسم إلى ثلاثين أسرة من مينا (٢٩٨٠ سنة قبل الميلاد) الى فتح الاسكندر (٣٣٢ سنة قبل الميلاد).

س. أف. بفايفر، «مصر وسفر الخروج»

«لقد بذل كثير من الجهد لوضع تاريخ اليهود على أساس غريب غامض بينما بذل جهد قليل لتفسيره بمفاهيم القوى التى تحركت ومازالت تتحرك عبر كل تاريخ البشرية» .

الحاخام المر بيرجر، «المعضلة اليهودية»

الفصل الأول

يكون الشرق الأدنى، أى الأرض الممتدة على الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، والتي نقسمها الى لبنان، وسوريا، وفلسطين، والأردن، منطقة جغرافية، واحدة، وإذ يحد هذه المنطقة غربا البحر الأبيض المتوسط، والصحراء السورية شرقا فإنها تمتد قرابة خمسمائة ميل من الشمال الى الجنوب بينما هي حوالى ثمانين ميلا فقط من الغرب الى الشرق.

وتنقسم هذه المنطقة الى قطاعات محددة تحديدا واضحا تمتد من الشمال الى الجنوب ففى الغرب يقع السهل الساحلى الذى يمتد من الاسكندرية (الحديثة) الى غزة. ويلى السهل الساحلى ويوازيه سلسلة جبال عمانوس ولبنان والجليل الأعلى والسامرة ويهودا. وإلى الشرق من هذه الجبال يوجد شق عميق، يضم نهر العاصى والبقاع ووادى الأردن ووادى عرابة وخليج العقبة والبحر الأحمر. وعند البحر الميت ينخفض هذا الشق إلى ١٣٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر.

والى الشرق من هذا الشق العميق تقع سلسلة أخرى من الجبال تشمل الجبال المواجهة للبنان، والجولان، وجبال موآب، وأدوم، هذا إذا ما استخدمنا ألفاظ كتاب العهد القديم. وبينما تشكل هذه السلاسل جروفا ومنحدرات شديدة الى الغرب.. نراها تميل ميلا تدريجيا الى الشرق لتلتقى بالهضبة المرتفعة للصحراء السورية.

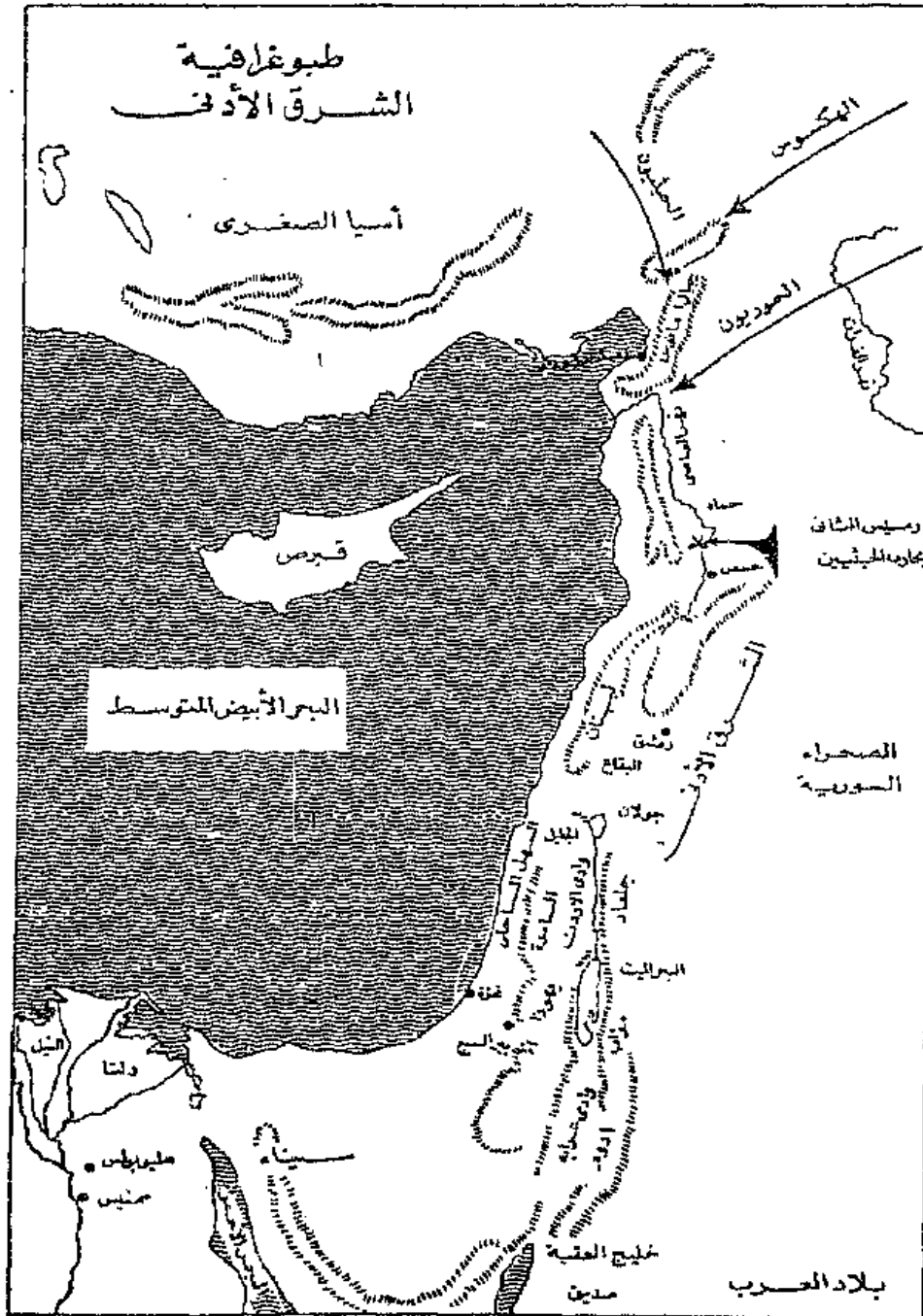
وقد نبأنا علماء الآثار القديمة، مؤخرا، بوجود مدن فى فلسطين، وبالتالي وجود مجتمعات سياسية منظمة منذ سبعة آلاف سنة قبل الميلاد رغم وفرة الآلات المصنوعة من حجر الصوان، والتي يرجع عهدا إلى العصر الحجري المتوسط. وقد

كان لسلاسل الجبال التي تمتد من الشمال إلى الجنوب، كما كان للشق والوادي الذي يتوسطها أثر جدد عميق على السكان، إذ كانت هذه العوائق تجعل من الصعب على القبائل الرحل النزوح من الصحراء الشرقية. وكان المهاجرون القادمون من الشمال قادرين على التحرك جنوبا في السهل الساحلي أو في وادي الشق دون أن تعترضهم أية موانع طبيعية. ويبدو أن الناس الذين كانوا يستخدمون الحجر الصوان، قد اجتاحتهم أقوام نزحت من الشمال كانت تستخدم النحاس، وقد تعرض هؤلاء بدورهم سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد لاجتياح الأقوام الذين كانوا يستخدمون البرونز. ومن الأرجح أن الآخرين كان أصلهم القوقاز أو منطقة بحر قزوين^(١). وكانوا، بناء على ما ذكره فلندرز تيري، على جانب كبير من الحضارة، حيث عثر ضمن مخلفاتهم على بعض الأدوات، المستوردة من بلدان قاصية مثل أيرلنده والهند.

ويبدو أن الحوريين قدموا إلى سوريا الشمالية من شمال بلاد الفرس أو من التركستان، ثم تلاهم ألحيثيون الذين كانوا يعيشون على هضبة آسيا الصغرى، ومن الأرجح إنتماءهم إلى الأرمينيين العصريين، وتتميز هويتهم بالأنوف الكبيرة التي تربطها باليهود. وفي الواقع لا يزال يمكن رؤية هذه السمة الغريبة بين الأرمينيين والعرب من أهل سوريا، ولكن ليس بين سكان الجزيرة العربية. ويقول موسكاني: «أنه توجد سلالتين متميزتين في الشرق الأدنى، هما سلالة «الشرقيين» في الجزيرة العربية وبلاد الفرس، وسلالة «الأرمينيين» الذين يتميزون بالأنوف الضخمة. وتدل كلمة سامي في الأصل على مجموعة من اللغات. ويتعذر أن يطلق اسم «الشعوب السامية» على سكان الشرق الأدنى بصفة عامة، نظرا لاختلاط أنساب هؤلاء السكان اختلاطا شديدا^(٢).

(١) سير فاندروز تيري، «فلسطين وإسرائيل».

(٢) سابينو موسكاني، «الحضارات السامية القديمة».



الخريطة العامة لمنطقة الشرق الأدنى

خريطة رقم (1)

ولعل من الفائدة بمكان، ونحن فى هذا المقام، أن أوضح قبل الخوض فى مناقشة قصة العهد القديم، أن الموقف، كيفما كان، ليس فى المفاضلة السهلة بين الايمان أو عدم الإيمان، بل إن المشكلة تكمن فى كيفية تفسير المعانى.

والسائد هو أن الانسان ينمو ويكبر على مر الأعوام والأيام، وأنه كلما ازداد نموا زادت قدرته على إدراك الله. فقد كان الانسان الأول يفكر فى الآلهة وكأنما هى على غرار رؤساء قبيلته، تفرح أو تغضب أو تضطرب، وهى التى تمنح مؤيديها جزيل عطائها وتحاول الإنتقام من أعدائها. ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن الله كان أبدا على هذه الشاكلة، ولكن كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى استطاعت بها عقلية الانسان البدائى أن تتصور الله.

وبنفس الطريقة يرى الأطفال الصغار أباهم وكأنه على جانب من القوة والبأس ويحسون بالأمن والأطمئنان كلما أمسكوا بيده. ولكن عندما يكبرون قد يخافونه أو يمقتونه لأنه يسعى إلى السيطرة عليهم، فإذا ما بلغوا سن المراهقة اعتبروه غيبيا أو رجعيا لا يتواءم مع زمانهم. ولكنهم بعد ذلك كلما تقدمت بهم الحياة فإنهم يحكون لأبنائهم كم كان أباهم رجلا جليلا فاضلا. والأب هو نفس الشخص طوال الوقت، إلا أن الأبناء كانوا يرونه فى مظاهر مختلفة حسب تطور عقولهم. والله سبحانه هو الله الواحد وهو ثابت لا يتغير ولكن عقول البشر هى التى تتغير وتتبدل، وقد تخيلته فى صور متباينة على مر الدهور المتعاقبة.

وفى زمن العهد القديم تخيل الرجال البدائيون ربهم محاربا عظيما يكره أعداءه ويغضب عند قتلهم، وفى مرحلة تالية أخذوا فى نقده وظنوا أنهم قادرون على أداء عمل الله على صورة أفضل، تماما، كما يفكر المراهقون بالنسبة لأبائهم.

ولكن الله الرحيم لم يكن ينتقم من أبنائه جزاء تخيلاتهم الصبيانية المخطئة، فقد كان «علينا بمايكته صدر الانسان وما نوسوس به نفسه». ومع هذا فإنه تعالى كلما رأى إنسانا مقبلا على عبادته يتغنى وجهه فقط ولا يتغنى أى مكسب مسه بروح منه وأمدته بقوة من عنده وأعانه على عبادته وخدمته. وعقليا بالطبع يكون هذا العبد المخلص واحدا من أهل زمانه له إدراك معاصريه المحدود، ولكن تقواه وعبادته المخلصة كان يمكن إستخدامها بالرب حتى لو كانت عقلية صبيانية. ولهذا، فإننا لو طالعنا أن الله أراد للإسرائيليين أن يذبحوا الكنعانيين، فإننى أعتقد أن لنا مطلق الحرية أن نفكر فى أن هذه هى صورة الله التى تخيلها هؤلاء الرجال البسطاء. وعلى هذا النحو، يتقبل المدرس فى مدرسته ما تقوله الطفلة الصغيرة من أن أباه هو أهم رجل فى العالم حتى لو كانت هى نفسها تعرف أنه ليس فى الحقيقة الا عاملا غير ماهر.

وليس بالضرورة الشك فى الآراء التى جاءت فى العهد القديم عن الله إلحادا ولا إنكار «صدق» العهد القديم أو عدم الاعتقاد فى «المعجزات» إلحادا، لأن حقيقة كون الروح القدس تستطيع أن تثير قلوب الناس هى أكبر المعجزات، والحياة لها معجزة، ولغز، ولكنى أعتقد بوجود أن نكون مقتنعين بأن رب هذا العالم إنما هو روح لا توحى إليه البشرية وأطماعها بالإنتصار فى المعارك وقتل الأعداء.

والحقيقة أن كثيرا من المتاعب التى تصادفها الأديان تجزى الى محاولة حسنى النية من الناس، الزعم بأن الأقوال التى قالها شخص منذ أربعة آلاف من السنين هى أقوال مقدسة تسير كل زمان ومكان رغم ما يتضح من أنها إنما تحمل طابع العصر الذى عاش فيه ذلك الشخص، وأنها تتنافى مع المبادئ الأخلاقية التى نحترمها فى أيامنا هذه.

* * *

ويعتقد الباحثون المصريون أن سيدنا ابراهيم عليه السلام عاش في المدة من حوالي عام ١٨٥٠ ال عام ١٨٠٠ قبل الميلاد. وكانت مصر وفلسطين وسوريا وبابل في ذلك الوقت حضارات قوية عند ما جاء ابراهيم من أرض العراق. ومنذ آلاف السنين قبل المسيح حتى وقتنا هذا تواجدت قبائل تعيش في الخيام كانت دائبة الحركة على امتداد حدود الأرض المنزرعة قى دول الشرق الأدنى. وأحيانا ما كان يطلق على هذه القبائل اسم شبه رعاة أو بدو الحمير، ولم يكن فى استطاعتهم التوغل بعيدا فى الصحراء لأنهم كانوا لا يستخدمون الجمال، بل كانوا يحملون متاعهم وخيامهم على ظهور الحمير، كما كانوا يعيشون على أغنامهم وماعزهم أو على تقديم العون للمزارعين أثناء مواسم الحصاد. وكان ابراهيم على رأس جماعة صغيرة من هؤلاء الناس.

وكثيرا ما كنت أمتطي سهوة جوادى فى العشرينات، وأتجول بين قبائل البدو وحول النار التى يوقدها العرب فى مضاربهم، وكنت أستمع الى القصص عن نسب القبيلة. وكانت هذه القصص تتخذ صورة سرد لمنجزات مؤسس القبيلة وأبنائه وربما أحفاده. ثم تتوقف القصص بعد أجيال ثلاثة، أى عندما يصبح عدد الأبطال من الكثرة بحيث يتعذر على الرواة تذكر هؤلاء الأبطال جميعا.

وقد أصبحت قصص الأبطال الأصليين مدهجة بدرجة عالية، وتتضمن خطبا حريفية أو قصائد شعرية جاءت على ألسنة أسلاف القبيلة، أو الأغاني التى كانوا يتغنون بها احتفالا بانتصاراتهم. أما إذا ما طلب من الراوية أن يذكر مزيدا من هذه أو تلك أتى بوقائع ترجع إلى أيام أبيه التى تفصلها عن أيام أسلاف القبيلة مئات السنين. ويبدو لى أن قصص الآباء فى سفر التكوين تشبه هذا الشكل تماما. ومن المحتمل أن تكون قصة سيدنا ابراهيم قد كتبت بعد وفاته بحوالى تسعمائة سنة، بل

لعل القصة كما نعرفها الآن قد اكتملت بعد وفاته بنحو ألف وخمسمائة عام. ونتيجة لاعادة التدوين تظهر فى السرد إضافات هنا وهناك تعبر عن الآراء السائدة لقرون تلت هذا الحدث بكثير.

ففى سفر التكوين الاصحاح ١٨ يسأل إبراهيم «أديان كل الأرض لايصنع عدلاً؟ وذلك برهان واضح على أن ابراهيم كان موحداً بالله. ومع هذا فإن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن ابراهيم لم يكن مؤمناً بإله واحد، وهكذا فإننا مجبرون على الافتراض بأن هذه العبارة قد أدخلها المدون بعد ألف ومائتين من السنين، أى عندما كان الاعتقاد فى التوحيد منتشرًا. ويميل الناس البدائيون (وليس الموغولون فى البدائية) الى التفكير فى إلههم وكأنه رجل من البشر، وبالتالي فإن إله ابراهيم كان يزوره فى خيمته ويتناول العشاء وإياه ثم يدعو إلى الخروج معه ليتأمل فى النجوم، وبعده يستودع الرب مضيفه ويستأنف رحلته.

والكثرة الغالبة منا تعتقد أن «البيت» يعنى مكانا ما، إلا أنه بالنسبة للرعاة الرحل يعنى جماعة من الناس. وكان رب الرعاة هو حامى الأسرة. ونحن معتادون على عبارة «إله إبراهيم وإسحق ويعقوب» حتى أننا لانقف عندها لكى نحللها ولكن إذا ما فعلنا ذلك وجدنا أن التعبير يوحى بحامى أسرة واحدة بعينها. ويبدو أنه ليس من المحتمل أن ابراهيم قد أعطى فكرا كبيرا أبدا لكل العالم حيث لم يكن فى إمكانه أن يكون لديه أى تصور وإدراك له. وبينما كان إله الرعاة رجلا بالضرورة آمن أهل الحضر بالآلهة المحليين الذين يحمون مدينتهم وأرضهم. وقد ورد أن ابراهيم ضرب خيمته فى ما مر (الخليل) حيث يوجد مقام للآله المحلي. وكان الناس يتطلعون الى الآلهة المحلية وكانهم أصحاب الأرض الشرعيين فإذا ما أراد إبراهيم أن يعسكر فى منطقة الخليل كان حتما عليه أن يحصل على موافقة الإله المحلي. وتستعمل كلمة «الشاداي»^(٣)، أى رب الجبل، فى بعض المواقع لتعنى الإله

(٣) سفر التكوين الاصحاح السابع عشر.

الذى مخاطب سيدنا ابراهيم، وقد يكون هذا الاسم ملائما لإله منطقة الخليل لأنه أكثر المواقع ارتفاعا فى فلسطين. والطقوس التى جاء وصفها فى سفر التكوين الاصحاح الخامس عشر من الفقرة ٩ إلى ١٨ هى مراسم وثنيه مألوفة، حيث كانت الحيوانات المضحي بها تشطر إلى نصفين متساويين يسير بينهما الذين يأخذون القسم^(٤). وقد يفسر هذا الطقس الوثنى وكأنه يوحى بأن ابراهيم قد عقد اتفاقا مع الاله المحلى لمنطقة الخليل.

ويرى كثير من المؤرخين المعاصرين والمعلقين على كتاب العهد القديم أن أغلى أمنية كان يتمناها كل الرعاة هى أن يحصل على الأرض التى يستطيع أن يستقر عليها. وهذا خطأ بالكامل، حيث أن الحياة الرعوية هى طريقة فى الحياة متأصلة بعمق فى نفوس مثل هؤلاء الناس، بل إن حكومات كثيرة بذلت فى وقتنا هذا جهودا عظيمة بغية إستقرار الرعاة الرحل إلا أنها لقيت معارضة شديدة، ولا يوجد سبب للاعتقاد بأنه كانت لدى ابراهيم وأسرته أية رغبة فى الاستقرار. ويقول جون برايت فى كتابه الدقيق «تاريخ اسرائيل»، أن ذرية ابراهيم أخذت تتجول فى ربوع الأرض، يشد من أزرها وعد بأن هذه الأرض سوف تؤول يوما إلى نسله. «بالإضافة إلى ذلك فإنه رغم انقضاء قرابة ألف عام على غزو كنعان كانت ذرية ابراهيم لاتزال تفضل العيش فى الخيام. ولقد أراد ابراهيم أن يرعى أغنامه فى منطقة بير السبع، ولكن البرك التى تخلفها الأمطار على سطح الأرض كانت تجف فى الصيف، وكان لزاما أن ترتوى الأغنام من مياه الآبار. وأغلب الظن أن ابراهيم لم يرد الاستقرار أو العيش كما يعيش الفلاحون، بل إنه أراد إمتلاك بعض الآبار^(٥). وبعد ذلك اشترى مغارة لتدفن فيها أسرته بعد موتها، ولكنه ظل هو ونسله يعيشون فى الخيام.

(٤) قارن ذلك بما جاء فى كتاب روناد كليمنتس «داود و ابراهيم». «دكتور آر. أى. كليمنتس قس مسمندان مرسوم».

(٥) سفر التكوين الاصحاح الحادى والعشرون ٣٠.

ويتفق العلماء على أن وعود إبراهيم لم تكتب لفترة امتدت قرابة تسعمائة عام، وعندما كتبت كانت مملكة داود تتطلع، في ذلك الوقت، الى حكم فلسطين كلها، ومن ثم يثور احتمال بأن المدونين الذين جمعوا وصنفوا سفر التكوين كانوا هم الذين نسبوا أطماعهم الى إبراهيم البدوي راكب الحمار. فإذا كنا مستعدين لقبول اعتبار أن إبراهيم لم يكن أول الموحدين بالله، وأنه كان يسعى إلى الآلهة لحماية أسرته، فإنه ينبغي لنا أن نسأل أنفسنا كيف كان الاعتقاد فيما بعد بأن الإله الذي خاطب إبراهيم كان هو الله رب العالمين.

إننا لم نعرف من هم آلهة إبراهيم، إلا أنه بعد وفاته يوضع مئات السنين ظهر يهوه باعتباره رب إسرائيل. ولعل رجال الدين الذين نشروا العهد القديم استخدموا اسم «يهوه» بدلا من الأسماء الأخرى التي كانت تطلق على آلهة إبراهيم في الرواية الأصلية، كما فقد المترجمون مغزى أهمية الأسماء المختلفة التي كانت مستخدمة من قبل بترجمتها جميعا باسم يهوه. ويربط هذه العبارة ذهنيا مع الله خالق السموات والأرض، افترض اليهود بأنه هو الله الذي تناول العشاء مع إبراهيم في خيمته وأنه هو الذي تناقش مع الشيخ الجليل حول «صير سادوم»^(٦٦) (بلندة لوط المذكورة في التوراة).

وبعد الآباء انقضت حقبة من الزمن تقدر بنحو أربعمائة عام، في صمت وسكون. وفي غضون هذه الحقبة، وحوالي عام ١٧٢٠ قبل الميلاد غزا الهكسوس وهم أقوام آسيوية ككلا من سوريا وفلسطين ومصر. وربما كان الهكسوس أتراكا لأن متوسط طول أجسامهم خمسة أقدام فقط^(٦٧)، ويضاف إلى ذلك أنهم أدخلوا الخيل إلى هذه الربوع، وقد برع أتراك آسيا الصغرى في تربية الخيول^(٦٨). وقد يكون

(٦٦) سفر التكوين الأصحاح الثامن عشر الفقرات من ١٦ إلى ٢٢.

(٦٧) سيرفاندرز بيري: «فلسطين بإسرائيل».

(٦٨) يعتقد بنائين أنهم خلطوا من الساميين والعميين والعميين، أنظر كتاب: «صير ومخرج اليهود».

فرعون مصر الذى قرب إليه سيدنا يوسف هو واحد من حكام الهكسوس. ولا شك أن الهكسوس كانوا يثقون فى الرعاة الفلسطينيين، بوصفهم أجنبى مثلهم، أكثر من ثقتهم فى المواطنين المصريين الذين تعرضوا لغزوهم.

وتمكننا الأحوال الخاصة لدلتا النيل من تصور أساليب الإقامة المؤقتة فى مصر، حيث أن ثروة مصر لم تقم على الأمطار، بل كان مصدر ازدهارها هو نهر النيل فقط، وكانت الأرض التى يغمرها فيضان النيل خصبة بدرجة غير عادية، أما الأرض التى تملو بضع بوصات ولا يغمرها النيل فكانت صحراء جرداء.

وكان يعيش فى سيناء وبيير السبع وفى شمال الجزيرة العربية أناس تتوقف حياتهم على تربية الأغنام والجمال، إلا أن الطقس كان عرضة لتغييرات كثيرة بالنسبة لسقوط الأمطار. وعندما كان المطر لا يسقط كانت قطعان الماشية تنفق ويفقد الراعى الذى تموت أغنامه كل رأس ماله. ولهذا لم تكن تجديه السنوات الممطرة القادمة نفعا حيث لا توجد لديه أغنام لتربيتها. ومن ثم كان لزاما عليه أن يحصل على المال ليشتري الأغنام ويبدأ فى ممارسة نشاطه مرة أخرى. ولآلاف السنين أمدت مصر الرعاة المغلسين بالحل، وذهب إبراهيم فى السنوات العجاف إليها^(٩). وتقع الصحراء على مقربة من الأرض المتزرعة بحيث يستطيع الراعى أن يضرب خيمته المتواضعة فى الصحراء القريبة ليتطفل على المدينة ويحصل على نقود تمثل أجر ما قد يؤدي من عمل، وبهذه الأجور يتمكن من شراء الأغنام والحمير حتى تصبح أسرته قادرة على الحياة مرة أخرى. ومن ثم يدأون مرة أخرى فى الاتجاه إلى الشرق حيث يستأنفون أسلوب حياتهم التقليدى.

وليس من شك، تحت هذه الظروف، فى أن يضرب كثير من فقراء الرعاة السوريين، عيائهم على حافة الدلتا الشرقية فى الفترة بين عام ١٧٢٠ وعام

(٩) سفر التكوين الاسحاح الثالث عشر ققرة ١٠.

١٢٨٠ قبل الميلاد. وفي حوالي عام ١٥٦٨ قبل الميلاد نجحت أخيرا حركة وطنية
مصرية في طرد الهكسوس وأقامت الأسرة الثامنة عشرة. وكثيرا ما يحدث أنه كلما
استرجع شعب مغلوب على أمره جريته فإنه ينتقل مباشرة إلى فترة من التعدي
العسكري ويبدأ في قهر شعوب أخرى. وعلى هذا، دخلت الأسرة الثامنة عشرة في
فترة زمنية فتحت فيها فلسطين وسوريا، إلا أن مصر نتيجة لانهايار الأسرة الثامنة
عشر في حوالي عام ١٣١٠ قبل الميلاد تعرضت لفترة من الضعف، ولكن رمسيس
الأول (١٣١٠ - ١٣٠٩ قبل الميلاد) أعاد النظام وأسس الأسرة التاسعة عشرة،
وخاض رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ قبل الميلاد)، معركة ضارية ضد
الحيثيين عند نهر العاصي^(١٠) وثبت الحدود شمال دمشق، وكانت بقية سنين
حكمه أيام سلام ورخاء.

وكانت العواصم المصرية القديمة في طيبة أو ممفيس، إلا أن الهكسوس أقاموا
عاصمة ملكهم في أفاريس التي عرفت فيما بعد بإسم تانيس، وعادت الأسرة
الثامنة عشرة الى ممفيس ولكن رمسيس الثاني نقلها مرة أخرى إلى أفاريس حيث
بنى في هذه المنطقة مدنا كبيرة محصنة مستخدما عمال السخرة.

وتسجل إحدى المخطوطات المصرية القديمة استخدام رمسيس الثاني لأسرى
الحرب الذين أسروا إبان حملاته العسكرية على سوريا. وإذا كانوا من سوريا الشرقية
فلا بد وأن يكونا من نفس نوع الرعاة الفقراء المقيمين على حافة الدلتا، ومن
المحتمل جدا أن شبابهم كان مجندا أيضا. وكان المصريون يستخدمون أيضا السخرة،
ولكن الفرعون كان يسره بلاشك استخدام الأجانب بدلا من استخدام رعاياه.
وكان المصريون دائما معادين للرعاة «لأن كل راعي غنم هو رجس
للمصريين»^(١١).

(١٠) خريطة (١).

(١١) سفر التكوين الاصحاح ٤٦. ٣٦.

ولم يكن أسرى الحرب يتطلعون إلى معاملة أفضل، إلا أن التجميع المعتاد للرعاة الفقراء لا بد وأنه سبب سخطاً كبيراً، لأنهم جاءوا لينالوا أجورهم، ومن الطبيعي أن تحبط آمالهم لأنهم عملوا دون أن ينالوا أجراً، إلا أن هذا «الاسترقاق» في الواقع لا يمكن أن يسمى «عبودية». وقد إقترض بنو إسرائيل من المصريين، قبل مغادرتهم مصر، الحلى من الفضة والذهب بغرض سرقتها منهم: «وأعطى يهوه نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين» (١٢).

وهنا لا ينظر إلى يهوه على أنه رب العالمين، بل على أنه رب إسرائيل، الذي يحتال ويسلب المصريين. ومع هذا، فإن إقراض المصريين حلبيهم لبني إسرائيل لا يوحى بالعبودية كما نتصوره ولكنه دليل على جوار بدون صداقة. نرد على ذلك أنه عندما اشتدت الظروف وصعبت أحوال المعيشة، فيما بعد، حزن بنو إسرائيل على فقد حياة الترف والرغد في مصر بما يشير إلى إرتفاع مستوى معيشتهم فيها وليس عبوديتهم.

ومن المؤكد أن موسى ولد من بنى إسرائيل وتبنته إبنة فرعون مصر ونال تعليماً راقياً وربما تعلم مع كهنة هليوبوليس. ويقول ماثو الكاهن والمؤرخ المصرى الذى كتب فى القرن الثالث قبل الميلاد «أن موسى أصبح كاهناً بالفعل» (١٣). وكيفما كان فقد تعاطف مع الرعاة الفقراء المستخدمين فى أعمال السخرة، وقتل رئيس عمال مصرى ثم فر إلى سيناء. وهناك استقبله بترحاب، يثرون الذى يوصف بأنه كاهن مدين وأكرم وفادته وزوجه إحدى بناته (١٤).

وعمل موسى راعياً عند يثرون، وفى ذات يوم بينما كان يرعى الغنم تلقى أول نداء قدسى من الله رب العالمين، ويطلق على هذا الحادث إسم «عليقة

(١٢) أطلق على الإسرائيليين الأقدمين إسم «بنى إسرائيل» لتمييزهم عن الإسرائيليين المعاصرين (الترجم).

(١٣) انظر بفايفر المشار إليه سابقاً.

(١٤) مدين شمال الحجاز خريطة (١).

موسى». وإذا كان موسى قد تلقى تعليمه كمشرك فهل يمكن أن يكون قد تلقى أول معرفته بالرب من حميه كاهن مدين؟ ولكن لا يبدو هناك سبب للشك فى أن هذه التجربة القدسية كانت تجربة جد أصيلة، وأمر موسى أن يذهب ويقود شعبه خارج مصر. ولكن موسى يسأل عن إسم الرب الذى يأمره، وكانت الاجابة: «إننى أنا الذى أرسلتك». ويبين سفر الخروج الاصحاح السادس أن تلك هى أول مرة يوحى فيها باسم «يهوه» وهو اللفظ العبرانى لاسم الله (والمعتقد أن يهوه يعنى «هو الكائن»)، ومن الواضح أن بنى اسرائيل لم يكونوا قد سمعوا من قبل بهذا الاسم. ويستأذن موسى من يثرون ويصطحب زوجته وولديه ويتجه شطر مصر. «وعندما وقف موس، وهو فى رحلته. ليقضى ليلته جاء يهوه لمقابلته وحاول أن يقتله^(١٥). وهكذا فعندما يشعر القارىء بأن موسى لديه حالة تجلى روحية وأن القصة مفهومة، بل وحتى ملهمة بوحى إلهى، فإن مقطعا غامضا كهذا يصيبه بالريكة.

* * *

وتوخى إعادتنا بناء حياة الرعاة الفقراء على الحدود الشرقية لمصر بوضوح، أن هؤلاء الناس كانوا يغدون وپروحون باستمرار منذ وصل يعقوب وأهله لأول مرة قبل ذلك بأربعمائة سنة. والسرد الموجز فى العهد القديم يبين أن يعقوب هاجر الى مصر مع سبعين شخص من عائلته^(١٦)، وزادت ذريتهم فى السنوات الأربعمائة التالية دون أن يختلطوا بسلالة أخرى. وفى الحقيقة لم يكن هناك مفر من أن يتكونوا من جماعات مختلطة من بدو الحميم لسوريا وفلسطين. إلا أنه لا يمكن أن نتكهن الآن ما إذا كان أى من هذه الجماعات أيا كان عددهم، قد انحدر فعلا من ذرية سيدنا ابراهيم.

(١٥) سفر الخروج الاصحاح ٢٤/٤ (وحدث فى الطريق فى المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله).

(١٦) سفر التكوين فقرة ٢٧.

ويبدو أن بعض الرعاة تحت قيادة موسى هربوا حوالى سنة ١٢٢٢ قبل الميلاد. وربما كانت القوضى التى ضربت أطنابها بعد وفاة رمسيس الثانى سنة ١٢٢٥ قبل الميلاد^(١٧)، هى التى أتاحت تلك الفرصة. ولايد أن الرعاة كانوا على علم تام بمصر وجيشها. وفى ذلك الوقت كانت العجلات الحربية التى تعلم المصريون استخدامها من الهكسوس تسيطر على ميدان المعركة، تماما كما تسيطر عليه الدبابات فى وقتنا هذا. وكان موسى قد عاش عددا من السنين فى سيناء وبالتالى كان ملما بطبيعة أرضها، كما أنه ولايد أنه ناقش خطط الهروب مع كبار الرعاة.

وبطبيعة الحال، فإن أمل الرجال الذين كانوا يسيرون على أقدامهم هو أمل ضعيف فى مواجهة عربات القتال ما لم يكونوا قادرين على العمل فى الأرض الفجة أو الجبال (قارن هذا الموقف فى الحروب الحديثة فى مواجهة المشاة والدبابات) وأرض الدلتا التى كونها طمى النيل منبسطة ويرتفع مستوى الأرض قليلا فوق مستوى سطح البحر كما يوجد بها كثير من البحيرات والسبخات، (وقد غيرت قناة السويس من صورة الطرف الشمالى) وربما كان هذا الطرف يضم عام ١٢٢٢ قبل الميلاد سلسلة من البحيرات والسبخات تربط البحيرات المرة الحالية ببحيرة المنزلة. ولايد أن تكون الأرض السبخة قد بدت لبنى اسرائيل وكأنها ملاذ ممكن من العجلات الحربية. ويخبرنا العلماء أن البحر الأحمر (يم سوف) الوارد ذكره فى سفر الخروج ليس هو البحر الأحمر فعلا، بل إنه يعنى بحر القاب، ممايوحى بوجود بحيرة ينبت بها الغاب (البوص). وفيما وراء المستنقعات وعلى بعد أقل من ثلاثين ميلا تقوم جبال سيناء وهى غير ملائمة للعجلات بشكل سوى. وقد كان هدف الرعاة فى الحقيقة، هو الوصول إلى بحر السبع إلا أنها كانت تبعد

(١٧) سفر الخروج الاصحاح ٢٣/٢.

مائة وخمسين ميلا عبر سهل رملى، وإذا ما طاردتهم عجلات القتال كان ذلك
يعنى هلاكهم فى هذه السهول، ولذا هرب الرعاة جنوبا على امتداد خط البحيرات
مارين شرق مدينة السويس الحالية، ومن ثم عبروا الى الجبال، ومن الأرجح أنهم
كانوا كثيرا ما يتجهون الى تلك المناطق فى فصل الربيع لكى يتمكنوا من رعى
أغنامهم، ولذا فلا بد وأنهم كانوا يعرفون طبيعة الأرض معرفة تامة، أما رتل العجلات
الحربية المطاردة فقد تخبط فى الأرض السبخة حيث غاصت العجلات حتى
محاورها.

ويمكننا أن نلاحظ أيضاً أنه عندما هرب بنو اسرائيل كان يرافقهم «جمع
مختلط» مكون من طوائف مختلفة من الرعاة السوريين والفلسطينيين. وكانت
معهم أيضا قطعان كبيرة من الماشية^(١٨)، ولا بد أن الماشية يقصد بها هنا الأغنام،
لأن الأبقار لا تستطيع أن تعيش فى سيناء. ونجد أن هذه الفقرة فى العهد القديم
هى على الوجه التالى: «وصعد معهم لفيف كثيرا أيضا مع غنم وبقر، مواش وافرة
جدا».

وعندما وصل الهاربون الى جبال سيناء الجنوبية أصبحوا فى مأمن من
عجلات القتال، الا أن المنطقة كانت جرداء تماما ودون أى مدن. وكانوا قد جلبوا
معهم أيضا بعضا من الدقيق حملوه على ظهور حميرهم، إلا أنهم عندما وصلوا
إلى سيناء كانوا قد أكلوا معظمه ويستطيع الرعاة العيش فى فصل الربيع على
اللبن الذى يجلبونه من قطعانهم لمدة قد تصل إلى أسبوع أو أسبوعين، إلا أنهم فى
الأوقات الأخرى يكونون فى حاجة إلى الخبز. ولا يمكن الحصول على الشعير أو
القمح الا من المناطق المنزرعة، وكنتييجة لذلك لا بد للرعاة أن يتحركوا الى مثل
هذه المناطق على فترات. حيث يبيعون هناك بعضا من خرافهم أو بعض أصوافها

(١٨) سفر الخروج الاصحاح ٣٨/١٢.

ليشتروا شعيرا أو قمحا بما يحصلون عليه من ثمنها. ولكن لعدم تواجد أى قرى فى جنوب سيناء، فقد هاجموا موسى طالبين منه الخبز، فالأغنام بالنسبة للراعى رأس ماله ولا يستطيع بالتالى الا فيما ندر ذبحها من أجل أكلها.

وبينما كان الرعاة فى سيناء الجنوبية اعتكف موسى إلى إحدى قمم الجبال ليتأمل ويتفكر، وهناك تلقى رسالة سماوية قدسية أخرى. وكننتيجة لذلك سجل الوصايا العشر على قطع من الحجارة، حيث كانت الحجارة هى مادة الكتابة بحيدة التى فى متناول يده. ولو كان موسى قد تلقى علومه على أيدي كهنة هيوبوليس لاستطاع أن يكتب. وقد صنع تابوتا أودعت فيه قطع الحجارة كان يحمله الناس عندما يتحركون من مكان الى آخر. وللتابوت أهمية خاصة، لأن علماء الآثار القديمة يذكرون أن الكهنة المصريين كانوا فى المناسبات الدينية يحملون رموز آلهتهم فى توابيت، وربما نقل موسى عنهم هذه العادة المصرية.

ونختتم هذا الفصل تاركين المهاجرين فى جبال سيناء فى مأمن من عجلات الحربية فعلا، وإن كانوا لا يحملون معهم سوى القليل من الطعام للشراب.

تواريخ هامة

ابراهيم حوالى ١٨٥٠ - ١٨٠٠ قبل الميلاد

الخروج حوالى ١٢٢٢ - قبل الميلاد

خاتمة

١ - هناك شك فيما اذا كان سيدنا ابراهيم وعشيرته من بدو الحمير، كانوا فى الحقيقة يريدون أرضاً، فلقد ظل قومه يعيشون فى الخيام بعد وفاته بتسعمائة عام، ويحتمل أن يكون النص الموجود حالياً قد كتب بعد وفاة ابراهيم بنحو تسعمائة عام.

٢ - لا يزال الرعاة الرحل الفقراء يضربون خيامهم على امتداد الحانب الشرقى للدلتا، الا أن قناة السويس غيرت من هيئة الأرض الطبوغرافية.

٣ - ليست هنالك أية بيانات عن الفترة التى امتدت قرابة أربعمائة عام أى من فترة الآباء الى عهد سيدنا موسى، ولانستطيع أن نعرف ما اذا كان بنو اسرائيل فى عهد موسى قد انحدروا فعلاً من سلالة ابراهيم. ولقد كان إبراهيم من غير شك هو سلف القبيلة من الوجهة النظرية، إلا أنه لم يكن هناك مفر من عقد كثير من الزيجات المختلطة وكمثال على ذلك زواج يوسف عليه السلام من زوجة مصرية.

٤ - استخدم رمسيس الثانى عمال السخرة فى الأعمال العامة، مثله فى ذلك مثل أى حاكم من حكام مصر من قديم الأزل.

٥ - كانت لموسى عليه السلام شجرة قدسية أصيلة فى «العليقة المشتعلة». وقبل هذه التجربة لم يكن بنو اسرائيل قد سمعوا قط عن يهوه الذى سيصبح إله إسرائيل، ومرة أخرى تلقى موسى الوحي على جبل سيناء.

* * *

الفصل الثامن

إذا توقفت قليلا فى هذا المقام فانتى أستطيع أن أؤكد بالدليل بأن دين اسرائيل يمكن تصويره وتجسيده بكلمة واحدة، تلك هى اسم: يهوه. إن هذا الاسم يسيطر سيطرة تامة على جميع منابع المادة التى نستحوذ عليها.. وهو يتردد أكثر من أى اسم أو فعل آخر فى العهد القديم. ولقد أحصى هذا الاسم عدا فوجد أنه جاء أكثر من ستة آلاف وثمانمائة مرة فى مقابل استخدام الكلمة العامة لإسم «الله» (الوهيم) التى ذكرت ألفين وخمسمائة مرة.

تى. سى. فريزن. (دين اسرائيل القديمة)

إن التأكيد على أوامر القربى، والإفتقار إلى الارتباط بالمعابد الثابتة افتراضان مقبولان بالنسبة لدين تعتنقه جماعة غير مستقرة من أهل البادية.

آر. آى. كليمنتس، (إبراهيم وداود)

الفصل الثاني

الرب يهوه

عندما وصل بنو اسرائيل إلى سيناء خر يثرون، شيخ مدين الكبير لتحتيتهم وقد اصطحب معه زوجة موسى وولديه. وقص موسى عليه كل ما فعله يهوه لتخليص بنى اسرائيل من مصر، وأجاب يثرون «الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة» ثم أخذ يثرون ذبائح للإله العظيم. وجاء هارون وجميع شيخ بنى اسرائيل ليأكلوا طعاما مع يثرون أمام الله^(١). وتوحى هذه العبارة بأن يثرون كاهن مدين كان أرفع مقاما من موسى فى عبادة «يهوه»، إذ أنه هو الذى أمّ الطقوس الدينية بينما كون موسى وهارون وكبار بنى اسرائيل جماعة المصلين. وبينغى ألا يغيب عن البال أن موسى كان يعيش مع يثرون عندما رأى العليقة المشتعلة. ولقد نبغنا أن بنى اسرائيل لم يكونوا قد سمعوا قط باسم «يهوه» قبل عليقة موسى^(٢)، لذا فمن المحتمل أن يكون موسى قد سمع عن «يهوه» من يثرون. وقد يثور جدل بأن يثرون هو الذى عرف يهوه عن طريق موسى، وعندئذ يصبح موسى المعلم ويثرون تلميذه، ولكن عندما أقيمت صلاة الشكر كان يثرون هو الذى تولى إدارتها بينما انضم موسى الى جماعة المصلين.

ويعلق وليام نيل على هذا الحادث بأن كثيرا من الباحثين يذكرون أن الأثر الذى تركته هذه الرواية، هو أن يثرون لم يكن إماما لأنه من المهتمدين الطائمين الذين دخلوا فى دين يوره القويم، بل كان إماما باعتباره شخصية دينية بارزة يكن لها موسى إحتراما ملحوظا. وإذا كان «يهوه» هو إله سيناء الذى كان يعبده أهل

(١) سفر الخروج الاصحاح ١٨ الفقرات ٨ - ١٢.

(٢) سفر الخروج الإصحاح ٢٠. ٦.

مدین او الکنعانیین، وکان یثرون هو کبیر کهنه «یهوه»، فلا یجوز القول بأن حما
موسی نال أكثر مما کان یتحق لأنه لقی معاملة بالغة الاحترام من بنی اسرائیل
جميعاً»^(٣).

ولکن ولیم نیل فی الفقرة التالية يبدو علیه الجزع من جراء مجازفته فیقول:
«إن العهد القديم يختص موسی بأنه العقلية المبدعة التي استخدمها الرب لتوصیل
مفهوم جدید عن ذاته وصفاته لشعبه المختار وإن كان ذلك تحت إسم قديم. وفي
العليقة المشتعلة لم يتم إختيار موسی بواسطة إله قبلي خيالي لعشيرة مدین الغير
مشهورة ولكن الذي اختاره رب العالمين». ومن الأسف أن یثرون لم یکن متنسباً
الی سلالة فرعون، ولعلها حکمة رب العالمين أن یختار الأشخاص العاديين حيث
اختار فی فترة تاريخية تالية نجارا قروباً مؤثراً إياه علی القيصر أوغسطس.

ويتساءل ناقد عصري للعهد القديم، عما إذا كان اعتقاد بنی اسرائیل فی إله
واحد قد تطور من التعدد الوثني للآلهة، ولكنه یجيب علی سؤاله بالنقی^(٤). لذا
جرت المجادلة بین ما إذا كان الاعتقاد فی إله واحد قد أوحى به بطریق مباشر من
الله إلی موسی وحده ومن موسی إلی بنی اسرائیل دون غیرهم. وقد أخبرنا علماء
الآثار القديمة أن الشعوب المجاورة كانت جميعها تعتقد فی تعدد الآلهة، وذلك أمر
لا یحتمل الجدل، إلا أن علم الآثار القديمة تتناول المدن والمخطوطات، ومن ثم فهي
لاستطیع أن تحدثنا عن دیانة أهل الخيام فی سیناء. ویخبرنا وليام نیل نفسه، فیما
بعد، بأن الأنبياء وناظمی سفر مزامير النبی داود كانوا ینظرون إلی أيام الصحراء
وكانها أعلى علامة تميز طاعة بنی اسرائیل لله، أي عندما كان الإیمان الخالص فی
«یهوه» یمضی جنباً إلی جنب مع قانون أخلاقی صارم». ویستطرد نیل فیقول: «إن

(٣) القس وليام نیل، «تعليق علی التوراة».

١٤ دجی. أي، رأیت «العهد القديم فی مواجهة بیته».

حياة قبيلة بدوية بمطالبها البسيطة واقتنائها المشاع لضرورت الحياة، ووضعها الجسماني الصحي المفيد للعلاقات الجنسية ووجودها غير المعقد بصفة عامة، هي حياة لاتبدو فيها المواد التي تضمنتها وصايا موسى العشر وكأنها أمور غريبة بأية حال. والواقع أنه ليس من قبيل المجازفة أن نذهب إلى الظن بأن جانب من دعوة موسى لعبادة إله واحد يرجع إلى التباديل الواضح في ذهنه بين الفجور والشرك اللاأخلاقى بالله الذي صادفه في مصر عن كذب، وبين التقوى السليمة والفضائل التي وجدها بين الكنعانيين الذين كانوا يعبدون الله رب العالمين^(٥).

وتبدو هذه العبارة جد معقولة وإن كانت لاتلقى ترحيبا بصفة عامة من الكتاب الكهنوتيين، لأنها تعكس الاعتقاد بأن الله أوحى أول ما أوحى إلى موسى الذي حول أتباعه، بالتالي، إلى «شعب الله».

والرد على ذلك، هو أنه وجد في معبد سرايت الخادم عدد لا حصر له من الذبائح التي تحرق للعبادة، وقد تكونت منها طبقات كثيفة من الرماد، إلا أنها كانت خالية من العظام ومن ثم كان الرماد متخلفا من الذبائح التي كانت المتعدون يستهلكونها، أي أنه لم يكن متخلفا من حرق كلى للذبائح الضحية. وقد اكتشفت في هذا المعبد ثلاثة هياكل للبخور. وهكذا ليست هناك أية جدوى من محاولة تحديد بداية التطهر بالماء أو هياكل البخور في الشريعة اليهودية، لأن القبائل العربية التي كانت تنسب إلى أصل واحد كانت تستخدمها قبل خروج اليهود ويقضى هذا النموذج في معابد شمال الجزيرة العربية على أي مبرر للجدل حول الوقت الذي نبذت فيه إسرائيل الصور من عبادتها، ذلك لأنها لم تكن قد دخلت قط في ذلك النظام، إن اتخذته فيما بعد نقلا عن التقاليد الكنعانية.

(٥) القس وليام نيل «تعلق على الكتاب المقدس».

إن اكتشاف أماكن العبادة هذه، التي كانت خالية من اللوحات والصور، والتي تتشابه في تصميمها مع آخر معابد أورشليم، في المكان الذي التقى فيه يثرون مع موسى وهو قادم من مصر، يزيد كثيرًا من احتمال أن حما موسى كان هو الوسيط الذي اتخذه يهوه ليحول موسى إلى عبادة وينبذ الأصنام. وربما كان يثرون كاهن مدين هو الذي قدم الذبائح التي أحترقت تعبدًا، وبالتالي أكل منها هارون وكبار بني إسرائيل في ذلك المعبد بالذات. وربما كان أكثر مظاهر التشابه إثارة بين ديانة شمال الجزيرة العربية وديانة بني إسرائيل، أن الكعبة في مكة هي بناء صغير مكعب الشكل ليس به مكان لصنم أو محل لصورة، أي على غرار قدس الأقداس في أورشليم. وهناك وجه آخر للشبه، ذلك هو أن بني إسرائيل وعرب الصحراء كانوا جميعًا يجرون عملية الختان (الطهارة)، أما إبراهيم الذي جاء من شمال سوريا فلم يكن يعرف شيئًا عن الختان إلا عندما وصل إلى جنوب الخليل.

ومن سوء الحظ أنه بينما عاش موسى حوالي عام ١٢٢٥ قبل الميلاد، لم تتوفر لنا أول المعلومات المفصلة عن الديانة العربية إلا في عهد محمد رسول الله ﷺ، أي بعد ذلك التاريخ بنحو ألفي سنة. ويرفض أحد المعلقين على العهد القديم المقدس الفكرة القائلة بأن ديانة سيناء جاءت من الجزيرة العربية على أساس أن العرب في عهد سيدنا محمد كانوا «مشركين» وليس هذا صحيحًا بالكامل، أولاً: لأن معرفتنا بالديانة العربية جاءت بعد إنقضاء ألفي سنة على مولد موسى ﷺ، أي بعد فترة من الزمن تساوى الفترة من عهد المسيح عيسى بن مريم إلى وقتنا هذا. ثانياً: لأن الديانة العربية لم تنحط الحجارة بحيث تحاكي الكائنات الحية، اللهم إلا بعض التماثيل القليلة التي جلبت من سوريا الرومانية. وكانت آلهة مكة أرواحاً قادرة على التوسط بين الإله والانسان ولم يكن محمداً ﷺ يطلق على أعدائه صفة عباد الأصنام، ولكنه كان يسميهم المشركين لأنهم كانوا يشركون الأرواح الصغرى مع الله الواحد.

وكيفما كان، فلم تكن الأرواح الصغرى تتزوج قط، كما أن الله الصمد لم يلد ولم يولد، بينما نرى أن أغلب النظم التي تقول بشعدد الآلهة، إن لم يكن جميعها، تصور آلهتها وقد اتخذت لها زوجات وأنجبت بنين وبنات. وهكذا كانت الديانة العربية في غيبة هذه العلاقة الجنسية، أشبه ما تكون بديانة سيناء.

ويعتبر سفر أيوب دليل آخر على ذلك، لأنه ينطوى على مناقشة في التوحيد لاتذكر إسرائيل على الإطلاق. وتقتضى الغارة على أبل ايوب ضمنا وجود اقليم صحراوي. وهناك ما يوحى بأن أيوب كان يعيش في «تبوك» أو «تيماء» كما كان هناك بعض مبشرين آخرين دعوا الى التوحيد في الجزيرة العربية وجاء ذكرهم على في القرآن الكريم.

وهكذا يبدو محتملا ألا تكون ديانة سيناء وحيا جديدا نزل على حين فجأة ولكنها جاءت نتيجة عملية تطور ممتدة يرجع تاريخها في شمال الجزيرة العربية الى عدة قرون ماضية. ويطابق هذا الافتراض سنة الله في خلقه عبر التاريخ. أما النظرية العكسية فهي أن الرؤيا التي رآها موسى من آيات ربه الكبرى كانت رؤيا فريدة أصيلة - بل إنها طفرة مفاجئة للأمام على طريق تقدم البشرية.

وقد مر موسى بتجربة دينية حقيقية في سيناء. والتاريخ مليء بمثل هذه الدعوات الروحانية التي كان نائجها تكريس النفوس المعنية تكريسا مطلقا. وعندما نزل موسى من جبل سيناء «جاء وجهه مشرقا يتلأأ نورا بحيث لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب منه». وهذه النورانية خاصة معروفة تصاحب الانجذاب الروحي. ويوافق كثير من المعلقين على أن ديانة بنى اسرائيل الأولى أخذت منبعها من الصحراء. ويكتب رونالد كليمنتس أن «هناك بعض الدلائل على أن قادش كان مركز عبادة يهوه الذي كان موقرا في أيام ما قبل اسرائيل باعتباره رب سيناء - حوريب»^(٦).

(٦) آر. آى. كلمنتيس. ابراهيم وداود «مستشهدا بكتاب جى. جى. جى»: «الحياة في الصحراء واليهوديين وتقاليدهم حوريب سيناء».

وقد قوى من احتمال أن ديانة اسرائيل جاءت من الصحراء بعض اكتشافات سير فلنדרز تيرى^(٧). فقد وجد في تل العجول (غزة القديمة) عددا من الغرف الصغيرة المنفردة، المنعزلة عن المباني الأخرى وهي مطلية بالكامل بالمصيص والجير الأبيض دون زخرفة أو ألوان ومن غير ما صورة أو موضع لصورة. وتشير العلامات إلى أن الغرض من هذه الغرف يرجع إلى أنه كان يوجد أمام بابها منصة ترتفع عن مستوى الأرض بقدم واحد سطحها الأعلى الذي تبلغ مساحته ياردة مربعة مغطى بأصداف بحرية مطعمة، وتنحدر هذه المنصة نحو بالوعة لتصريف المياه. والظاهر أن هذا المكان كان معدا لغسيل الأقدام قبل الدخول الى المعبد ومن ثم يدخل الفرد بعد عبور المنصة الى أرض المعابد المستوية والمصنوعة من المصيص الأبيض. ويرجع سير فلنדרز تاريخ هذه المعابد التي لم يكن بها مكان للأصنام، إلى الفترة ما بين عام ٢٠٠٠ وعام ١٦٠٠ قبل الميلاد أى بين أربعمئة سنة وثمانمئة سنة قبل مجيء موسى. وكان الاكتشاف المشير هو سرايت الخادم فى سيناء والتي تبعد بضعة أميال عن رفيديم القديمة حيث التقى يثرون بسيدنا موسى وهو بقايا معبد يعود الى نحو سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، أى ثلاثة قرون قبل موسى^(٨). وكان يقوم خارج الباب خزان مكعب من الحجر، كما كان يوجد فى الفناء المربع خزان اسطوانى من الحجر كذلك، تحيط به أربعة أعمدة ترتفع عليها عريشة تظلل الخزان، وكان هناك خزان ثالث فى فناء ثان، محاط هو الآخر بأربعة أعمدة. وهذا أنموذج للحوض النحاسى فى فناء المعبد اليهودى^(٩). ودورة المياه (مبضة الحنفيات) فى فناء الجامع الإسلامى.

(٧) سير فلنדרز تيرى: «فلسطين واسرائيل».

(٨) خريطة (٢).

(٩) الملوك ٢٥ فقرة ١٣،

ولا تتبع أى من هذه الأدوات التى تستخدم للاغتسال والوضوء المعابد المصرية ولا المعابد أو الأضرحة فى شمالى غزة، وإنما هى تمثل أسلوبا عربيا ظل قائما قرابة أربعة آلاف سنة أو أكثر، دون أن يضم هذا النمط صورة أو صنما.

وعندما نفكر ونتأمل فى أمر الديانة التى اعتنقتها اسرائيل القديمة، ينبغى لنا أن نتذكر أمرين اثنين، أولا: بينما كان موسى قديسا وروحا مميزة، كان رجال القبائل رعاة جهلة، ومهما رأى موسى من آيات ربه فإن الفرد العادى من بنى اسرائيل كان يفكر فى «يهوه» وكأنه رب القبيلة الذى يصاحبها بشخصه فى المعركة ضد القبائل الأخرى التى تنتصر لها آلهتها وبالطبع يحارب معها فى الأخرى. ثانياً: كان تطور الحالة العقلية والروحية العامة بين الرعاة مختلفا تماما عنه بالنسبة للأنبياء بعد خمسمائة عام كما كان مختلفا أيضا عن الكهنة الذين أشرفوا فى النهاية على تجميع وإخراج نسخة العهد القديم. أو من غير المعقول أن يقال أن بنى اسرائيل فى سيناء كانوا يؤمنون بهذا أو ذلك، وأن نستشهد «بعاموس» أو إشعياء لإثبات هذا القول.

إن فكرة أن الديانة اليهودية أوحى بها بالكامل الى موسى هى أمر مخالف للتجربة البشرية لأن كل شىء فى الحياة ينمو ويتغير بصفة مستمرة، وموسى تلقى رسالة من الله وهذه الرسالة كانت قاطعة وكانت كاملة لأن الله لا يتغير، إلا أن واقع الحال هو أن كل من يتلقى رسالة ما يستطيع، كما رأينا، أن يستوعب منها على قدر ما تسمح به معرفته.

والرأى هو أن موسى كان روحا مميزة ولكن الرعاة كانوا مجرد رجال على شاكلة أهل زمانهم ومكانهم، وقد مس جانب قليل من روح موسى فبعض قليلة من هؤلاء الرجال.

وليس هناك دليل فى قصة العهد القديم على أن رعاة سيناء كانوا يظنون أنفسهم أعلى كعباً ممن عداهم من القبائل الأخرى. وتسجل القصة عهداً بين يهوه وبين هؤلاء الرعاة الذين اعتبروه (أى يهوه) من ذلك الوقت وصياعداً، رب قبيلتهم تماماً كما كان «كموش» رب المؤابيين - نسل مؤاب أكبر أبناء لوط (عليه السلام) / وقد حدث سوء الفهم - ان كان هناك سوء فهم - بعد ألف سنة عندما تغيرت عبارة «يهوه» الى الرب (إيلوهيم).

وليس مستغرباً أن يقضى موسى أربعين سنة ليجعل من هذا الجمع الغير متجانس من الرعاة مجموعة متماسكة. ويخبرنا سفر الخروج أن شيعة موسى عندما غادروا مصر كانوا جمعاً مختلطاً، وإن كان بنو إسرائيل، وهم عشيرة موسى، على رأس هذا الجمع. ومن سوء الطالع أنه يوجد سبعة وثمانون إصحاحاً من سفر الخروج الإصحاح ٢١ إلى سفر العدد الإصحاح ٢٠ (١٠) تصف الطقوس الدينية والأثاث فى هيكل أورشليم قبل (السبى) البابلى، بالإضافة إلى جانب غير قليل من التشريعات التى تلائم الحياة الزراعية. وقد سجل الكهنة هذه التفاصيل، بعد تدمير الهيكل، إبقاءً عليها إلى أن يحين الوقت مستقبلاً لإحيائها من جديد. ويخفى هذا الجانب من المادة الدخيلة الأثر الطبيعى الساطع لقصة الرعاة فى سيناء.

وكان الرعاة، كما رأينا، يراعون على امتداد حافة الأرض المنزرعة، وينتقلون الى القرى فى فصل الربيع، حيث يبيعون خرافهم الصغيرة وأصوافهم أو الزبد والسمن ليشتروا من الثمن الذى يقبضونه الجبوب ليصنعوا منها الخبز. ولكن لم تكن هناك أية مجتمعات زراعية فى سيناء، ولذا فسرعان ما افتقدوا الخبز. وكانت بئر السبع أقرب المناطق التى تغل الجبوب. وعلى هذا تحرك الرعاة إلى تلك المنطقة. ولعلمهم قد استقوا فى وادى عرابية وهم فى طريقهم (١١). وقد ورد أنهم ضربوا خيامهم فى «قادش بارنيع» والمعتقد أنها عين قديس الحالية.

(١٠) باستثناء سفر العدد الإصحاحات ١٠ - ١٤ التى تعود الى القصة.

(١١) خريطة (٢).

وقد اكتشف في مصر عمود عليه نقوش أثرية من عهد مرنبتاح إبن رمسيس الثاني، وتصف هذه النقوش حملة الى فلسطين. وسجل فرعون مصر أنه هزم الحيثيين والكتعانيين والحروريين، ثم يضيف أن إسرائيل قد «تشتت شملها، وإن لم يتفرق ذريتها». وفيما يختص بالشعوب الأخرى، فقد جاء ذكر مدنهم، إلا أنه لم تكن هناك إشارة إلى أية مدن تنتسب لاسرائيل. وكانت هذه أول مر يذكر فيها إسم إسرائيل في خارج الهد القديم وربما كان تاريخ ذلك حوالي عام ١٢٢٠ قبل الميلاد.

ونظر لأنه لم تذكر أية مدن اسرائيلية، فإنه يبدو أن اسرائيل كانت لاتزال تسكن الخيام في سيناء. وعندما ضربوا خيامهم في سهول بير السبع ليشتتوا الحبوب باقتتهم واجتاحتهم العجلات الحربية المصرية، ولأن المهاجمين بالعجلات الحربية لا يستطيعون أن يحملوا الخيام أو الأغنام، فإن الرعاة يعودون ليلا ليجمعوا ما بقى من ماشيتهم. وكانت المنطقة تضم قبائل بنى القينى - قبيلة يشرون - والكاليبيين الذين من المحتمل أنهم كانوا يعبدون يهوه قبل أن يعبد بنو إسرائيل. وقد وجد بنو القينى مع بنى إسرائيل في فلسطين، أما الكاليبيون فقد ضموا قدهم مع اسرائيل وفي النهاية أخذوا الخليل واندمجوا في يهوذا.

ولعل مما يستحق الذكر أن بنى اسرائيل إبان وجودهم في «قادش بارنيع» كانوا في «أرض ابراهيم» وهى الأرض التى وعد بها ابراهيم بناء على ماء فى سفر التكوين، وبالرغم من ذلك لاتوجد أى إشارة إلى إبراهيم إطلاقا فى ذلك الجزء من القصة، الذى يصف وصول الطائفة الى جنوب الخليل. فهل كان بنو اسرائيل فى ذلك الوقت لايعلمون شيئا عن الوعد الذى وعد به ابراهيم؟ لقد أشار بعض الباحثين الى أن إسم إبراهيم لم يذكر منذ نهاية سفر التكوين الى السبى البابلى إلا

فيما ندر، ولذلك فعندما زالت دولة اسرائيل أصبحت للوعود التي وعد بها ابراهيم أهميتها.

ويعزو العهد القديم التخلي عن الهجوم في الجنوب الى أوامر «يهوه» لأن السهل الساحلى الجنوبى كان مكتظا بالسكان، وكان يمثل المنطقة الأكثر حضارة وقدمًا فى فلسطين، إلا أن الجبال الممتدة من يهودا الى السامرة (إذا ما استخدمنا أسماء حديثة) كانت فقيرة وقليلة السكان، لذا كان الهجوم من الشرق سيكون أسهل بكثير من الهجوم من الجنوب. وربما قضى رعاة بنى إسرائيل ما يربو على أربعين سنة يعيشون عيشة الرعاة الرحل فى منطقة «قادش بارنيع» - وادى عرابة - ولكن لا يوجد فى سرد العهد القديم أية تفاصيل.

ومن هنا نشأ جيل جديد فى الصحراء، وكان شظف العيش وقيادة موسى، وإيمان هذا الجيل فى «يهوه» باعتباره قائدا حرييا من الأسباب التى شدت من عزيمتهم، وقرر موسى أن يتجه شمالا فيعيد الكرة فى محاولة أخرى. ولما كانت أدوم ومؤاب غير أصدقاء فقد إلتف قوم موسى من جهة الشرق، وفى منطقة «حرمة» تعرضوا للدغ الحيات ولا تزال هذه المنطقة معروفة حتى يوما هذا بكثرة ثعابينها السامة(١٢).

ولا يمكن التعرف على كثير من الأماكن، الا أن «بعرة» قد تكون «بعرا». ولما كانت البعرة قائمة فى قاع واد ضيق فقد كانت عرضة لأن يترسب بها الطين عندما لا تكون مستخدمة وكان ينبغى أن تطهر من جديد على أيدى الوافدين الجدد(١٣).

(١٢) خريطة (٢)، انظر سفر العدد الاصطاح ٦ / ٢١ - ٩.

(١٣) سفر العدد الاصطاح ١٦ / ٢١ - ١٩.

وقد كانت سلسلة الجبال شرق وادي الأردن مقسمة في ذلك الحين بين جموع من القبائل، فكان الأموريون في «حوران» وعلى جبال جلعاد حتى جنوب نهر أرنون، وكان العمونيون إلى الشرق حول عمان الحالية. وإلى الجنوب من أرنون كانت توجد تجمعات «مؤاب» القبلية الصغيرة ثم تجمعات «أدوم». وقد اجتاح بنو إسرائيل مجموعة الأموريين الجنوبية الذي كان إسم ملكهم (أو شيخ قبيلتهم) سيحون يعيش في حشبون (حسبان الحالية). وبذا تمكن بنو إسرائيل من الوصول إلى قمة الجبال المطلة على وادي الأردن. وكانت المنطقة جنوب دمشق أهلة كذلك بالأموريين^{١٤} الذين جاءوا لمساعدة عشيرتهم، لذا اتجه بنو إسرائيل بسرعة إلى الشمال وأغاروا على الأموريين قبل أن يتمكنوا من إعداد العدة للقائهم، فهزم الأموريون عند «إذرعى» وهي «درعا» الحالية، هزيمة منكرة، ويبدو أن قد ذبحوا جميعهم.

وقد كان ذلك الأمر مدعاة لانزعاج مؤاب، الذي أرسل شيخها إلى «بلعام» وهو نبي كان يبدو أنه يعيش على نهر القمرا في شمال سوريا. ومما يسترعى الالتفات أنه كان كاهنا من كهنة «يهوه». وتوحي هذه الحقيقة مرة أخرى، بأن يهوه كان إله قبائل الصحراء. ولما كان بنو إسرائيل من عبدة يهوه أيضا، فإن بلعام لم يكن في استطاعته صب لعنته عليهم. ويلخص سفر التثنية قصة الخروج من مصر إلى الوصول إلى «مؤاب» في صيغة أحاديث نسبت إلى موسى عليه السلام. ثم يأتي بعد هذه الأحاديث مزيد من التشريعات وحديثان آخران من أحاديث موسى. والمعتقد الآن أن أغلب هذه المواد جمعت بعد مضي خمسمائة سنة. وكانت مادة الكتابة الوحيدة في هذه الحقبة هي قطع الحجارة أو قوالب الآجر مما كان يصعب حمله على ظهور الحمير.

وقد توفي موسى ودفن على جبل «نبو»^(١٤)، وهبط بنو إسرائيل من الجبال

(١٤) خريطة (٤).

الشديدة الانحدار التي ترتفع حوالى أربعة آلاف قدم وضربوا خيامهم فى مخاضة الوادى تجاه «أريحا». ويذكر العهد القديم بأن العدد الاجمالي لبني اسرائيل كان ستمائة ألف رجل فى سن الجندية، وبالتالي يوحى هذا الرقم بأن العدد الإجمالى للعشيرة هو مليونان من الأنفس. ويفسر فلنדרز تيرى هذه المعادلة الصعبة بمقارنة الأعداد المستخدمة عام ١٢٤٠ قبل الميلاد بتلك التي كانت مستخدمة بعد ذلك بخمسمائة سنة، ويتابع بعض الأعداد التي كانت مستخدمة فى الحقبة السابقة وينتهى إلى أنها تتشابه الى حد ما مع تلك الأعداد التي كانت مستخدمة فى تاريخ لاحق وإن اختلفت دلالتها. واذ يجرى التصحيحات الضرورية فإنه ينقص أجل الآباء وأعداد بني اسرائيل الى النسب المألوفة.

ومع هذا، فلا مناص من وقوع الخطأ، إذ يعتقد أغلب الباحثين العصريين أن اسرائيل كان لديها نحو خمسة آلاف مقاتل، وبالتالي كان مجموع سكانها خمسة عشر ألف أو ستة عشر ألف نسمة. وإذا رجعنا إلى أن بني اسرائيل كانوا جميعا قادرين على أن يستقوا من بئر واحدة، وأنهم ساروا حول «أريحا» سبع مرات فى صباح واحد فإنه يصعب القول بأنهم كانوا أكثر من ذلك عددا.

خاتمة

١ - يبدو أن هناك كثيراً من الدلائل على أن عبادة «يهوه» كانت تمارس فى سيناء بل ربما أنها كانت تمارس فى شمال الجزيرة العربية قبل الخروج. وأن موسى عليه السلام أخذ هذه العبادة عن يثرون شيخ مدين الكثير. والرأى هو أن موسى تلقى وحيا روحانيا حقيقيا فى «عليقة موسى»، إلا أنه نسب إلى يهوه، ولا يطل الاعتقاد العقلى والفكرى المخطيء التجربة الروحانية.

٢ - كانت عبادة يهوه عبادة مجردة بسيطة ختمتها ظروف معيشة الرعاة الرحل. والمظهر البارز في تلك العبادة هو نبد الصور، كما كانت المعابد التي أقيمت لعبادة يهوه عبارة عن بناء مقدس مكعب الشكل خال من الصور، فقد كان يصعب على البدو الرحل أن يحملوا معهم الهياكل المعقدة والأصنام والتماثيل.

٣ - لا جدال في أن موسى عليه السلام كان روحا مميزة دينية وأن ما رآه في العليقة المشتعلة بسيناء كان تجربة روحانية أصيلة. ومع هذا فقد كان بنو إسرائيل يعتقدون أن يهوه هو قائدهم العسكرى الذى سوف يقودهم فى المعركة. وفى سيناء التقى بنو إسرائيل بالقينيين (أهل مدين) الذين سبق لهم أن عبدوا يهوه طويلا، ويحتمل أنهم كانوا هم الذين قدموه الى بنى إسرائيل على أنه قائدهم. ويصعب علينا فهم الأفكار المعقدة لهؤلاء القوم البسطاء.

٤ - أن السرد الكامل للخروج من مصر إلى الصراع مع مؤاب، جد واضح وسائغ. إلا أنه أصبح معقدا بكثرة المواد التي أضيفت، فيما بعد، بالإضافة لتناول وصف الطقوس الدينية فى هيكل أورشليم والتشريعات التي كانت تحكم المجتمع الزراعى.

الفصل الثالث

الغزو

«فإن ملاكى يسير أمامك وىجىء بك الى الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين. فأيدهم.. أرسل هيبتى أمامك وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين. فإنى أذفع الى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك..».

«فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام. فأجاب جميع الشعب بصوت واحد وقالوا كل الأقوال التى تكلم بها الرب نفعل..».

سفر الخروج الاصحاح ٢٣/٢٣ إلى ٣٢ الاصحاح ٣/٢٤

«وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي فى حقل فى البرية.. أن جميع اسرائيل رجع الى عاي وضمروها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال. ونساء إثنى عشر ألفا جميع أهل عاي...».

سفر يشوع الاصحاح ٢٤/٨ و ٢٥

الفصل الثالث

نقف في هذا الفصل لتأمل معانى الأسماء المختلفة المستخدمة للرب. لقد كان الاسم العبرى «يهوه» أكثرها استخداما. وبعد عدة قرون، وربما كان ذلك حوالى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد، رأى كبار حاخامات بنى اسرائيل أن كلمة «يهوه» كلمة مقدسة بدرجة كبيرة لايجوز استخدامها فى الأمور المعتادة يوميا فاستبدلوها بكلمة «أدوناي» ومعناها الرب. وعندما ترجمت أسفار موسى الخمسة فى أعقاب ذلك إلى اللغة اليونانية ترجمت أدوناي بكلمة «كيريوس» ومعناها: الحرقى الرب. وفى اللاتينية صارت كيريوس دومينوس وفى الترجمات الانجليزية أصبحت كيريوس ودومينوس الرب، وهو اصطلاح قبل دون مجادلة ليعنى خالق الكون.

وقد عاد الآباء الدومينيكيون الى استخدام كلمة «يهوه» فى ترجمتهم الجديدة التى نشرت سنة ١٦٦٩. والرأى عندى أن رد الفعل الذى أحدثه كتاب العهد القديم كان طاغيا، فحيثما كان يهوه يخاطب موسى أو بنى اسرائيل كانت العبارة التى يستخدمها هى «إنى أنا يهوه ربك» أو «إنى أنا يهوه ربكم» وفى صيغة الغائب «يهوه رب اسرائيل». ويبدو أن الرعاة إعتبروه «يهوه» هو الرب الذى اختارهم والذى وعدهم بالسير على رأسهم للقضاء على القبائل الأخرى التى كان كل منها بطبيعة الحال تحت قيادة إلهها.

وقد سبق أن اتفقنا على أن موسى مر بتجربة روحانية أصيلة. وقد يرد هنا سؤال: كيف أمكن حدوث ذلك إذا كان يظن أنه يتحدث إلى إله قبلى محلى؟. وأنتى أجتريء وأقترح أن الله قد يكون غير ذى بال بالنسبة لفهيمنا الفكرية العقلية رغم ما نعلقه عليها من كبر الأهمية. وعلى أى حال فان عقول البشر اذا ما قورنت بحكمة الله، فاننا نجدها أصغر قطعا من عقول البعوض اذا ما قارناها

بعقول البشر. فهلا يجوز أن يكشف الله عن ذاته العلية لرجل يبدى الاستعداد لتكريس نفسه لعبادته، حتى وإن كان فكرته العقلية عن الله مضحكة؟

لكن مهما كان اعتقاد موسى نفسه، فإن الرعاة كانوا يتخيلون الله وكأنه قائدهم في الحرب، والمسيحي في أيامنا تأخذه الحيرة عندما يقرأ أن «الرب» يأمر بذبح كل شيء حي. ففي وصف سقوط «أريحا» يقال لنا أنه قتل كل ما هو حي في المدينة. «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف»^(١). وتتردد نفس القصة مرارا وتكرارا. أيمن أن يأمر الله بهذه المذابح وبهذه الأعمال الوحشية التي لاتقف عند حد في حين أن المحبة هي أبرز سجايها؟

ويتغير إسم يهوه إلى «الرب» وضع المترجمون «الطائفة المسيحية» في معضلة منذ ذلك الوقت، إذ وقع المدافعون عن الدين المسيحي في ورطة شديدة كيصفوا يفسروا هذا التناقض الظاهر، وكان سيئهم إلى ذلك أن «الكنعانيين أشرار يستحقون الابداء» ويتعذر علينا اليوم أن نقدركم كانوا أشرا، ولكن على فرض أن الكنعانيين كانوا خليعين جنسيا - وهو الادعاء المؤلف - فإنه من العسير قتل فجة بأسرها بسبب إنحلالها الجنسي.

وقد كان ما يطلق عليه إسم البغاء، طبقا للعقيدة الدينية، والذي كان يمارس في فلسطين سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، أمرا مألوفا لدى كثير من الشعوب الزراعية في ذلك الوقت، وكان يقوم على أساس المحاكاة السحرية. فلكي تأتي الثمار كان من الضروري أن تثيرها وتنبهها، وعلى هذا فإن رش الماء على الأرض، هو بمثابة تقليد للمطر الذي يتساقط من السماء وبالمثل كان العلاقات الجنسية الانسانية تثير وتنبه خصوبة الحقول^(٢). وهكذا كان الكنعانيون والأموريون يمارسون خطأ يتعلق

(١) سفر يشوع الاصطاح ٢١/٦ .

(٢) جي. بي. جلوب «القرون الضائعة».

بحقائق الزراعة، ولكنهم كانوا يشاركون معظم معاصريهم المزارعين في هذا الخطأ، لكن هل يكون هذا الخطأ مبرراً لأن يبادوا عن آخرهم؟

وفي مقدمة الطبعة المنقحة لسنة ١٩٥٢ للكتاب المقدس، فسرت لجنة المترجمين سبب الاستمرار في استخدام كلمة «الرب» مفضلة إياها على الكلمة العبرية الأصلية «يهوه»، بأن استخدام أى اسم مناسب وملائم لتمييز الله الواحد الأحد وكأنما هناك آلهة أخرى غيره، قد بطل من الديانة اليهودية قبل العصر المسيحى، وهو أمر غير لائق تماماً للمذهب العام لكنيسة المسيحية، وكان الخل الذى اتخذه المترجمون هو تغيير اسم الإله القبلى إلى اسم الله خالق الكون، وبذا لا ينسبون الى إله المحبة تلك العقلية البهيمية التى منحها الرعاة الرحل لإلهم القبلى، بمل يودى إلى أن قراءة أسفار موسى الخمسة، تعنى الشعور بانطباع غامر، وهو أن واضعى هذه الأحاديث المنقولة لم يكن لديهم أى تصور أو أى فهم لله رب العالمين.

لقد كان عالمهم محدوداً بمصر وسوريا والفرات والصحراء، وإذا ما امتدت رقعة هذا العالم الى وراء لم يكن ذلك يهمهم. وكان شغلهم الشاغل فى ساعات يقظتهم هو أن تأكل الأغنام كفايتها، وأن يعتنوا بالخراف، ويحلبوا النعاج، ويوقفوا الذئب عند حدها، أما علم اللاهوت فلم يكن ليشغلهم البتة. وكانوا يحمدون يهوه ربهم كلما أصابهم خير، فإذا مسهم الضر جاروا وانقلبوا عليه. وهناك شك فى أن يكون دينهم قد ذهب الى أبعد من ذلك.

إن حياة الرعاة حياة مقفرة بصورة غير معقولة، خيمة أكبر قليلاً من سرير النوم، من غير ما إضاءة أو مصابيح، وكل السكان أميون ولا توجد أى أدوات للكتابة. وعند أمثال هؤلاء الناس يكون المبدأ أو العقيدة مستحيلاً، فالمعابد والطقوس الدينية تحتاج إلى المباني، ولا يمكن أن يتواجد اللاهوت عندما لا يستطيع أحد أن يقرأ أو يكتب.

وتتساءل مقدمة كتاب العهد القديم كيف كان يهوه الله الواحد إله اسرائيل وكيف أصبح بنو اسرائيل شعب الله من بين شعوب الأرض جميعاً؟ وتجيب أسفار موسى الخمسة: لأن الوعد المقدس قطع لاسرائيل». إلا أن هذه الاجابة ليست شافية، فان «الله اختار اسرائيل لأنه وعد بأن يختار اسرائيل».

ولقد أشيع أن صفات بنى اسرائيل الأقدمين كان صفات فريدة فى العالم القديم، وقيل أن إهتمامهم بالفقرء كان اهتماماً منقطع النظير. فالديانات مثل الديانة المجوسية والديانة الإسلامية تعرف القدرة الآلهية والقداسة والطهارة والصلاح. أما العدالة التى تخنو على الضعفاء والمنبوذين رحمة بأولئك الذين أهملتهم الدنيا - فهى جد أمر فريد فى ديانة اسرائيل^(٣). ويبدو لى أن هذا التعميم بالنسبة للدين الاسلامى هو تعميم مخطىء خطأ جسيماً، فإن الآية الثالثة عشر وما بعدها فى سورة البلد تصف السلوك الذى يرضى عنه الله بأنه «فك رقبة، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة. أو مسكيناً ذا متربة» وهكذا ينصف الاسلام الفقراء والضعفاء بحيث يراه بعض الكتاب العصريين على أنه ثورة الفقراء على الأغنياء.

ويظهر أن هذه المحاولات الطيبة لتبرير اختيار الله بتصوير بنى اسرائيل القدماء بصورة فاضلة فريدة فى عالم شرير هى محاولات لا تتفق مع الكتاب المقدس. ويطلبنا سفر التثنية فى التوراة الاصحاح ٦/٤ «فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب يهوه هذه الأرض الجيدة لتمتد لك لأنك شعب صلب الرقبة. إذكر لاتنسى كيف أسخطت الرب يهوه فى البرية».

وإذا كنا قد تعلمنا منذ نعومة أظفارنا أن بنى اسرائيل البدائيين فى سيناء كانوا «شعب الله»، فإنه يصعب علينا الآن أن نكون موضوعيين. وأستطيع بكل تواضع أن أسلم وأخضع للصورة المنطبعة فى ذهنى، لأننى وقد عشت مع مثل

(٣) جى ايرنست رايت «العهد القديم فى مواجهة يهوه».

هؤلاء الرعاة أجد أن قصة الخروج قصة حقيقة حية جدا، بل إنها قصة طبيعية لدرجة أنها تجبرني على تقبلها من غير حاجة إلى إيضاحها بالمعجزات أو الوساطة الآلهية أو شعب الله المختار.

وقبيل وصول بنى اسرائيل الى أريحا بفترة قليلة كان الفلسطينيون التدماء قد استقروا على السهل الساحلى الجنوبي، وكان هؤلاء الفلسطينين غزاة جاءوا عن طريق البحر من جزيرة كريت وأرخييل بحر إيجة. ويحتمل أنهم تعرضوا لغزو شعب فاتح من شعوب الشمال - الدارويين - فطردوا من أرضهم وديارهم، وقد وصلت جماعات أخرى منهم الى مصر ولبنان في نفس الوقت. وكان الفلسطينيون التدماء أكثر تقدما من بنى اسرائيل بصورة ملحوظة.

* * *

ويبدو أن سفر يشوع هو من نوع القصص الزاخرة بأعمال البطولة التي كتبت بعد ذلك بزمان طويل لتمجيد البطل، أما سفر القضاة فانه يروى قصة مختلفة وأكثر حقيقة وواقعية. فبعد الاستيلاء على أريحا، وهى قرية يبلغ سكانها أقل من ألفى نسمة وتغضى مساحة تقرب من ست هكتارات، وقد تحرك بن اسرائيل الى بروز فى الجبال المطلة على أريحا يؤدي إلى بيت إيل، ولا يزال هذا البروز هو الطريق السهل الوحيد عبر الجبال بين الصخور الممتدة شمالا وجنوبا. والجزء الأعلى من سلسلة الجبال الممتدة من بيت إيل (بيتين الحديثة) الى جبعون (الجيب الجديدة) هو أكثر استواءا وانفتاحا عن أكثر سلاسل الجبال الممتدة من الخليل الى «شكيم»، ومن ثم فقد كان يضم قرى جديدة. وكان يسكن بعض هذه القرى الجبعونيون الذين توصلوا إلى اتفاق مع يشوع عندما كان فى أريحا. وكان فى مواجهة انحدار البروز المؤدى إلى بيت إيل طريق سهل نسبيا عبر بيت حورون (بيت عور الآن) الى السهل الساحلى. وتقع جبعون على رأس المنحدر الى

بيت حورون، ومن ثم كانت لها أهمية استراتيجية. ويشكل هذا السهل الصغير
الآهل بالسكان حائلا حصينا بين الجبال الصخرية الجرداء الضاربة إلى الجنوب
وبين الأقليم الممتد شمالا إلى شكيم (نابلس الحالية).

ويذكر سفر يشوع الاصحاح العاشر أن ملك أورشليم أدوني صادق استنجد
بحكام منطقة الخليل ومنطقة لخيش وعمجلون في السفوح الغربية ثم مضى
لمهاجمة جبعون مركز المواصلات الهام التي كانت ببساطة قد باعت الممر بعقدها
اتفاقا منفردا مع بنى اسرائيل، الا أن يشوع هب لمساعدة حلفائه الجدد وهزم رؤساء
القبائل الجنوبيين مطاردا أياهم على منحدر حورون. وتوصف قبائل الخليل هذه في
سفر يشوع الاصحاح العاشر بأنها من الأموريين. واغتنم يوشع فرصة هذا الانتصار
فاكتسح الاقليم الجبلى إلى الجنوب.

وقبل هذا الحادث، أو حوالي ذلك الوقت. قامت قبيلة بنو القينى، وهي
قبيلة حمى موسى من أتباع كالب، بغزو الخليل من الجنوب، ولعل مما يذكر أن
هذه القبائل كانت شبه رعاة في منطقة بير السبع - سيناء، ومن الأرجح أنها كانت
تعبد يهوه قبل خروج اليهود من مصر، ومع أنها لم تكن حاضرة عند طور سيناء
إلا أنها اندمجت فيما بعد في قبيلة يهودا التي إحتلت منطقة الخليل.

وبينما نرى أن سفر يشوع يصفه بأنه غزا كل سلسلة الجبال من الخليل إلى
شكيم، وبأنه مسحها وقسمها بين الأسباب، يقص علينا سفر القضاة قصة أكثر
واقعية حيث يصور الأسباب المختلفة وقد قام كل سبط منها بعمل مستقل في
محاولة منها للاستيلاء على منطقة خاصة بها. وغالبا ما تم ذلك بالاتفاق مع
السكان الموجودين في المنطقة. فعلى سبيل المثال، يذكر الاصحاح الأول / ٢٩ من
سفر القضاة، «واقرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر فسكن الكنعانيون في
وسطه في جازر». «ولم يطرد أشير الكنعانيين فسكن الاشيريون في وسط

الكنعانيين سكان الأرض». وفي أغلب الترجمات يقال أن سكان البلاد كانوا يجبرون على أعمال السخرة، إلا أن رونالد توكس يترجم ترجمة أكثر دقة فيقول أنهم كانوا تحت الجزية^(٤).

ويعتقد أغلب الباحثين العصريين أنه حدث قتال على أضييق نطاق، بل يذهب البعض إلى القول بعدم وقوع قتال البتة شمال بيت ايل في هذه المرحلة. فقد تسلل بنو إسرائيل إلى البلاد وتوصلوا إلى تفاهم مع السكان. ولعل الأمر أن يكون كذلك في بعض الحالات، لأن القرويين كانوا يفضلون أن يدفعوا الجزية للرعاة ويصبح في إمكانهم زرع حقولهم. ومثل هذه الاتفاقات قد تواجدت في الشرق الأوسط منذ أمد بعيد جداً، وهي في الواقع لم تبطل وتلغى إلا في العشرينات فقط. والرعاة الرحل بالرغم من قلة عددهم إلا أن مقدرتهم على خلق المتاعب جد كبيرة، أما الفلاحون الذين كانوا يريدون أن ينتشروا في حقولهم ليعملوا بها فقد كانوا غالباً على استعداد لدفع الجزية في مقابل ممارسة نشاطهم دون أن يمسه أحد.

ويفترض الباحثون في أي مجتمع مستقر منظم (حتى ولو كان تحت حكم سليمان، بل في أوروبا الحديثة) درجة كبيرة من التنظيم أكثر مما عساه أن يكون في مجتمع رعاة رحل ويقولون أن اتحاداً فيدرالياً بين إثنتي عشرة قبيلة يستلزم بالضرورة عقد معاهدة. أما سفر يشوع فيصور يشوع بأنه كان يقسم الأرض ويقسم الحدود بين الأسباط - وتلك آراء مألوفة في مجتمع زراعي مستقر إلا أنها لا تتفق مع حياة الرعاة الرحل. ومثل هذه العبارات مثل كثير غيرها مما جاء في أسفار موسى الخمسة لا بد وأنها كتبت بعد مضي عدة قرون. وأحسن وصف لمجتمع القبائل الرحالة، هو ما جاء في آخر سفر القضاة «في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل، كل واحد عمل ما حسن عينيه».

(٤) ترجمة الكتاب المقدس، لرونالد توكس.

ولقد رأينا أن مصر كانت تتدخل مرارا في فلسطين قبل خروج اليهود، بل إنها في الواقع حكمت سوريا طوال فترات عديدة. وكيفما كان، فقد حلت الفوضى بمصر قبيل غزوة نبي اسرائيل مباشرة لفلسطين، وكان ذلك من جراء انهيار الأسرة التاسعة عشرة وانسحاب مصر من فلسطين.

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، لم تكن هناك قوة موحدة تقوم بتنظيم جيش واحد بل ترك كل سبط صغير أو كل قرية تدبر أمر دفاعها عن نفسها على طريقته. وفي غيبة الحكومة المصرية حصل الرعاة الرحل على الميزة الخارقة لخفة الحركة. فقد كانوا يستطيعون، وقد اعتادوا على الأسفار بقطعانهم وعائلاتهم عبر الصحارى والقفار، وأن يتنقلوا كما تنتقل الفرقة خفيفة الحركة. أما السكان المستقرون والموزعون بين المدن والقرى، ودون أن يكون لديهم قائد مشترك يأترون بأمره وينتظمون تحت لوائه، فقد كانوا غير قادرين على وضع قوة موحدة في الميدان. وهكذا استطاع الرعاة الرحل رغم قلة عددهم، أن يحرزوا دائما التفوق العددي في أية نقطة واحدة.

وليست هناك بطبيعة الحال أرقام للتعداد، وبالتالي فإن تقديراتنا ليس أكثر من حدس وتخمين ولكن يمكن القول بأن سكان فلسطين كانوا قرابة نصف مليون، وربما كانت الكثرة الغالبة من هؤلاء السكان في السهل الساحلي، إلا أنه يجدر بنا أن نختص المناطق الجبلية بمائة ألف نسمة، وكان عند بني اسرائيل خمسة آلاف مقاتل فقط مما يجعلهم قلة قليلة إذا ما قورنوا بالسكان المستقرين في المدن والقرى. ومن الأرجح أن سكان أريحا، المقاتلون منهم فقط، كانوا أقل من ألفي رجل، وكان في إمكان الغزاة أن يحشدوا في مواجهة هؤلاء الرجال خمسة آلاف مقاتل. وهكذا استطاع بنو اسرائيل بتقدمهم الجماعي أن يكتسحوا، على التعاقب، كل واحدة من المدن الصغيرة، أو كل قبيلة على حدة.

وقد حدثت أن عشت لسنوات عديدة في منطقة جنوب العراق حيث لمست أن ظاهرة مماثلة قد حدثت. إن المؤرخين العرب القدامى يذكرون أن قبيلة من الرعاة الرحل يطلق عليها اسم «منتفق» كانت تعيش في الصحراء جنوب نهر الفرات في القرن الثاني عشر بعد الميلاد. وفي سنة ١١٢٤ ميلادية قامت هذه القبيلة بغزو البصرة كمثل. ومن الأرجح أنها تمكنت من عبور نهر الفرات في القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر إلى الأرض المنزرعة. وهكذا استطاع الرعاة الرحل وعددهم أقل بكثير جدا من عدد السكان المستقرين أن يغزوا القبائل الصغيرة واحدة بعد أخرى. وإذا كانوا يضرّبون خيامهم على حافة الأرض المنزرعة أو في الأرض البور، أو بين القرى فقد أجبروا المزارعين على أن يدفعوا لهم الجزية.

وحوالى سنة ١٦٠٠ ميلادية كان المنتفقون هم حكام المنطقة بلا منازع وكانوا يذكرون وكانهم الأمراء والحكام. وقد ثاروا على الحكم العثماني وحارب المزارعون تحت إمرة «أسرة» المنتفق. ولا زال هؤلاء الرعاة الأولون في خيامهم ينظرون بشيء من الكبرياء والتفوق على رعاياهم. وفي سنة ١٩٢٢ ذهبت بنفسى لأعيش في منطقة المنتفق، وكان الرعاة لا زالوا يعيشون في خيامهم يجمعون الإتاوات من المزارعين، وكان هذا بعد انقضاء ما يقرب من خمسمائة عام منذ قدومهم من الصحراء، ولم يتعلم هذا النظام إلا في الأربعين سنة الماضية فقط.

وكانت قبيلة بن صقر رعاة رحل في الحجاز إبان القرن الرابع عشر بعد الميلاد، وقد قيل أنهم كانوا يدفعون الجزية للمماليك في مصر. وفي القرن الخامس عشر أو السادس عشر ظهروا في الصحراء في شرق الأردن، وهم الآن وبعد مضي أربعمائة سنة منذ وصولهم، يمتلكون القرى على امتداد حافة الصحراء ويفلحون الأرض مستخدمين العمال الزراعيين من المنطوق المستقرة. ولا يزال أغلب بنى صقر بدأوا يسكنون الخيام إلى هذه الأيام.

ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى شبيهة حيث نرى في كل حالة أن عدد الرعاة الرحل كان جد صغير إذا ما قورن بعدد السكان المستقرين، إلا أن خفة حركتهم مع تماسكهم أتاحت لهم أن يغزوا المزارعين جماعة في إثر أخرى، ومن ثم كانوا غالباً ما يطلقون على المنطقة التي يغزونها إسم قبيلتهم، رغم أنهم من الناحية السلالية يشكلون جانباً ضعيفاً من السكان. كما أنهم لم يتخذوا مهنة الزراعة بسرعة، بل كانوا يعيشون في خيامهم لسنين طويلة معتمدين على الأناوات التي يجمعونها من القرويين.

ويبدو لي أن غزو بني إسرائيل لفلسطين هو واحد من هذه الأمثلة التي لا تدخل تحت حصر منذ عصر ما قبل التاريخ إلى وقتنا هذا: وإذا صحح هذا الرأي فإن غزو بني إسرائيل لم يكن تدخلاً إلهياً فريداً لصالح مجموعة من الرعاة الرحل الذين فضلهم الله رب العالمين على خلقه أجمعين.

ويوجز سفر القضاة الأصحاح الثالث/ ٥، الموقف الناجم عن الغزو كالاتي:
« فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوبيين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم» .

وقد تشير عبارة «سكنوا» بينهم» إلى أنهم كانوا يضربون خيامهم بين القرى كما كان المنتفقون يفعلون في العراق، كما تدل ضمناً هذه العبارة أيضاً على أن بني إسرائيل كانوا أقل عدداً من «أهل البلاد» .

وقد علق العلماء الباحثون على حقيقة بأنه «في حين يظهر أنه كان هناك قتال جنوب الخط الممتد من أريحا إلى بيت حورون، فإنه يبدو أن السلسلة الجبلية الممتدة من بيت إيل إلى شكيم قد اخترقت دون معركة. ويستنتج البعض أن القبائل في هذه المنطقة كانوا على شاكله بني إسرائيل، وأنهم انضموا إليهم طائعين. وهذا استنتاج محتمل من غير ماشك، حيث رأينا أن بني إسرائيل في مصر كانوا جمعا مختلطاً.

ويجوز، بشكل سوى، أن يكون هؤلاء الفلاحون قد آثروا دفع الجزية نظير السماح لهم بالاستمرار في عملهم. وبناء على ماجاء في سفر القضاة الاصحاح الأول، استطاع الأموريون أن يصدوا الغزاة في بعض الأحيان إلا أنهم كانوا يجبرون في أحيان أخرى على دفع الجزية، وأحيانا ما استقروا سوريا. وقد بنى معبد لعبادة يهوه في شيلوه حيث أودع تابوت يهوه.

ولاتعنى كلمة «القضاة» بالطبع موظفين قضائيين بل تعنى قادة حربيين. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، لم تقع حرب مع الكنعانيين على امتداد الجبل فقد اندمج بنو إسرائيل وإياهم، وإنما هب قادة الحرب كلما هاجم الجيران الخارجيون منطقتهم. وعادة ما كانت تشتبك في هذه الحملات المحلية قبيلة اسرائيلية أو أكثر تحت إمرة رئيس عسكري محلي. وتطلق أغلب الترجمات الانجليزية على هؤلاء الرؤساء العسكريين إسم القضاة. وما لم تحدث مثل هذه الأزمات كان «كل واحد عمل ما حسن في عينيه» وهذه هي المثالية للمجتمع والحياة في رأى معظم رجال القبائل.

خاتمة

يبدو محتملاً أن:

- ١ - كان إله إسرائيل اعتباراً من الخروج من مصر وصاعداً هو يهوه الذى عبد مسبقاً في سيناء وأماكن أخرى بالأخص من سكن الصحراء.
- ٢ - كان الرعاة الرحل غير قادرين على عمل الصور أو حملها وبالتالي لم تتضمن عبادة يهوه الصور والأشكال.
- ٣ - حظى موسى بثواب إلهي روحاني يحتمل أنه من روح القدس التى تتجلى لكل هؤلاء المستعدين لخدمة الرب.

- ٤ - وكيفما كان فقد فكر رجال القبائل من بني اسرائيل في يهوه كمحارب سوف يقودهم شخصيا الى النصر. وقد كانوا ذوا حظ عظيم إذ «اختارهم» مثل هذا الآله البارع فى فنون القتال.
- ٥ - هذه القصة المجردة المنطقية الطبيعية، إذا جاز لى أن أقول ذلك بكل خضوع تبدو لى وكأنها كانت خافية علينا لأن المترجمين جعلوا ترجمة يهوه «الرب».

الفصل الرابع أيام مجيدة

ليس هناك سبب يدعو إلى الشك في أن الايمان بعقد ميثاق بين يهوه وداود وقد حدث منذ وقت مبكر جدا. وقد أفلحت قطعة من الفلسفة اللاهوتية اليهودية في اقرار مزاعم آل داود، فأصبحت تأكيدات الاختيار اللاهوتي لجبل صهيون مقرا ليهوه، واختيار آل داود لتقديم ملوك بني اسرائيل، مظاهر رئيسية لتقاليد أورشليم الدينية.

آر. أى. كليمنتس، «ابراهيم وداود»

لأنستطيع أن نتطلع إلى أى من الملوك والرهبان بكثير من الإعجاب، أو الكبرياء، إلا أن العالم بأسره سوف يذكر دائما أسماء عاموس، وهوشع، يونان، ميخا.. إن روح الاستقلال الأخلاقية الباسلة الخالدة هي التي نكرمها في الأنبياء، لا الاستقلال السياسى الذى يحارب الناس من أجله دون تهية كدفاع عن النفس أحيانا، أو حربا عدوانية أحيانا أخرى لتيل مزيد من الأرض، أو للتحكم فى مزيد من الرقيق، أو للاثراء على حساب الجيران.

موشى منوحين، «تدهور الديانة اليهودية فى هذا العصر»

الفصل الرابع

جاء الغزاة الفلسطينيون القدماء (شعب البلست) عن طريق البحر من جزيرة كريت وأرخبيل بحر إيجة حيث وطموا أنفسهم في السهل الساحلى، تماما كما وطمد بنو اسرائيل أنفسهم في المناطق الجبلية. وصناعيا كانوا أكثر تقدما من بنى اسرائيل فقد كان لديهم الحديد الذى استخدموه مع النحاس والبرونز لصنع عجالات القتال والسيوف والرماح وأسلحة الحارث، وقد اندمجوا بسرعة مع أهالى البلاد كما فعل بنو اسرائيل مع سكان الجبال. وبعد أن أحكم الفلسطينيون سيطرتهم على السهل الساحلى الجنوبى اتجهوا الى مرج ابن عامر (سهل زبولون)^(١). ولكى يسترضوا السكان الوطنيين عبدوا الإله المحلي «داجون». وفي منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد كان الفلسطينيون يشقون طريقهم شمالا فى داخل المنطقة الجبلية.

وبعد عام ١٠٥٠ قبل الميلاد بقليل وصلت قوة من القلستينيين إلى أفيق على سفوح التلال، وطرد الإسرائيليين بعد أول اشتباك فأرسلوا فى طلب تابوت يهوه الذى كان محفوظا فى شيلوه على بعد سبعة وعشرين ميلا^(٢). وعلى الرغم من هذا التدبير هزمت اسرائيل هزيمة منكرة واستولى الفلسطينيون على تابوت يهوه واجتاحوا بعدئذ النصف الشمالى من المنطقة الجبلية ودهروا معبد «شيلوه» وكانت قوتهم على غرار قوة بنى اسرائيل مؤلفة من مجندين من القبائل لا يأخذون أجرا، ويمكن استخدامهم فى الحملات الحربية القصيرة، ولكن كان من الضرورى بعد ذلك أن يصرفوا أنفسهم لمتابعة اشغالهم المعتادة، ولم يكن لديهم جيش نظامى لحراسة المناطق المحتلة، ولكن يبدو أنهم تركوا قليلا من الحصون الصغيرة فى المناطق الجبلية.

(١) خريطة (٥).

(٢) سفر صموئيل الأول الاصحاح ١.

وأخذ الفلسطينيون تابوت يهوه إلى «أشدود»، إلا أن أهل هذه المدينة سرعان ما أصابتهم النزلات والأورام، مما يحتمل أن تكون أعراض الطاعون الدملي، فنقل التابوت إلى «جت»، إلا أن سكان هذه المدينة أصيبوا أيضا بالأورام. وعلى سبيل استعطاف يهوه أعاد الفلسطينيون التابوت وأرسلوا معه تقدمه تمثلت في خمسة بواسير من ذهب وخمسة فيران من ذهب^(٣). ولعل مما يسترعى الانتباه أن الفلسطينيين ربطوا بين الطاعون الدملي والفتران، في حين أن أوروبا لم تتمكن من اكتشاف العلاقة بين الاثنين إلا بعد انقضاء ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة.

وفي هذه الضائقة، علا صيت النبي شموئيل (صموئيل)، وكان رجلا على خلق عظيم، عاش في الرامة حيث بنى هيكلًا لعبادة يهوه بعد أن دمرت «شيلوه». واذ دعا ربه يهوه أن يساعده، أثار في بنى إسرائيل روح الحمية، إلا أنه لم يكن هناك شخصية رئيسية لتتولى قيادتهم. ولم يشترك كثير من القبائل في معركة أفيق، أما شموئيل فكان قد بلغ من الكبر عتيا، كما كان واضحا أن أبناءه غير قادرين على تولي أعباء القيادة. وترتب على ذلك أن ذهب شيوخ بنى إسرائيل الكبار إلى شموئيل حيث طالبوا بملك يتولى قيادتهم. ويعرض سفر صموئيل الأول الاصحاح الثامن تحذير النبي للشعب من رسامة ملك عليهم، إلا أن الفصل التالي يعرض شموئيل وهو يتلقى الأمر من يهوه لينصب عليهم ملكا.

وفي الاصحاح الثاني عشر يعود الموقف السابق للظهور فيقول شموئيل للشعب «وترون أنه عظيم شركم الذي عملتموه في عيني يهوه بطلبكم لأنفسكم ملكا»^(٤). إن هذه الآراء المتعارضة التي يحتمل أن تكون قد كتبت بعد مضي قرن

(٣) سفر صموئيل الأول الاصحاح ٦، ٥.

(٤) سفر صموئيل الأول الاصحاح ١٧/١٢.

من الزمان تبدو وكأنها تمثل وجهة نظر عجوز من رجال الاسباط يتحرق شوقا الى حرية الرعاة القديمة، بينما تمثل، من جهة أخرى، وجهة نظر ملكي، ربما من أتباع سليمان، سعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحيد الملكية. ثم جاء مدون بعدهما بفترة وجمع وجهتى النظر المتعارضتين.

كان شاول فى ذلك الوقت فتى يافعا رائعا، فلما رسمه سموئيل ملكا بدأ بهزيمة العمونيين، إلا أنه لم يستطع أن يجابه الفلسطينيين فاستخدم معهم تكتيكات حرب العصابات. وبتبئنا سفر سموئيل الأول الاصحاح ١٥/١٣ أنه كان تحت إمرته ستمائة رجل فقط، وأنه استطاع بفضل مبادأة ابنه «يوناثان» فى المقام الأول أن يهزم قوة فلسطينية فى جبعة على بعد خمسة أميال شمال أورشليم. ويبدو أن هذا النجاح زرع قبضة الفلسطينيين على المنطقة الجبلية شمال أورشليم وعزز موقف شاول.

وعندئذ جاء سموئيل الى شاول وأخبره بأن يهوه يريد أن ينتقم من العماليق الذين قاموا بالاغارة على بنى اسرائيل منذ مائتى سنة عندما خرجوا من مصر. وقال سموئيل أن يهوه قد أمر بذبح جميع الرجال والنساء والأطفال وبذبح جميع الحيوانات الموجودة على قيد الحياة من الثيران والأغنام والجمال والحمير. وهزم شاول العماليق وقتل جميع الكائنات الحية بغض النظر عن السن أو الجنس. وذلك باستثناء رئيس القبيلة الذى أخذه أسيرا، كما أبقى على خيار الأغنام واليقر والخراف.

وجاء سموئيل لمقابلة شاول واستنكر عدم إطاعته للأوامر، لأن أجاج ملك العماليق كان لا يزال حيا، ولأن الحيوانات لم تذبح كلها، ثم قال «لأنك رفضت كلام يهوه رفضك من الملك». وهنا أرسل سموئيل فى طلب «أجاج» فلما جاء ذبحه بيديه. ويعتبر هذا الحادث واحدا من الأحداث التى يواجه بها المسيحيون لأن أغلب الترجمات الانجليزية تقول أن الرب أصر على المذبحة.

وفي «ديون» (ديان الحديثة) عثر على نقش «ميشع» الأثرى الخاص بملك مؤاب، وقد نقشت عليه عبارة مؤداهبا أن «كموش» إله مؤاب غضب لأن المؤابيين أهملوا عبادته، ونتيجة لذلك سمح لاسرائيل، بأن تغزو معظم إقليمهم، إلا أنه عطف على مؤاب فيما بعد فعقد لهم النصر واستولوا على «عطاروت» و«نبو» وذبخوا كل سكانهما قربانا لكموش.

وكتب فريتسن قائلاً: «يستطيع المرء أن يدرك أن اعتقاد المؤابيين في إلههم كان يوازى اعتقاد بنى اسرائيل فى إلههم». ويضيف ملاحظة بأن «أبحاث بريسكل مانز» تشير الى أن هذه المذبحة الجماعية لم تعرف فى الدنيا القديمة (على حد علمنا) - باستثناء إسرائيل - إلا فى مؤاب فقط. وإذا كان هذا البيان صحيحاً، فإنه يتضح أن اسرائيل ومؤاب كانتا أكثر وحشية من أى مجتمع آخر غيرهما. فكيف نوفق، والأمر كذلك، بين هذا الرأى والرأى الذى عبر عنه الدكتور دجى. أرنست رايت، حين قال «إن العدالة التى تخنو على الضعفاء والمنبوذيين كانت سجية خاصة منفردة فى بنى اسرائيل الأقدمين؟».

وتوضح الاكتشافات الأثرية فى «أوجاريت»، بالقرب من اللاذقية فى سوريا، أن الأغنام والثيران كانت تقدم قربانا فى ذلك المكان، كما كانت الخال فى اسرائيل. وكان يتحتم أن تكون هذه الحيوانات سليمة دون عيب كما كانت الضحايا تحرق على النحو الذى كان معمولاً به فى اسرائيل، وتواجد هناك موظفون للمعبد وكان من بينهم كاهن كبير، وقد تمثلت فى «أوجاريت» أيضاً سمة التبجيل و«الارتباط الحبيب باللاهوت»^(٥).

وهكذا نرى، على السطح على الأقل، أن ديانة بنى اسرائيل الأقدمين كانت فى بعض مظاهرها أشبه بديانات الأم المحيطة بهم، إلا أنه ينبغى لنا أن نتذكر أن

(٥) توماس. سى. فريتسن، «ديانة إسرائيل القديمة».

ديانة اسرائيل نفسها كانت عرضة للتغيير الدائم، لذا فإن أقصى ما يمكننا أن نعمله هو أن نحاول وصفها في وقت محدد. إن تقديم القرابين من الأغنام والثيران لا يمكن أن يدخل إلا في ظروف زراعية لأن الثيران لا يستطيع العيش في الصحراء، لذا فمن الأرجح أن تكون هذه القرابين منقولة عن «شعب البلاد».

وقد تميزت الديانة في أيام الصحراء بغياب الصور، وبالتكريس الكامل ليهوه وبغيبة الجنس في صفات يهوه. وعلى أية حال، فالاحتمال أن هذه كانت مميزات جميع ديانات الصحراء البسيطة في ذلك الوقت، وربما كان بنو اسرائيل أكثر إخلاصاً في عبادة يهوه مثل العمونيون في عبادة «كموش» أو الفلسطينيون في عبادة «داجون». ولعل هذا الإخلاص كان هو البذرة التي جاء منها التوحيد، إلا أن النتيجة التي ترتبت على الإخلاص، كانت التعصب الذي لم يشارك بنو اسرائيل فيه إلا المؤابيين على حد قول فريتنس، إن صح قوله.

وكان هذا التعصب خليقاً بأن يجر المسيحية إلى شدوذ غير عادي، فهي وقد سلمت بأن العهد القديم أوحى به كما أوحى بالعهد الجديد. فإنها كانت ستصبح ديانة جائرة، رغم أن وصايا المسيح كانت على عكس ذلك على خط مستقيم. وأنا نرى دوام هذا التعصب بعينه في اسرائيل الحديثة.

وبهذا التأمل يمكن إدراك التباين في وجهة النظر التي أبدتها وليام نيل حيث يقول: «إن بنو اسرائيل شعب عجيب مختلف عن أي شعب آخر، لأن صلاتهم وعبادتهم تجعل لهم صفة فريدة تميزهم عن أي شعب غيرهم بأنهم العدة المختارة لمشيئة الله»^(٦) وعندما نصل إلى نهاية القصة، في قيام اليهودية الربانية وقيام المسيحية، يمكننا أن ننظر إلى الوراء لنرى القصة كاملة ونعجب من تطورها، إلا أنه يبدو لي أن من الخطأ أن نصور الغزاة الاسرائيليين البدائيين بتلك الصورة الصالحة.

(٦) وليام نيل، «تعلق على الكتاب المقدس».

من هذه المرحلة وصاعدا تصبح المسألة التي تزداد الحاحا هي مسألة اندماج أولئك المنحدرين من رعاة سيناء مع المواطنين الفلسطينيين. وتظهر الفقرة التالية في الصفحتين اللاحقتين للعبارة المستشهد بها أنفا من كتاب ويليام نيلب: «أما الآن فقد تغير الموقف، فإن الكنعانيين الذين كانوا ساميين»^(٦). على شاكلة بنى اسرائيل، والذين كانوا قد وصلوا قبل بنى اسرائيل بفترة بسيطة، لم يعد ذكرهم يأتي باعتبارهم أعداء أو منافسين، فقد اندمج الشعبان وصار الكنعانيون وبنو اسرائيل شعبا واحدا، واكتمل الامتزاج بينهما بالتزاوج والتعاهد والمتاجرة، وصارت اسرائيل الشريك البارز في الأعمال المالية والقيادة العسكرية. وفي عملية الامتزاج هذه تحول كثير من العادات الكنعانية إلى عادات اسرائيلية، واندمج بصفة خاصة، كثير من الديانة الكنعانية في ديانة يهوه».

وتوافق الكثرة الغالبة من علماء العهد القديم العصريين على هذه العبارة الواضحة. ان الرعاة الغزاة في أيام يشوع كانوا خمسة آلاف رجل فقط، وكان الاندماج الذي حدث بين بنى اسرائيل وسكان المناطق الجبلية (ذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى السهل الساحلي) امتزاجا كنعانيا أكثر منه اسرائيليا وذلك من وجهة النظر السلافية (العرقية).

وقد تقوض مركز شاول على يد شموئيل الذي رسم داود ملكا منافسا، وقد جأرد داود بالشكوى بعد أن جد شاول في اقتفاء أثره قائلا «قد طردوني اليوم من الانضمام الى نصيب الرب (يهوه) قائلين اذهب أعبد آلهة أخرى»^(٧). ويصعب

(٦) كان الفلسطينيون سنة ١٢٠٠ ق.م، كما رأينا شعبا من أجناس شتى، فكان بعضهم من آسيا الصغرى أو اليونان أو آسيا الوسطى، وربما كان اسم الكنعانيين اصطلاحا مشتركا للفلسطينيين دون أن يكون له أى معنى سلافى.

(٧) سفر صموئيل الأول (١٩/٢٦).

على ضوء هذه العبارة أن نزعّم بأن داود (وناهيك عن ابراهيم) كان موحدًا بالله.

وقد انتهى الأمر بقتل شاول خائبًا، مريضًا، في معركة مع الفلسطينيين على جبل جلبوع^(٨). وقبلت يهودا وحدها داود ملكًا، وحكم متخذًا مقره في الخليل طوال سبع سنوات ونصف سنة بينما حكم واحد من ذرية شاول في الشمال، وقد احتفظ داود السياسي الواسع الحيلة، بعلاقات الود مع الفلسطينيين وعندما شن الفلسطينيون الحرب على بني إسرائيل - في الحملة التي قتل فيها شاول - طلب أخيش ملك جت من داود أن يمضى معه إلى الحرب.

ويوضح هذا الحادث أن يهودا التي تضم قبائل القينيين والقينيزيين وقبائل أخرى كانت متميزة من قبل عن القبائل الشمالية، بل إنها كانت على أهبة الاستعداد لتنضم إلى الفلسطينيين ضد القبائل الشمالية، وحتى بعد أن وحد داود الشمال والجنوب بقي الاختلاف قائمًا بينهما.

وقد ظل داود في الخليل بضع سنوات في حرب مع «إيشبوشت» ابن شاول، وفي النهاية انضم «افنير بن نير» قائد جيش إيشبوشت إلى داود إلا أنه قتل بيد يوباب قائد جيش داود الذي رأى فيه منافسًا خطيرًا له. وبعد ذلك اغتيل إيشبوشت وخضعت قبائل الشمال لداود وكان ذلك حوالي سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد. وقد حكم داود ثلاثة وثلاثين عامًا.

كانت مواهب داود خارقة، فقد كان قائدًا متمرسًا، واستراتيجيًا موهوبًا وسياسيًا فذا. وطالما بقي داود في الخليل مشتبكًا في حرب مع ابن شاول، كان من دواعي سرور الفلسطينيين أن يقدموا له العون، إلا أنه عندما وحد إسرائيل أدرك الفلسطينيون أن تفوقهم أصبح مهددًا فهاجموه، إلا أنه استطاع أن يصد هجومهم.

(٨) خريطة (٥).

وعلى الرغم من مضى ٢٥٠ سنة منذ غزو يشوع، فقد ظلت أورشليم فى حوزة اليبوسيين وكانت المدينة بوجودها على حدود يهودا الشمالية، بالإضافة إلى أن الجبعونيين والمدن غير الاسرائيلية الأخرى فى السهل حتى بئروت وبيت إيل^(٩) كانت تعزل يهودا عن القبائل الشمالية. وفضلا عن ذلك، كانت لأورشليم سمعتها بأنها حصن لا يقهر. وقد رأى داود أن أورشليم بمركزها المتوسط خليقة بأن تكون عاصمة ممتازة لاسرائيل المتحدة، كما كان لها أيضا ميزة «الحياد» بين يهودا والشمال، لذا استولى داود على أورشليم ونقل مقره إليها، إلا أن اليبوسيين ظلوا يشكلون الأغلبية فى المدينة كما ظلوا كذلك أيام السبى البابلى. وكان لليبوسيين تقليد مرعى يرجع إلى ثمانمائة سنة على الأقل، ذلك هو تقليد الملوك الكهنة. ويذكر (سفر التكوين الاصحاح ١٧/١٤ - ٢٤) ملكى صادق ملك شاليم كاهنا للرب الأعلى الذى كان يطلق عليه اسم «العليون». ويبدو أن هذا التقليد اليبوسى هو الذى أوحى بفكرة داود ومبايعته الخاصة ليهوه.

ولكى يزيد داود من سمعة عاصمته الدينية جلب إليها التابوت الذى كان مهملا فى زوايا النسيان بإحدى القرى منذ أعاده الفلاسطينيون. وأوحت الدعاية الملكية بأن يهوه عقد عهدا خاصا مع داود كى يتحكم أسرته الى الأبد. وزعم أن أورشليم المدينة اليبوسية هى المقر الخاص ليهوه. ويتردد ذكر ذلك فى المزامير^(١٠) وفى مواقع أخرى وكان لهذه الدعاية دور فى تغيير تاريخ العالم، إلا أن القبائل الشمالية، فى ذلك الوقت، لم تخدع بهذه الدعاية، وظلت مخلصا لمعابدها المحلية القديمة وعملت على التقليل من شأن معبد داود (الجديد) فى أورشليم.

وإذ عزز داود مركزه على هذا، النحو شرع فى فتوحاته فهاجم مؤاب أولا ثم تقدم صوب آرام ملك دمشق وأقام حكاما وحامية فى المدينة، وعند عودته الى

(٩) خريطة (٤).

(١٠) المزامير ٧٢ و ٧٦ (٦٧ - ٧٢) و ٨٧ و ٩٧، (٩) و ٩٩ وأخرى.

أورشليم هزم قبائل الأدوميين جنوب البحر الميت وعين عليهم المحكام، «وكان يهوه يخلص داود حيثما توجه» (١١).

وكان العمونيون الضحية التالية لسياسة داود التوسعية، وبينما كان الجيش يحاصر عمون (عمان الحالية) اغتصب داود بتشيع زوجة أوربا الحثي الذي كان غائبا في الحرب، وقد أرسل الملك أوامره الى يوبأ قائد الجيش ليدير أمر قتل أوربا، وهكذا تزوج داود أرملته، أى أن بتشيع التي صارت أم سليمان كانت امرأة حثية، وكانت جدة داود من المؤابيين.

وقد كان بنو اسرائيل حتى ذلك الوقت حشودا قبلية تخارب أفضل في مناطقها الجبلية. ولكن لكي يغزو داود مدينة دمشق أنشأ جيشا نظاميا من المرتزقة، وكان أغلبهم من الشريتيين والبليثيين الذين يبدو أنهم من الفلسطينيين، إلا أنه يزعم أنه استخدم الغاليين، كما استخدمت اسرائيل لأول مرة قوة من العجلات الحربية.

وكان الاسرائيليون والكنعانيون في المنطقتين الجبلية شعبا واحدا في ذلك الوقت. والواقع أن يهوه غالبا ما كان يطلق عليه اسم «بليعال»، الا أن داود كان قد غزا أقاليم أخرى وعمل على تشجيع سكانها على الاندماج في بني إسرائيل. وكان من بين أتباعه أهيملش الحثي، ودعيل الأدومي، وأوربا الحثي. وقد احتفظ الفلسطينيون باستقلالهم الا أنه كان يسرهم أن يعملوا جنودا مرتزقة في جيش داود، ولم يستوطن بنو اسرائيل المناطق التي فتحت - أدوم ومؤاب ودمشق.

وكان نهوض اسرائيل المفاجيء «إلى هذه المكانة السائدة بين جيرانها داعية لتحويل بني اسرائيل، فقد تقدموا الى دمشق وأدوم بعد أن كانوا من قبل جماعة من القبائل الجبلية المتخلفة. وجاء المواطنون من دمشق وأدوم الى أورشليم لتقديم

(١١) سفر صموئيل الثاني الاصحاح ١٤/٨.

ولائهم كما توغل داود أيضا خمسين ميلا على الساحل جنوب حيفا حيث يمتد طريق التجارة الرئيسي من دمشق إلى مصر^(١٢).

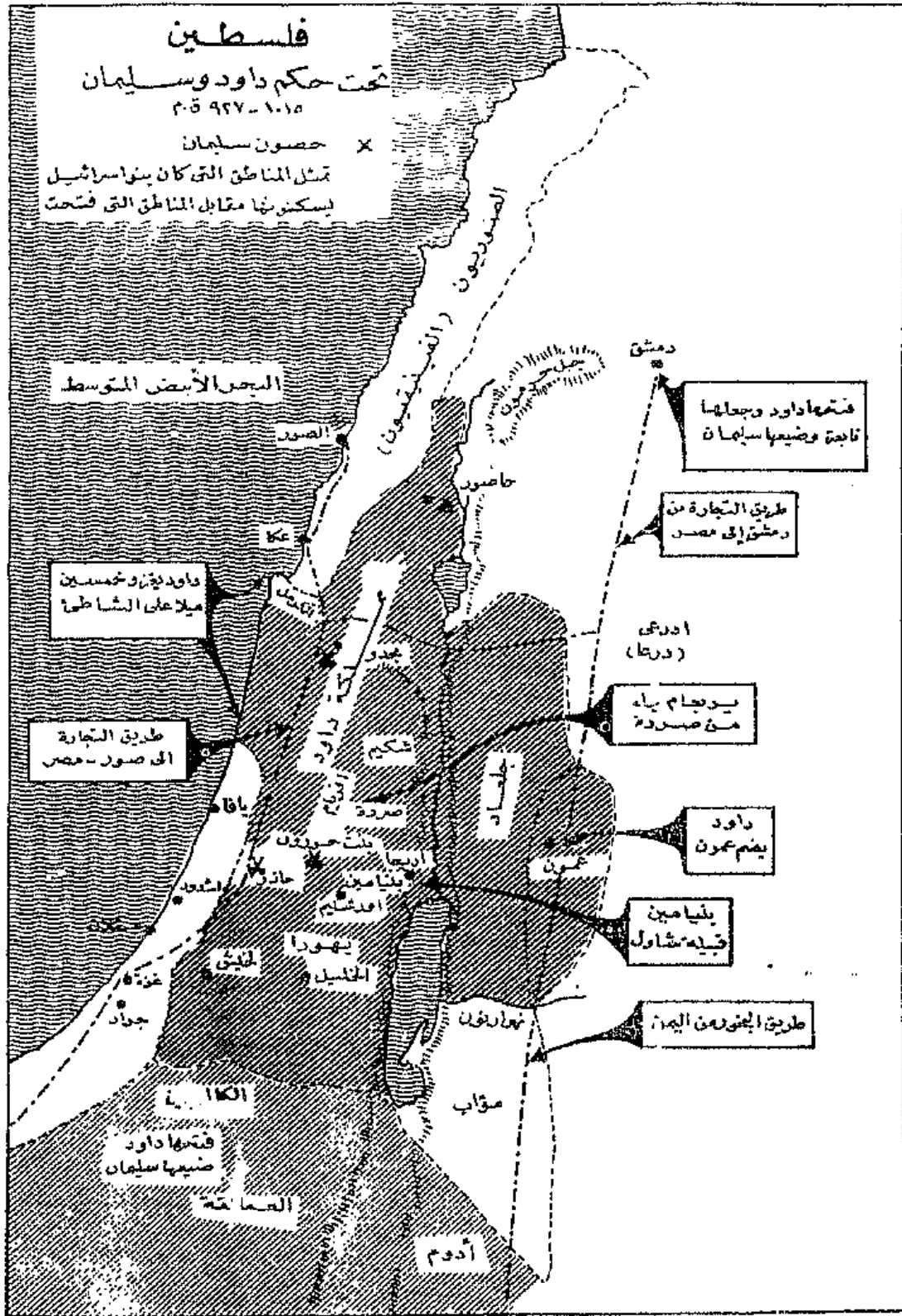
ودائما ما كان الشرق الأوسط يستمد جانبا من ثروته من التجارة العابرة من المحيط الهندي إلى البحر الأبيض المتوسط، وكان هناك تجارة رابحة أخرى هي تجارة البخور المستوردة عن طريق قوافل الجمال من اليمن إلى مصر وسوريا. وقد أتاحت السيطرة على آدوم الفرصة لداود ليفرض مكوس التجارة العابرة على هذه البضاعة النادرة.

وكان حكم داود بالنسبة لإسرائيل نهاية المرحلة العسكرية في تاريخها، ولكن الكراهية المريرة التي سادت بين أفراد آل داود شوهت الأمجاد الخارجية، إذ اعتدى ابنه أمنون على عفاف أخته تامار شقيقة أخوه أبشالوم وقام أبشالوم وقتل أمنون ثم ثار بعد ذلك وحاول أن يقتل أباه^(١٣). وانتهى الأمر بقتل أبشالوم، إلا أن هذه المعاداة الداخلية أطلقت الزناد لشورة أخرى أشعلها هذه المرة شبع بن بكرى البنياميني وهو من قبيلة شاول. وقد صرخ شبع قائلا: «ليس لنا قسم في داود، ولا لنا نصيب في ابن يسي. كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل. فصعد كل رجال إسرائيل من وراء داود إلى وراء شبع بن بكرى. أما رجال يهودا فلازموا ملكهم من الأردن إلى أورشليم^(١٤). وهكذا ظهر على حين فجأة أن اتحاد إسرائيل الذي حققه داود كان اتحادا سطوحيًا. ونبينا سفر صموئيل الثاني الاصحاح الحادي والعشرون كيف كان هناك قحط تسبب عن عدم سقوط الأمطار، وكيف استعلم داود من يهوه، فأخبره بأن السبب في ذلك يرجع إلى أن شاول قتل الجيبونيين الذين حلف لهم بنو إسرائيل، وقد سبق أن ذكر أن الجيبونيين كانوا قد تحالفوا مع إسرائيل منذ

(١٢) خريطة (٦).

(١٣) سفر صموئيل الثاني الاصحاح ٤/١٧

(١٤) سفر صموئيل الثاني الاصحاح ٢٠/١، ٢٠.



خريطة (٦)

عهد يشوع ، ويخبرنا السفر أن داود سألهم ماذا أفعل لكم وبماذا أكفروا؟. فطالبوا برأس سبعة من ذرية شاول، فقدم داود سبعة من أبناء شاول وأحفاده إلى الجعبونيين صلبوهم على ربوة مرتفعة خارج قريتهم^(١٥). فهل لنا أن نصدق أن إله المحبة أصر على موت هؤلاء الرجال السبعة الأبرياء؟ أم أن داود أراد أن يتخلص ممن بقى من أسرة شاول».

وحتى في الأيام القليلة الأخيرة لداود مزقت الكراهية والغضاء الأسرة المالكة شر ممزق، حيث حاول أدونيت ابن حجيت وهو أخ لأبشالوم القيام بانقلاب فسارع داود إلى المناداة بسليمان خليفة له، وجلس سليمان على العرش يشد أزره المرتزقة الأجانب. ويلح داود، من فراش موته، على سليمان أن يقتل يوآب، وما أن مات داود (من ٩٧٠ - ٩٦٠ قبل الميلاد) حتى عمل سليمان على اغتيال أخيه الأكبر أدونيا هو وبعض منافسيه الخطرين، وكان يوآب واحدا منهم.

وكما هي حال في معظم الأمم تلى المرحلة العسكرية في عهد داود طور تجارى في فترة حكم سليمان. لقد كان سليمان يريد السلام، وقد سعى إليه عن طريق الزيجات الأجنبية ، وكان أبرز زوجات سليمان ابنة أحد الفراطة الضعاف من الأسرة الحادية والعشرين المصرية.

وكانت «صورة» (لبنان الحديثة) أخلص حلفاء سليمان، تمتد جنوبا إلى جبال الكرمل، وكان اسمها الاغريقي فينيقيا، إلا أن شعبها كان يطلق على نفسه اسم الصوريين ومن الأرجح أنهم كانوا من أصل يوناني مختلط، وكانوا بحارة مهرة يتاجرون مع كل حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانوا في ذلك الحين يقيمون وينشؤون مستعمرات لهم في قبرص وسردينيا وصقلية وشمال أفريقية.

(١٥) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ٢١ يقول «أنهم حوزقوا»، بينما فى النسخة المنقحة المعترف بها «أنهم شنقوا» المترجم.

وقد عرف سليمان أن أولئك الذين يريدون السلام ينبغي لهم أن يستعدوا للحرب، ففى حين اعتمد داود فى المقام الأول على مشاقه من الجنود المرتزقة، بنى ابنه قوة كبيرة من المعجلات الحربية، كما شيد سليمان كثيرا من الحصون والقلاع حول الجزء الجبلى من إسرائيل، أى فى حاصور ومجدو وبيت حورون وجازر^(١٦). وكانت حاميات هذه القواعد من جيش يدفع له أجره بانتظام، ويبدو أن سليمان لم يستدع للخدمة قط الحشود القبلية القديمة.

وسرعان ما ثارت دمشق واستعادت استقلالها، وأخذت الأقاليم التى كان يحكمها داود فى الانكماش، وكان انكماشاً بطيئاً ولكنه كان أكيدا، وكان اهتمام سليمان بالتجارة والصناعة أشد كثيرا من اهتمامه بالحرب، وقد تناول نشاطه عملية شراء الخيول من آسيا الصغرى وبيعها فى مصر. وامتد طريق رئيسى للتجارة من دمشق عبر ادعى (درعا) الى وادى ازدريلون فوق التلال القريبة الى مجدو ثم ينزل من الجبال ليسير على امتداد ساحل فلسطين الى مصر^(١٧)، كان قطاعا طويلا من هذه الطريق يمتد عبر الأراضى التى يسيطر عليها سليمان، زد على ذلك، أن صداقة سليمان لصور التى بها أكبر موانئ العالم التجارية، جلبت له كثيرا من الأعمال التجارية، وكرست القبائل الشمالية نفسها للتجارة أكثر فأكثر، ولكن لم تتأثر يهودا كثيرا مثل الشمال.

وفد أحكم سليمان السيطرة على آدوم وجنوبا الى الخليج المعروف الآن باسم خليج العقبة، وكان له أسطول تجارى يجوب البحر الأحمر ويعمل عليه بحارة صوريون. وعلى مقربة من عصبون جابر^(١٨) استغل سليمان المناجم وصهر النحاس، وربما الحديد. وأصبح سليمان على درجة كبيرة من الثراء، وإن صاحب هذا الثراء ارتفاع فى نفقات المعيشة وارتفاع فى الأجور.

(١٦) خريطة (٦).

(١٧) خريطة (٦).

(١٨) خريطة (٢).

وكان من نتائج سيطرة سليمان على العقبة أن تمكن من فرض رسوم عالية على قوافل البخور اليمنية. وربما كان الغرض من الزيارة الشهيرة التي قامت بها ملكة سبأ هو الاحتجاج على المطالب الجائرة للمسؤولين الاسرائيليين. واذا كانت فطنة الملك في إدارة الأعمال التجارية قد جعلت له أموالا طائلة، فإن تبذيره وحبه للظهور كلفه أكثر مما يجب. وكان الهيكل أشهر المباني التي شادها، وقد بناه على طراز سراييت الخادم. كما كان هناك مبنى صغير مكعب الشكل أطلق عليه اسم قدس الأقداس. وكان الهيكل واحدا من بين عدد من المباني أقيمت في الجناح الملكي الذي كان يضم عدة قصور وترسانة للسلاح. ولكي ينفذ سليمان كل أعماله البنائية استخدم عمال السخرة من «جميع أنحاء اسرائيل»^(١٩)، أي كما كان يفعل رمسيس الثاني في مصر. وعلى الرغم من استخدام عمال السخرة فقد غرقت البلاد في الديون واضطر سليمان لبيع عشرين مدينة على حدوده الشمالية لملك صور.

وكان يربعم فتي ياقعا من صرده (يحتمل أن تكون سرده الجديدة) الواقعة على بعد أحد عشر ميلا شمال أورشليم. ولما كان على قسط كبير من التعليم فقد عهد إليه سليمان بوظيفة ملاحظ عمال السخرة في الهيكل، وشهد الظلم الذي حاق بالفقراء والمفترض أنه اتهم بالتحريض والاثارة وصدرت الأوامر بالقبض عليه، ولكنه تمكن من الهرب الى مصر.

ويلقى العهد القديم اللوم على سليمان للتهاون في أمور الدين ويتسب إليه أنه اتخذ سبعمائة زوجة معظمهن من الدول المجاورة. وقد رغب في إقامة المعابد لعبادة آلهتهن، واستجابة لرغبتهن أقام سليمان (أماكن عالية) فوق التلال المجاورة وكان التعبد على قمم المرتفعات مظهرا من مظاهر الديانة السورية الفلسطينية منذ

(١٩) سفر الملوك الأول ٥ الاصحاح الخامس / ٢٢٧.

أمد بعيد. وحتى في إسرائيل اندمجت عبادة بعل في عبادة يهوه لدرجة أننا نجد شموئيل يقدم القرابين في «مكان عال».

والواقع أنه لم يعد نى الإمكان تقييم معنى مصطلح «بنى إسرائيل»، حيث استمر تبادل الزواج حراً مع شعب البلاد على جميع المستويات، «وتوضح المطالعة المدققة للعهد القديم بالذات أن وحدتهم (يعنى وحدة بنى إسرائيل) كانت وحدة جد غامضة سياسياً وعرقياً، فلم يكن دين يهوه دين منطلق جغرافية بعينها، بل كان دين الارستقراطية العسكرية والكهنوتية، ولم يكن أبداً الدين الوحيد القائم داخل حدود مملكة بنى إسرائيل»^(٢٠)، إلا أننا إذا كنا لا نستطيع أن نعرف من هم بنو إسرائيل، ولانستطيع أن نفصلهم عن الجماعات الأخرى فكيف كانوا، والأمر كذلك، الشعب المختار الذى يختلف عن كل ما سواه؟

توفى سليمان حوالى سنة ٩٢٧ قبل الميلاد، واستطاع أن يرفع دولته الى مستوى عال من الثراء، إلا أنه لكى يحقق ذلك ظلم الشعب ظلماً فادحاً، ولذا فقد تبع وفاة ملك بنى إسرائيل إنفجار الثورة.

تواريخ تستحق الذكر

حكم داود حوالى ١٠٠٠ إلى ٩٦٧ قبل الميلاد.

حكم سليمان حوالى ٩٦٧ إلى ٩٢٧ قبل الميلاد.

خاتمة

١ - حكم داود. وحكم سليمان نموذجان من تطور الشعوب البدائية من الحرية القبلية الى الحكم الملكى المطلق ومن الحياة العسكرية الى الحياة التجارية.

(٢٠) جى. باركس «النزاع بين الكنيسة والمعبد اليهودى».

٢ - تغطي هذه الحقبة تغييرات اجتماعية عميقة الجذور، تتمثل في زيادة الرفاهية وظلم الفلاحين. ومن الناحية السلالية اندمج المنحدرون من رعاة سيناء مع شعب الملاد. ومن وجهة النظر الدينية كانت عبادة يهوه هي الدين الرسمى للدولة إلا أن الناس كانوا يمارسون جميع أنواع المزج مع الديانات المحلية الأخرى.

٣ - كانت الأسرة الملكى فاسدة تماما، فأبناء داود يفتال أحدهم الآخر، أو يعصى ويشور، وقد قتل سليمان كل إخوته.

إن البشرية التعسة تبنى في خيالاتها بصفة دائمة عصورا ذهبية في الماضى والمستقبل لتتخلص من آلام الحاضر. وهكذا كان حكم داود وحكم سليمان يمثلان الأيام المجيدة، إلا أن واقع الأمر، هو أن حكم داود كان سلسلة ممتدة من الثورات والحروب والاضغتيالات. وفي أواخر عهد سليمان كانت الدولة تغلى بالثورة التى انفجرت بعد موته مباشرة.

الفصل الخامس

التفسيخ والأفول

«لأنى دعوت فأبيتم ومددت يدي وليس من يبالي...
بل رفضتم كل مشورتى ولم ترضوا توبيخى...
فأنا أيضا أضحك عند بليتكم..
أشمت عند مجيء خوفكم..
لأن ارتداد الحمقى يقتلهم..
وراحة الجهال تبيدهم..
أما المستمع لى فيسكن آمننا..
ويستريح من خوف الشر..»

(الأمثال الاصحاح الأول / ٢٤ إلى ٣٣)

بَطَّلُ فرح الدفوف..
انقطع ضجيج المبتهجين..
بَطَّلُ فرح العود..
دمرت قرية الخراب..
أغلق كل بيت عن الدخول..
صراخ على الخمر في الأزقة. غَرَبُ كل فرح..
انتفى سرور الأرض..
الباقى فى المدينة خراب..
وضرب الباب ردما...

(إشعياء الاصحاح الرابع والعشرون / ٨ إلى ١٢)

الفصل الخامس

«سقط شاؤل وسقط داود، وسقط سليمان، ووضعت الملكية والملوك في الميزان فبان العجز. والقصة منذ وفاة سليمان ونهاية مملكة اسرائيل الموحدة قصة حزينة مزرية للفساد والتآمر والحرب والرشوة، حتى تحطمت آخر الأمر إسرائيل مع حطام أورشليم، ولما تنقض خمسمائة سنة على رسامة شاؤل أول ملك لها، حتى دفعت إسرائيل ثمن لعبها بسياسة القوة، وتقليدها السلوك الوضيع للأمم، واختيارها الخاطيء للحضارة بدلا من الدين، وهي بهذا كانت لاختلف كثيرا عن أى من الولايات الصغرى التي ترنحت من أزمة الى أخرى في عالم البحر الأبيض المتوسط القديم.. بل إن ظهور «حزقيال» و«هوشع» لم يكن ليكبح رعونة الشعب الذى «أسلم أمره لقيادة خاطئة، وفشل فى أن يدرك أن السعى وراء الثروة والصيت والسلطوة والأمن الزائف الذى تجليه هذه الأمور لم يكن ليمهد السبيل التى كان ينبغى «لشعب الله» أن يسلكها.. إلا أن بنى اسرائيل كانوا شعب الله، شعبا له دعوة، وله رسالة»^(١). إن هذه العبارة، كلها من أولها لآخرها، تبدو وكأنها تلخيص موجز لتاريخ اسرائيل القديم. فقد كانت مجرد ولاية صغيرة ناشئة ترنح من أزمة إلى أزمة، مثلها مثل أى دولة أخرى من الدول، التى قامت ثم سقطت، وقد أسلمت أمرها لقيادة مخطئة وفشلت فعلا فى أن تدرك أن الجرى وراء الثروة والصيت والسلطان يشترى إحساسا زائفا للأمن.

أن قصة الثورة ضد رحبعام قصة معروفة، وهى مصورة فى أروع صورة فى سفر الملوك الأول الاصحاح الثانى عشر. فعلى غرار ما حدث فى ثورة شيبع بن بكرى ضد داود كان الثوار يطلقون أصواتهم قائلين «كل رجل الى خيمته يا إسرائيل» بما يوحي بأن أغلب بنى اسرائيل كانوا لا يزالون من سكان الخيام.

(١) ويليام نيل، «تعليق على الكتاب المقدس».

وقد عاد يربعام من مصر واختير حاكما للمملكة الشمالية. ويشبه هذا الحادث ما يحدث في عصرنا الآن، فما أكثر ما شهدنا الزعماء الشعبيين الساخطين على حكامهم يطلبون اللجوء السياسى فى مصر، ليرجعوا بعد قليل ويصبحون حكامها المطلقين.

وقد ظلت يهودا مخلصمة لآل داود الذين كانوا قبل كل شىء عشيرة فى نفس قبيلتهم. ولقد رأينا من قبل أن يهودا كانت تختلف كثيرا عن القبائل الشمالية منذ بداية التاريخ، كما كانت منطقة يهودا منطقة جبلية جرداء وظل كثير من سكانها رعاة بسطاء.

وقد كانت المملكة الشمالية قبل الغزو أكثر انتاجا وتستطيع أن تأوى عددا أكبر من السكان الكنعانيين، وهؤلاء لم يقتلهم الاسرائيليون، وبعد ماضى مائتى سنة اندمج بنو اسرائيل فى الكنعانيين وصار يهوه الى درجة كبيرة يتطابق مع الإله بعل.

ولقد تأكد التباين بين اسرائيل ويهودا، بصورة أكبر، فى عهد سليمان عندما فتحت الدولة أبوابها لدولتى صور (لبنان) وسوريا الأكثر تمدينا، وأخذت شعوب القبائل العشر الشمالية ورا متزايدا فى الأعمال التجارية. وعندما قتل آخاب سنة ٨٥٠ قبل الميلاد كان الأمر الذى صدر للجيش «كل رجل الى مدينته وكل رجل الى أرضه». فلم يعد هناك ذكر لخيام بنى اسرائيل فقد تم امتصاص الاسرائيليين الشماليين فى حياة سوريا التجارية الحضارية.

وكان على يربعام أن يواجه كثيرا من المشكلات، حيث استطاعت الدعاية الملكية طوال سبعين سنة أن تقنع كثيرا من الناس بأن أورشليم هى المكان الوحيد الذى يمكن أن يعبد فيه يهوه، كما أن الصلوات فى الهيكل الملكى كانت تتضمن الاشارة الى عهود يهوه وموآتيقه الدائمة مع آل داود.

لذا أقام يريعام المعابد فى الشمال (فى بيت إيل وفى دان) كى يقصدها
الحجاج وكان له ما يبرره فى ذلك العمل، فقد انقضت ثلثمائة عام منذ الغزو ولم
تنبوأ أورشليم مكانتها كمدينة مقدسة إلا فى الأعوام الخمسين الأخيرة.

على أنه ينبغى لنا أن نتذكر دائماً أن العهد القديم أعيدت كتابته بأيدى
كهنة أورشليم عندما زالت دولة اسرائيل، ومع أنهم ضمنوه بعض مواد من الشمال
... ما أطلق عليها إسم الرواية الايلوهيمية - فإنهم كانوا أحراراً فى نبد أية مادة
لاتروق لهم، وبالتالي كانوا قادرين على تحريف القصة كلها. بل إن من الباحثين
من يعتقد أن بعض المزامير استعاره كهنة أورشليم من طقوس العبادة الكنعانية.
وعموماً كان الموقف كله مائلاً لدرجة يصعب معها التوصل الى تمييز واضح
وصارم.

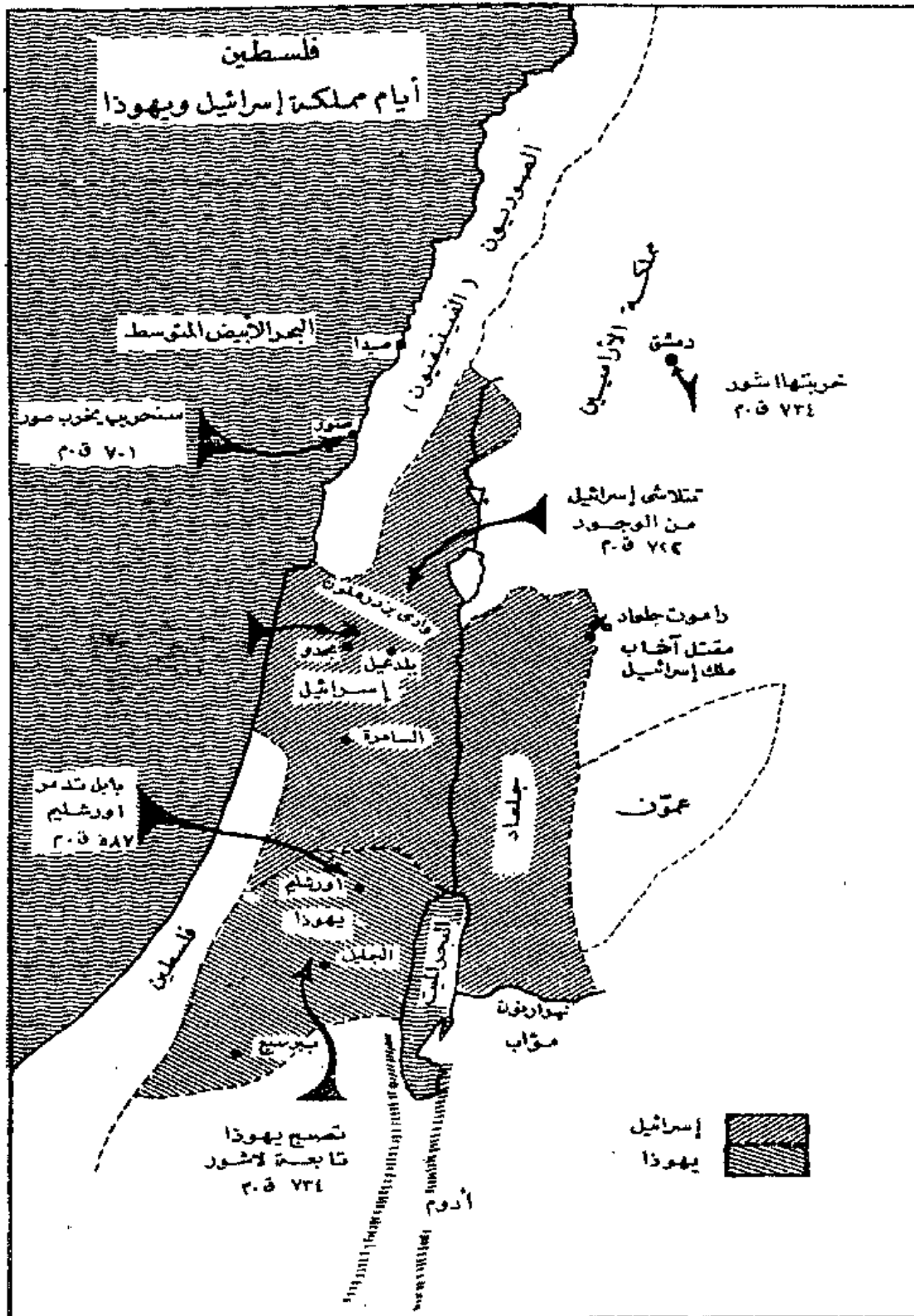
وكانت المملكة الشمالية غير مستقرة، حيث خلف يريعام ابنه ناداب الذى
اغتيل فى نفس السنة على يد «بعشا» (٩٠٠ - ٨٧٧ ق.م) الذى نصب نفسه
حاكماً. وخلف «بعشا» ابنه «أيلة» (٨٧٧ - ٨٧٦ ق.م) الذى قتله زمربى بعد
بضعة أشهر. وفى خلال أسبوع وقع انقلاب عسكري آخر ترتب عليه أن إعتلى
عمرى (٨٧٦ - ٨٦٩ ق.م) وهو رئيس الجيش العرش.

وكان عمرى رجلاً يتميز بمقدرة فائقة، إلا أن فترة السنين الاثنتين
والسبعين التى مرت تحت نير الملكية الطاغية من عهد يريعام الى عهد عمرى
كانت خليقة بأن تنزل اسرائيل، الى درجة من الوهن والضعف، حتى لقد أصبح
ملك دمشق هو الحاكم صاحب النفوذ فى سوريا. وكان أساس سياسة عمرى قائماً
على التحالف مع صور التى كانت فى ذروة ازدهارها التجارى وكانت مستعمرتها
فى قرطاجنة ستقام بعد سنوات قليلة. واذ كانت صور تعيش على التجارة فيما وراء

البحار فإنها كانت تشتري الحاصلات الزراعية من اسرائيل. وقد دعم عمري التحالف مع صور بأن عقد قران ابنه آخاب على ايزابيل ابنة أئعبل ملك الصيدونيين كما تصالح مع يهودا. بعدئذ اشتركت صور واسرائيل ويهودا فى مقاومة دمشق. وقد مكن الصلح بين يهودا واسرائيل الدولتين من الشروع فى حملات محلية، فأكدت يهودا سيادتها المفقودة على آدوم وأجبرت اسرائيل مؤاب على دفع الجزية، إلا أنه سرعان ما طغى الخوف من آشور على هذا التنافس. ففي حوالى سنة ٨٧٤ قبل الميلاد غزا آشور ناصر بال الثانى (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) سوريا الشمالية ووصل الى البحر الأبيض المتوسط. وفى عام ٨٥٩ ق.م. عاد شلمناسر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م) الى سوريا، إلا أن حمات (حماة الحالية) ودمشق واسرائيل وعمون اتخذت جميعا للوقوف فى وجهه، ووقعت سنة ٨٥٣ ق.م. معركة ممتدة فى «قرقر» على نهر العاصى انسحب الآشوريون على إثرها.

وقد ازدهرت اسرائيل وزادت ثروتها زيادة سريعة تحت حكم آخاب الذى ز قام عاصمة جديدة للملكة فى السامرة وبنى قصرا آخر فى جززيم^(٢). على بعد خمسة وعشرين ميلا. إلا أن التحول من الزراعة الى التجارة كان حريا أن تترتب عليه العواقب المعتادة، فأصبح رجال الأعمال على درجة كبيرة من الثراء بينما زاد الفقراء فقرا وعاش الأغنياء فى بذخ واشتروا بفضل الأرباح الطائلة من التجارة مزارع زراعية شاسعة، وتخلصوا من صغار المزارعين وأصبح السكان الزراعيون عمالاً أجراء. وكانت هذه الأحوال التى تناقض الحلم الاسرائيلى فى الحرية والمساواة، داعية لقيام عدد من «الأنبياء» الذين أنكروا رذائل ذلك العصر. وكان واحدا من أوائل الأنبياء «ايليا». ويعزو سفر الملوك الأول معارضة ايليا لآخاب وايزابيل لأن ايزابيل اتخذت البعل إلهيا. ويتملك المرء الفزع إذا ما قرأ قصتهما.

(٢) خريطة (٧).



خريطة (٧)

كان ايليا التشبى مواطنا من شرق الأردن، ولم يكن من السامرة ذات البذخ والثراء. وكان مخلصا متساما في عبادة يهوه مؤمنا بذبح أعدائه^(٣) ولما طارده ايزابل هرب الى سيناء، وتلك واقعة لها مغزاها، لأن سيناء كانت مهد التقاليد القبلية القديمة المتحررة، وفي هذا المقام لاقى ايليا تجربة روحانية حيث سمع صوتا منخفضا خفيفا دعاه الى القيام بواجبه.

وحوالي سنة ٨٥٠ ق.م قتل آخاب في معركة مع ملك دمشق عند «راموت جلعاد» (رمتا الحالية)^(٤). وعلى الرغم من التهديد المتزايد بالغزو الآشوري فقد ظل هؤلاء السوريين النموذجيين يحارب بعضهم بعضا. وخلف «آخاب» ابنه يهورام الذي قتل بعد ثمانية أعوام في انقلاب عسكري قام به ضباط من ضباط الجيش اسمه «ياهو»، وقد اشترك «اليشع» في المؤامرة التي دبرت في الظاهر ضد انغماس البلاط الحاكم في الملذات وضد نفوذ صور^(٥)، ونجمت عنها مذابح جماعية رهيبة.

وكان رئيس الركابيين على علم بهذه المؤامرة^(٦)، والركابيون عشيرة من الرعاة الرحل رفضت التخلي عن خيامها والاشتغال بالزراعة أو تناول الخمر والانهماك في الملذات، وبقيت على عهدا رعاة، لأنها آمنت بأن دين يهوه الحقيقي لا يمكن الحفاظ عليه إلا في ظل الحياة البدوية. ولعل مما يستحق الاهتمام أن نقارن هذه العبارة بتلك التي رفض يهوه بموجبها أن يسمح لداود بأن يبنى له منزلا حيث يقول «لأنى لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بنى اسرائيل من مصر الى هذا اليوم، بل كنت أسيرا في خيمة وفي مسكن»^(٧).

(٣) سفر الملوك الأول الاصحاح ١٨ / ٤٠.

(٤) خريطة (٧).

(٥) سفر الملوك الثاني الاصحاح ٩ / ١٠.

(٦) سفر الملوك الثاني الاصحاح العاشر / ١٥ إلى ١٧.

(٧) سفر صموئيل الثاني الاصحاح السابع / ٦.

ويمتدح سفر إرميا الأصحاح الخامس والثلاثين حياة الركابيين ويسوقهم
مثلا ليهودا، مع أنهم لم يكونوا من بنى إسرائيل، بل كانوا من القينيين الذين ربما
عبدوا يهوه قبل أن يعبده موسى، ومع كل فإن من المثير جدا للانتباه أن الروحانية
الأخيرة للديانة اليهودية لم تأت عن طريق هؤلاء الأتقياء الورعين، بل جاءت عن
طريق انهيار المتحضرين والأثرياء وعن طريق النظرة الدينية الجديدة التي انبثقت عن
الكارثة.. وإذا كان لنا أن ندرك معنى العهد القديم، بدلا من القول بأن الله هو
الذي كيف كل كلمة من كلماته، فإننا نستطيع أن نرى الدروس التاريخية
والدينية واضحة على كل صفحة من صفحاته.

وبعد ذلك كان انحدار إسرائيل الى الدمار سريعا، فبعد أن انتعشت تحت
حكم يربعام الثانى (٧٨٣ - ٧٤٣ ق.م) وقعت سلسلة من الانقلابات العسكرية
أدت إلى الفوضى، وعلى الرغم من ذلك فإن إسرائيل ودمشق هاجمتا يهودا التي
استتجدت بآشور. وفى سنة ٧٣٤ ق.م. غزا «تجلات بلاسر» سوريا كلها حتى
سهل يزرعثيل وبعث بسكان الجليل الأعلى إلى المنفى وجعل ملك يهودا تابعا له
كما ضم مملكة دمشق الى آشور.

وحوالى سنة ٧٢٤ ق.م قام شلمناسر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) بغزو
فلسطين واستولى على السامرة. وهكذا بعد مائتا سنة زالت المملكة الشمالية
من الوجود ونفى سكانها فأرسل بعضهم إلى شمال العراق وأبعد البعض الآخر إلى
بلاد الفرس حيث ذابوا فى السكان المحليين، وأحضر محلهم خليط من السكان
المستوردين. وكانت الجماعات الوطنية المتجانسة عرضة لأن تتور، لذا كانت سياسة
الأشوريين تقضى بأن «يخلط» جميع سكان امبراطوريتهم بحيث لا تكون طوائف
متجانسة.

وقد وقع فى هذ السنوات تطور جدى ذو مغزى عظيم، ألا وهو ظهور الأنبياء ولم يكن هؤلاء الأنبياء من المنجمين الذين يرحمون بالغييب. ولعلنا نطلق عليهم اسم «المصلحين»، فقد كانوا يدعون للرجوع الى حظيرة الله فى الوقت الذى بلغت فيه اسرائيل منتهى الغنى والفساد والتدهور، ونجد فيهم لأول مرة، على الأغلب، موضوعات أخلاقية أصيلة. وتقدم الكتب التاريخية، مثل صموئيل والملوك وأخبار الأيام، صورة طبيعية للعنف وازاقة الدماء والكراهية واليغضاء مما كان شائعا فى كافة الدول الصغرى فى الشرق الأوسط قبل مجيء المسيح بألف سنة. وكان ظهور الأنبياء فى ذروة فترة التفسخ مشجعا للغاية حيث كان تحت سطح القسوة والقتل يوجد التقدم الروحى الهادىء يمضى قدما. وما كان الأنبياء بقادرين على أن يحولوا دون تفتت المجتمع الاسرائيلى، الا أن كلماتهم ما فتعت تتردد على الأسماع بعد وقوع الكارثة مما أدى الى التقدم فى التفكير الروحانى الذى غير وجه العالم.

أرجعوا إلى الله بسونه

وتواصوا بالعدل والرحمة

ثقوا فى الله..

وهل قال افرايم نعم، ولكننى أصبحت غنيا

وجعلت نفسى ثريا؟

لكن يوشع لم يدع الى الرجوع الى الله وحسب، بل أنه وعد أيضا بأن الله

سوف يغفر ويصفح:

سوف أغفر لهم عدم إخلاصهم

ولسوف أحبهم من كل قلبى

بعد أن زال عنهم غضبي^(٨)

ومنذ وفاة سليمان إقتصر تعقيبيننا على القبائل الشمالية العشر، حيث كان الموقف فى يهودا أبسط من ذلك لأن، أولا، أرضها كانت أفقر، ولأن كثيرا من رجالها ظل يعمل بالرعى، أى كالعامل الأصلي لعبد يهو، وثانيا، لم يكن هناك طريق للتجارة الدولية عبر يهودا بحيث يجلب اليها التجار الأغنياء والأفكار الأجنبية، وثالثا، كان هبة داود واحترام الناس له الذى بقى حيا فى الصدور سببا فى توفير ملكية مستقرة:

وفى الحقيقة جلب حكم داود وسليمان المال إلى أورشليم وكان سببا فى ايجاد «مستوى معيشة مرتفع»، إلا أنه عندما صارت أورشليم عاصمة لمملكة يهودا الصغيرة تبدل الموقف الى ما صار عليه، واحتفظت يهودا بقبضتها على جزء من «آدوم»، وهو إقليم فقير ليست له تأثيرات إفسادية. وكان هناك فترات من التراخي الدينى أعقبتها فترات من الإحياء على غرار ما حدث فى عهد «حزقيا». وشيئا فشيئا دب الفساد فى يهودا، إلا أن تلك العوامل أتاحت لها أن تبقى نحو مائة وخمسة وثلاثين عاما بعد زوال المملكة الشمالية. وكان «آحاز» ملك يهودا (٧٣٥ - ٧١٥ ق.م) قد أصبح، كما رأينا، تابعا للآشوريين وكان مجبرا على تقديم ولائه إلى «تجلات بالأسر».

ويصف «إشعيا» الفوضى فى ذلك الوقت مشيرا الى يهودا فيقول:

وامتلات أرضهم ذهباً وفضة.

ولا نهاية لكنوزهم،

(٨) جى. بى. فيليس «أربعة أنبياء».

وامتلأت أرضهم خيلا

ولا نهاية لمركباتهم.

وامتلأت أرضهم أوثانا.

ويظلم الشعب بعضهم بعضا والرجل صاحبه وكل رجل جاره

يتمرّد الصبي على الشيخ

والدنيء على الشريف

شعبي ظالموه أولاده

ونساء يتسلطن عليه^(٩)

ولعل مما يسترعى الانتباه أننا نلاحظ أن إشعيا، يستشهد بداليتين على الانحلال الاجتماعي هما: ثورة الشباب ومشاركة النسوة في الحكم. وفي سنة ٧١٥ ق م أصبح حزقيا ملكا على يهودا وبدت بارقة أمل في التخلص من الخضوع لآشور، وكان الأنبياء قد أرجعوا سقوط اسرائيل الى هجرها يهوه، وقد يؤدي إصلاح ديني إلى انقاذ يهودا. وكانت بابل قد ثارت ضد آشور، وكان سرجون الثاني في حرب مع ميداس ملك فرنجيا^(١٠). وكانت الحروب الأهلية قد مزقت مصرا إلا أن الأسرة الخامسة والعشرين قامت سنة ٧١٦ قبل الميلاد^(١١)، وكان سكان يهودا يؤملون في التلاعب بالسياسة بحيث يضعون مصر وأشور في مواجهة بعضهما.

(٩) سفر إشعيا الاصحاحين الثاني والثالث. ترجمات مختلفة.

(١٠) خريطة (أ).

(١١) جون برايت، «تاريخ اسرائيل».

وتشجيع من مصر ثارت صور ويهودا وجزء من فلسطين على آشور عام ٧٠١ قبل الميلاد. وفي عام ٧٠١ ق.م جاء سنحاريب وحطم صور التي لم تسترجع بعد ذلك مكائنها، ثم تقدم الى سهل فلسطين محطما في طريقه عددا من مدن يهودا، وبناء على نصيحة إشعيا طلب حزقيا الصلح فوافق سنحاريب، إلا أنه زاد الجزية. وضم عددا من مدن يهودا الى فلسطين^(١٢).

وبعد ما يقرب من ثلاثة عشر عاما، أى حوالي سنة ٦٨٨ ق.م عاد سنحاريب الى يهودا. ومن الأرجح أن يكون المشهد الشهير في سفر الملوك الثاني الاصحاح الثامن عشر / ١٧ - ٣٥ صورة لهذه المناسبة، ولكن خرجت ملائكة يهوه اليه، وضربوا ١٥٨ ألفا في معسكر الأشوريين^(١٣). ويذكر هيرودوت ذلك الحادث فيقول، أن طاعون الفيران إجتاح الاشوريين، وسرعان ما أصيب حزقيا هو الآخر بالدمامل ويحتمل أن يكون وباء الطاعون الدملي قد تفشى مرة أخرى.

وينبغي لنا ونحن في هذا المقام أن ندخل ملاحظة موجزة عن الأنبياء المعاصرين ونخص بالذكر إشعيا وميخا، فقد تلقيا شعيا تجرية روحانية^(١٤)، ولو أنه تلقاها في عبارة شعرية معاصرة. والحق أنه تصور النداء مرسلا من يهوه، إلا أن نداءات الزب الروحانية لاتعتمد، كما لاحظنا مسبقا، على دقة مفهومنا العقلي.

كانت يهودا ترسم خطى إسرائيل، فالأغنياء يظلمون الفقراء، والقضاة يقبلون الرشوة، وقد تبددت الديمقراطية الحرة النابعة من تقاليد الصحراء القبلية. زد على ذلك، أن يهودا كانت تعاني من وهم معين لم تتأثر به إسرائيل، ذلك لأن

(١٢) سفر الملوك الثاني الاصحاح الثامن عشر / ١٣ - ١٦.

(١٣) جون برايت، (تاريخ اسرائيل).

(١٤) سفر إشعيا، الاصحاح السادس.

الدعاية السياسية الملكية كانت قد أشاعت فكرتين: أولاهما، أن اورشليم هي مقر يهوه، ومن ثم فهي لن تقهر، وثانيهما، أن بيت داود سوف يحكم الى الأبد.

ولم تكن هناك مواقف مرتبطة في التفكير الشعبى بهذين الوعدين حيث شعر الناس بالثقة في أن يهوه سوف يحمى اورشليم بغض النظر عن فجور العامة. وفي نفس الوقت، صارت طقوس المعبد الدينية مطولة أكثر مما كانت، وأصبحت ملابس الكهنة الرسمية أكثر بهاء، وأضحت القرابين أكثر سخاء دون أن يترتب على كل ذلك أى إصلاح، اخلاقى واستنكر ميخا هذا الموقف استنكارا بالغاً فى الاصحاح السادس: إذ يقول:

بم أتقدم إلى يهوه

وأنحى لئله العلى؟

هل أتقدم بمحرقات لعجول أبناء سنة؟

هل يسر الرب بألوف الكباش؟

بربوات أنهار زيت

هل أعطى بكرى عن معصيتى

ثمرة جسدى عن خطيئة نفى؟

ولكن يهوه يجيب:

قد أخيرك أيها الانسان ما هو صالح

وماذا يطلبه منك الرب

إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة

وتسلك متواضعا مع إلهك.

وقد ابتكر إشعياء، وكان قريب الصلة بالملك، فكرتين لايزال أثرهما ملموسا في وقتنا هذا. فقد أمن بالعقيدة المعاصرة وبأن يهوه إتخذ مقره في أورشليم، إلا أن السلوك الدنيوى للعامّة وتهديد الآشوريين السياسى، أقنعه بأن لا مناص من وقوع الكارثة، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الاعتقادين المتضادين تناقضا ظاهرا وكان الحل الذى إرتآه أولا. أن الكارثة سوف تنزل وأن يهوه نفسه هو الذى سينزلها مستخدما آشور* لمعاينة يهودا غير المؤمنة، وثانيا، أن أورشليم، ستبقى مقر يهوه، ولسوف تبقى بقية صالححة، ويقوم وريث من آل داود ليقوم العدل ويحقق النصر، وهكذا نرى بدور عقيدتين إثنين هما: القدسية الدائمة لأورشليم (أو القدس)، ومجىء المسيح المخلص.

* * *

وتنكر منسى (٦٨٧ - ٦٤٢ ق.م) بن حزقيا لسياسة أبيه فأصبح تابعا ذليلا لأشور، إلا أن آشور نفسها كانت قد امتدت أكثر من قدرتها، فجددت بابل ومصر الثورة على الآشوريين، وضغطت الشعوب الهندية الآرية المهاجرة، فى الشمال واستقر الميديون بالفعل جنوب بحر قزوين.

وخاض «أشور بنى بال» آخر الملوك الآشوريين العظماء حربا ضارية حتى لقد بدت آشور منتصرة عندما توفى عام ٦٣٣ قبل الميلاد، وبعد انقضاء عشرين سنة على وفاته، أى عام ٦١٢ قبل الميلاد تمكن الحلفاء الميديون والبابليون من الاستيلاء على «نينوى»، وكان فى ذلك القضاء على آشور.

* * *

(*) جاء فى سفر الملوك الثانى الاصحاح العشرون/ ١٦ بأن بابل هى التى ستكون سوط العذاب (المترجم).

وفي عهد الملك «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) استتمعت يهودا بأخر فترة طيبة، حيث حقق لها انهيار إستقلالها دونما جهد بذلته من جهتها، وفي عام ٦٢٢ ق.م. عثر في المعبد على كتاب يعتقد بعض الباحثين أنه سفر الشريعة الحالي (التثنية)، ويبدو أن لشعور الذي أحدثه هذا الكشف يدل ضمنا على أن القانون الموسوى كان ملقى في زوايا النسيان.

والمفترض أن يوشيا، لكي يجتنب البدع الدينية المحلية، منع العبادة في أى من المعابد المنتشرة في البلاد، بل أنه قصر إعترافه على كهنة أورشليم، دون غيرهم، أما ما عداهم من الكهنة في أنحاء البلاد فقد طردوا. وهكذا كان قصر العبادة على أورشليم سببا في حرمان أهالى المناطق الخلوية من التعبد، حيث أن الوقت لم يكن يسمح لهم بزيارة العاصمة لممارسة نشاطهم الدينى.

وفي عام ٦٠٩ ق.م اكتسح نخو فرعون مصر (٦٠٩ - ٥٩٣ ق.م) فلسطين وسوريا ووصل إلى قرقميش^(١٥) على نهر الفرات. ولأسباب لانعلمها حاول يوشيا إيقافه عند مجدو، ولكنه قتل، وأبيد جيشه عن آخره، فأصبح ابنه يهوياقيم ملكا تابعا لمصر. وانتهى استقلال يهودا بعد عشرين عام، ونبذت اصلاحات يوشيا الدينية لأنها لم تحل دون وقوع هذه الكارثة.

وفي سنة ٦٠٥ قبل الميلاد انقض «نبوخذ ناصر» ملك بابل على الجيش المصرى في قرقميش فأباده، وبعد مضى سنة واحدة، أى عام ٦٠٤ ق.م، وصل نبوخذ ناصر إلى فلسطين فحول يهوياقيم ولاءه وأصبح تابعا لبابل. وفي عام ٦٠١ ق.م. قام يهوياقيم بثورة ولكنه توفي عام ٥٩٨ ق.م. وفي عام ٥٩٧ ق.م. وصل البابليون إلى أورشليم فاستسلمت لهم، ونفى الملك يهوياكين بن يهوياقيم وكبار المواطنين وجانب من السكان إلى بابل، وعين الغزاة صدقيا، عم الملك، ملكا.

(١٥) خريطة (أ).

إلا أن الفتنة ما فتئت تمزق يهودا التي ثارت مرة أخرى سنة ٥٨٩ قبل الميلاد، على الرغم من احتجاجات إرميا. وكان سكانها لا يزالون على اعتقادهم بأن أورشليم هي مقر يهوه. وفي عام ٥٨٨ ق.م. رجع البابليون وحاصروا أورشليم ومن ثم قاموا بتدمير منظم لكل يهودا مدمرين كل مدينة.

وفي عام ٥٨٧ ق.م. سقطت أورشليم، وسملت عينا صدقيا، وأعدم إيناه، وسويت المدينة بالأرض. ونفى عدد آخر من المواطنين الى بابل، وهرب كثير من سكان يهودا الى مصر، من بينهم «ارميا»، كما فر البعض الى سوريا أو عمون أو مواب، وتركت يهودا محرومة من سكانها.

تواريخ تستحق الذكر

وفاة سليمان ٩٢٧ ق.م.

زوال مملكة اسرائيل الشمالية ٧٢٤ ق.م.

زوال يهودا ٥٨٧ ق.م.

خاتمة

١ - أولئك الذين يعتقدون أن بني اسرائيل كانوا شعبا فريدا يواجهون مشكلة تعريف بني اسرائيل، وذلك لأنهم امتزجوا مع شعوب الشرق الأدنى الأخرى خلال وجودهم المادي امتد خمسمائة سنة.

٢ - كان يهوه إله الصحراء، وكانت عبادته بالضرورة عبادة مجردة بسيطة، وذلك أيام الرعاة الرحل. وقد عبده بنو اسرائيل الأوائل ولو أنهم اعترفوا بوجود آلهة أخرى غيره.

٣ - حتى في عهد المادية، أخذ الوعاظ الناهضون يعطون تدريجا بأنه ينبغي لله أن يحكم العالم، وأنه يريد الأخلاقيات ولا يريد الذبائح.

٤ - إنتهت المادية بمأساة، اثبتق منها مفهوم أكثر روحانية ووضوحا عن الله.

الفصل السادس العزلة أو الدولية

« لم ينفصل شعب اسرائيل .. من شعوب الأراضى .. لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبتيهم . واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى » .. فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابى ورائى وفتفت شعر رأسى وذقنى .. وبسطت يدى الى يهوه ربي ...»

سفر عزرا الاصحاح التاسع / أجزاء من الايات من ١ - ٦

« فغم ذلك يونان غما شديد فاغتاظ . وصلى الى يهوه وقال « فالآن يارب خذ نفسى منى » فقال يهوه « هل اغتظت بالصواب ؟ . أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة » .

سفر يونان الاصحاح الرابع

فى كنعان، بطبيعة الحال، ونتيجة للنضال من أجل يهوه ضد الآلهة الآخرين، تركزت مكانة يهوه باعتباره رباً أكثر فأكثر، حول علاقته بإسرائيل . مع أن عاموس يوضح الأمر بصورة مختلفة، إلا أن هذا كان سبباً فى التوتر الشديد بين ما قد نسميه الاصطفاية والخلابية*

توماس . سى . فریتسن ، « دين إسرائيل القديمة »

* الاصطفاية نظرية لاهوتية تقول بأن الخلاص مقصور على النخبة فقط، بينما الخلاصية تقول بأن الجميع يتمتعون آخر الأمر بالخلاص (الترجم).

الفصل السادس

يدى الغزو البابلي في يهودا كارثة كاملة، حيث سويت المدن كلها بالأرض، وذبح سكانها جميعاً، ولم يكن ذلك من قبيل اضطهاد اليهود، بل كانت تلك هي الطريقة التي يعامل بها الآشوريين والبابليون الولايات الشائبة عليهم، وتركت يهودا خربة ومقفرة وغير مسكونة، وأرسلت الطبقات العليا الى السبي في بابل، وتفرقت البقية في عمون وموآب وسوريا، وفي مصر بصفة خاصة، فشكلت بذلك بداية الشتات.

وما أن وصل المسييون الى بابل حتى لقوا معاملة طيبة، فكان لهم مطلق الحرية في أن يفلحوا الأرض وسمح لهم بمزاولة التجارة وممارسة شعائر دينهم. وكانت الحياة في بابل أرحب منها في الجبال الصخرية في يهودا الضيقة. وبعد اجتياز الحنين الى الوطن ألقى المسييون بأنفسهم في خضم الحياة الجديدة، حياة الفرصة السانحة فصار بعضهم واسع الثراء. وكان كثير من سكان يهودا قد فروا الى مصر حيث استقر أغلبهم بالعاصمة ممفيس وتأسست مستعمرة عسكرية يهودية حوالي سنة ٥٨٨ قبل الميلاد في منطقة فيلة (ألفنتين) عند الشلال الأول على نهر النيل*.

وقد تحطمت المعتقدات اليهودية القديمة، إذ لم يدافع يهوه عن صهيون، ولم يحكم آل داود، الى الأبد، ووجد المنفيون في مصر وبابل حضارات تفوق حضارتهم بمراحل فأتركوا بعدد ما عاشوا في هاتين الامبراطوريتين العظيمتين كم كانت يهودا صغيرة. فهل يمكن إذن أن تكون نزلة صغيرة كدولتهم محل اختيار الله العظيم.

(*) هناك شكوك كثيرة تحيط بحقيقة الانتماء اليهودي لهذه الهمامية التي إستقرت في ألفنتين وللزميل الدكتور محمد حسن الهواري أستاذ الديانة اليهودية بأداب عين شمس دراسة علمية تنفي هذا الادعاء نشرها على الانترنت (الم.ج.م).

ويخط إشعيا الذى يظهر أنه عاش فى هذا الوقت، سطرًا جديدًا يصف فيه يهوه بأنه رب العالمين وخالق الكون^(١). وهكذا من أعماق الكارثة نرى بداية الديانة اليهودية الروحانية. واذ كان اليهود قد حرموا من الهيكل كنقطة جغرافية يلتفون حولها، فقد أصبحت مراعاة الشريعة الدينية هي العلامة المميزة لليهودى^(٢). وقد تميز المجتمع اليهودى فى بابل بالنشاط الفكرى العظيم، وأعيدت كتابة أسفار موسى الخمس (الأسفار الخمسة الأولى فى العهد القديم) وأدخل سفر اللاويين على التوراة لتسجيل الطقوس الدينية للهيكل الذى دمر.

وبعد وفاة «نبوخذ» ناصر قامت الانشقاقات الطائفية الداخلية فى بابل وتبادلت الأيدي العرش ثلاث مرات فى بحر سبع سنوات. وانتهى الأمر سنة ٥٣٩ قبل الميلاد باستيلاء قورش الفارسى على بابل وامبراطوريتها من أقصاها إلى أدناها. وكان قورش واحدا من حكام العصر القديم المستنيرين^(٣)، فأعلن التسامح الدينى العام، وأعاد الاعتبار لآلهة بابل. وفى سنة ٥٣٨ صرح بترميم الهيكل فى أورشليم، فكانت سياسته على النقيض من وحشية الآشوريين والبابليين. واكتشف اليهود فى المنفى خبرة روحانية فى الفارسيين الذين كانوا غير مشركين وكانوا لا يعبدون الأصنام، بل كانوا يعتقدون أن الدنيا منقسمة عن طريق النضال المستمر بين القوى الروحية للخير والشر. كما استتبط اليهود من الفرس فلسفتهم فى البعث والحساب^(٤).

وكانت الجماعة الأولى التى عادت إلى أورشليم جماعة صغيرة «وبقى كثير من اليهود فى بابل لأنهم آثروا ألا يتركوا ممتلكاتهم»^(٥). ويقدر برايت سكان يهودا

(١) سفر إشعيا الاصحاح ١٢/٤٠ . ٦٤٤

(٢) من هذه النقطة وصاعدا نستطيع أن نتحدث عن اليهود إختصارا لليهودا.

(٣) جون رايت، تاريخ اسرائيل.

(٤) الساخام ويتين: رد فعل الأميين للمثل العليا اليهودية.

(٥) فليفيوس يوسيفوس: آثار اليهود، الكتاب الحادى عشر.

فى ذلك الوقت بعشرين ألف نسمة، إلا أن هذا العدد كان يضم جانباً من جماعات الأيمن. ولم تبدأ عمارة الهيكل إلا فى عام ٥١٦ قبل الميلاد، أى بعد انقضاء عشرين عاماً على عودة أول جماعة يهودية إلى أورشليم. ولا نعلم شيئاً بعد ذلك عن الأحداث فى يهودا طوال سبعين سنة. وكانت سوريا وفلسطين تشكلان معاً مقاطعة واحدة من المقاطعات العشرين فى الأمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف. وكان يحكم مجتمع القدس الصغير الكاهن الأعظم.

وعلى العكس من ذلك، انتعشت الطائفة فى بابل وفارس انتعاشاً عظيماً وكان كثير من أعضائها على درجة كبيرة من الثراء، بينما شغل بعضهم مناصب هامة فى الحكومة أو البلاط، وفى مصر أخذ عدد اليهود فى الازدياد، كما كانت هناك طوائف يهودية فى آسيا الصغرى. وربما بلغ سكان يهودا عام ٥٤٥ قبل الميلاد خمسين ألفاً، وقد أعيد بناء ثلاث أو أربع مدن فى الريف، إلا أن عدد السكان فى أورشليم كان قليلاً.

كان نحميا ساقى الملك لارتخشتا الأول (٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م). ويروى الاصحاح الثانى من سفر نحميا بياناً حياً مشرقاً عن كيفية حصوله على الإذن ببناء أسوار أورشليم حيث سافر يحمل خطابات من الملك ومعه حراسة عسكرية إلى أورشليم حوالى سنة ٤٤٠ قبل الميلاد. وحيث أنه كان قائداً بطبيعته فقد جمع أهالى المنطقة وأصلح أسوار المدينة. وكانت يهودا مقسمة بين السامرة وإيدوميا وفلسطين التى رفض حكامها أن يفرطوا فى أى جزء من أرضهم. ومع هذا، يبدو أن «أرض الميعاد» نظمت من جديد فى منطقة منفصلة وأن نحميا عين حاكماً عليها، ولم يسجل تاريخ وفاته، إلا أن المعلوم هو أن حاكم «أرض الميعاد» سنة ٤١١ قبل الميلاد كان موظفاً فارسياً.

وكان «عزرا» (وليس نحميا) هو الذى غير تاريخ يهودا، ويحتمل أنه وصل إلى اورشليم حوالى عام ٣٩٧ قبل الميلاد، ومعه تفويض ملكى باصلاح ديانة يهود. وكان خبيرا فى القانون وكانت أسفار موسى الخمسة التى استعان بها مختلفة الى حد ما عن الأسفار الحالية، وإن كانت من الأرجح تشبهها بدرجة كبيرة.

وكان التأكيد الأساسى فى اصلاحات عزرا منع الزواج بين اليهود وبقية البشر، أى أنه كان على «الجنس المقدس»، منذ ذلك الوقت وصاعدا، أن يكون فى معزل عن بنى البشر. ويهمل باخلاص كثير من المعلقين على التوراة لاصلاحات عزرا، إلا أن القس ويليام نيل يذهب إلى حد المناداة به «متعصبا مقدسا»، بل أن الحاخام ريزين يرميه بضيق الأفق، ومع هذا، فإن حركة الاصلاح التى بدأها لاتزال ملموسة الأثر حتى يومنا هذا.

وكان منع الزواج المختلط فكرة جديدة تماما، فقد كان لبنى اسرائيل مطلق الحرية فى الزواج من أهل البلاد على مدى ثمانمائة عام. والظاهر أن عزرا كان رجعيا، اذا ما استخدمنا اصلاحطا «حديثا»، وأراد أن يبعث أيام يشوع من جديد فى محاولة لإحياء احتقار الغزاة القديم «لأهل البلاد».

وتلقى اصلاحات عزرا، اليوم، معارضة من الرأى العام لأن فكرة وجود جنس سام يتلوث دمه إذا ما اختلط مع دم الآخرين لم تعد فكرة محببة بعد. ولم يكن هتلر مبتكرا فى مفهومه عن «الجنس السائد»، فقد قيل أن ارسططاليس أخبر الاسكندر الشاب بأن العلاقة بين الاغريق والأجناس الأخرى أشبه بالعلاقة بين الانسان والحيوان، وهكذا نرى أن التكبر المتعصب لطائفة مفردة تظن فى نفسها أنها أسمى من بقية البشر أمر لم ينته قبول غرور بنى الانسان له أبدا.

ويظهر عزرا نرس التشوش بين الجنس والدين، وكأنما هو بذلك يحيط اليهودية بضباب كثيف. وكان يتكلم بغير دقة عندما يصف اليهود كجنس مقدس، ذلك لأنهم كانوا من الناحية السلالية قد أصبحوا خليطا من شعوب شتى فى

الشرق الأدنى، بينما يقع الاختلاف بين هؤلاء الذين يعبدون يهوه وأولئك الذين لا يعبدونه.

ولقد وضعت اصلاحات عزرا الخاصة بالزواج موضع التنفيذ الصارم، فطلقت الزوجات الأجنبية، وأنكر الاعتراف بشرعية أولادهن. أما ما كان من أمر ضحايا هذه «البيوت المحطمة» فذلك ما لم يقدم عنه أى إيضاح. وبذا قضى عزرا بأن الانعزالية التى نتج عنها بالتدريج حاجزا متزايدا من المبادئ والممنوعات إنما كانت تهدف إلى فصل أولئك الذين اعتنقوا الديانة اليهودية عن بقية البشر.

إلا أنه ينبغى لنا ألا ننسى أن الديانة اليهودية لم تكن مقصورة على يهودا أو فلسطين دون غيرهما، ومن الأرجح أن يكون تعداد اليهود خارج فلسطين أكثر فعلا من عدد سكان يهودا. وتبدى الديانة اليهودية منذ ذلك الوقت اتجاهين متعارضين، فاليهود المنتشرون فى أنحاء العالم صاروا هم المدافعين عن الرأى المتحرر لجميع الشعوب، بينما أصر الآخرون على إنعزالية «الأمة المقدسة».

وأحيانا ما يستشهد مفسرو العهد القديم بسفر اللاويين الاصحاح التاسع عشر: ١٨، «بل تحب جارك كنفسك» للتدليل على الفضيلة الفريدة لبنى إسرائيل الأوائل باعتبارهم «شعب الله». وتدل كلمة جارك فى نظر القبائل العربية على «رجل القبيلة» ويجرى النص الكامل للآية ١٨ من الاصحاح التاسع عشر فى سفر اللاويين على هذا النحو «لاتنتقم ولا تحتد على أبناء شعبك بك تحب جارك كنفسك»^(٦). وهكذا يظهر النص وكأنه لا يهدف إلى فعل ما فيه خير الانسانية، بل يهدف إلى تأمين التضامن القبلى فى مواجهة العالم.

وإذا ما أضحت الديانة اليهودية أكثر روحانية ظهر معنى الجار مسيبا للشك كما يتضح من السؤال الموجه من المسيح الى الرب^(٧). وإذ يسوق المسيح فى إجابته

(٦) النص المعدل.

(*) جاء فى طبعة الكتاب المقدس طباعة القاهرة / ١٩٦٦ كلمة «قريبك» بدلا من «جارك».

(٧) سفر لوقا الاصحاح العاشر / ٢٩.

أمثولة السامرى الصالح، فإنه بذلك يفسر كلمة الجار وكأنها تعنى بنى الانسان
جميعا ولكنه كان من نفس هؤلاء السامريين من طالبهم عزرا بالانعزال التام.

وتصر الديانة اليهودية والديانة المسيحية والديانة الاسلامية، سواء بسواء، على
الأمر بالشفقة والحنو والحب والاحسان والتواضع، ويمارس المؤمنون بهذه الأديان
الثلاثة تلكم الفضائل فيما بين طوائفهم، إلا أنهم ظلوا قرابة ألفى سنة يفسرون
كلمة «الجيران» على أساس زملائهم فى عقيدتهم فقط، فاليهود يعتبرون
المسيحيين وحوشا كاسرة بينما يصور المسيحيون المسلمين فى صورة المتعصبين
المتزنتين. زكم كان العالم سيكون مختلفا لو أنهم فسروا كلمة الجيران بحيث
تعنى كافة بنى الانسان! وهكذا تبدو أمثولة السامرى الصالح وكأنها أهم أمثولة فى
الانجيل وفى نفس الوقت أقلها مراعاة..

ولهم تسلّم انعزالية عزرا من المعارضة حتى فى يهودا نفسها. ويبدو سفر
راعوث وكأنه نشرة مضادة للتمييز العنصرى كتبت حوالى ذلك الوقت، وخاصة أن
التي قامت بدور البطلة فيها جدة داود المؤابية. بل ان سفر يونان أشد اثارا للدهشة.
ويبدو أن قلة ادراكنا لهذه الأمثلة الممتعة، هى دليل على التمسك العقيم بحرفية
عصرنا العلمى، لأن انتباهنا يتركز حول ما إذا كان الحوت يستطيع أن يبلع الانسان
أو أنه لا يستطيع أن يبتلعه، ويونس والذى إسمه يعنى «حمامة»، وهى رمز تقليدى
لاسرائيل^(٨) قد أمر بالوعظ فى نينوى الشريرة. فهو بالتالى يمثل اسرائيل، المعنية
بالعمل على تعريف العالم بالله. إلا أنه لا يود القيام بهذا العمل، ويحاول الهرب،
فيلقى به فى اليم ويتلعه الحوت - الأسر البابلى - واذ يعود الى وطنه بمعجزة،
يتوجه إلى نينوى التى تندم وتتوب من فورها. والمغزى الأدبى واضح - فلو أن
اسرائيل كانت مطيعة، إذن لاستطاع العالم بأسره أن يغير دينه - إلا أن الانعزاليين

(٨) القس ويليام نيبيل، تعليق على الكتاب المقدس.

فى أورشللم كانوا يتجهون ووجهة مضادة ففصلوا أنفسهم عن العالم الخارجى ..
وهذان الاتجاهان كانا سيستمران ويدومان بالمثل فى اليهودية وهما: الولع بالهداية
والاندفاع الى الإنعزالية.

وقد الى تحول نينوى أكثر الصور التى تكشف النفس البشرية، حيث غضب
يونس عندما أفلحت عظامه وأتت ثمارها، لأن الشعور بالشعب المختار الذى يسمو
على سائر البشر، كان حريا بأن يشيع حالة من الكبرياء أكثر مما تشيعه رؤية العالم
كله، وقد تغير دينه فأصبح على قدم المساواة مع الشعب المختار. وليست هذه العقلية
مقصورة على اليهود دون غيرهم، لأن تاريخ الكنيسة يعرض لنا مناسبات لاتدخل
تحت حصر من هذا الكبرياء الزائف بالذات.

وينتهى سفر يونان وهو يشير الى أن الله يحب جميع مخلوقاته، فهو لا يحب
أهل نينوى الأشرار وحدهم، بل يحب أنعامهم كذلك، إننا هنا على عتبة المبشرين
بالإنجيل^(٩). تلك اجابة اليهودية المتحررة على إنعزالية عزرا الضيقة.

* * *

تصادف حكم ارتاكسر كسيس الأول (٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م) فى اليونان مع عصر
سقراط وقدياس، وبلاتو، وبركليز، وأشيلليوس، أى العصر الذهبى للنحضارة
الإغريقية. وفى تلك الحقبة الذى كان التجار اليونانيون قد وطلدوا أنفسهم فى
الشرق الأدنى بدأت الأفكار الاغريقية تصطدم مع الأفكار السورية. وفى نفس
الوقت بدأت الامبراطورية الفارسية فى التدهور، ولكن الطبيعة المشوشة للديمقراطية
اليونانية جعلت امتداد النفوذ اليونانى أمرا مستحيلا. وحدث فقط عندما سيطر
فيليب المقدونى على الجمهوريات اليونانية أن أصبح الفتح الأجنبى ممكنا. وفى عام
٣٣٤ قبل الميلاد عبر الاسكندر بن فيليب البحر الى آسيا الصغرى وهزم دارا الثالث
فى اسوس^(١٠) ولكنه لم يطارد فلول الجيش الفارسى. وقد أدرك الاسكندر (كما

(٩) مقدمة للأنبياء فى التوراة.

(١٠) خريطة (١٠).

تدرك روسيا اليوم) أن الامبراطورية العالمية تتطلب السيادة البحرية على شرق البحر الأبيض المتوسط. وعندما سار جنوبا محاذيا الساحل استولى على موانئ صور و غزة، ثم احتل مصر دون أن يلقي أية مقاومة تقريبا. وفي شتاء ٣٣٢ - ٣٣١ ق.م أنشأ ميناء عظيمًا في الاسكندرية. وفي سنة ٣٣١ قبل الميلاد اتجه شمالا حيث أباد الجيش الفارسي في أربلا وضم الامبراطورية الفارسية إلى أملاكه فانتقلت منطقة يهودا تلقائيا من الحكم الفارسي الى الحكم اليوناني. ولما مات الاسكندر الأكبر في بابل سنة ٣٢٣ ق.م. وهو في الثالثة والثلاثين من عمره سقطت امبراطوريته المتراصة الأطراف، وانتهى الأمر في النهاية الى ظهور إمبراطوريتين، فكان سلوقس الأول نيكاتور، وهو واحد من قادة الجيش اليوناني، حاكما على بلاد فارس وبابل وسوريا وأسيا الصغرى، واتخذ عاصمته في انطاكية. وكان منافسه ضابطا مقدونيا اسمه بطليموس، نصب نفسه امبراطورا على مصر وليبيا وقبرص وفلسطين.

وعلى امتداد ثلاثة قرون تقريبا كانت المنافسة بين السلوقيين والبطالسة بالغة أشدها، وكانت للسلوقيين امبراطورية أرضية، وللبطالمة قوة بحرية انعقدت لها السيادة على شرق البحر الأبيض المتوسط. واذ طالب الجانبان المتنافسان بضم يهودا وجدت الأخيرة نفسها منطقة على الحدود متنازعا عليها، تماما كما كانت محل نزاع بين مصر وآشور، وانتهى الأمر حينئذ الى أن بقيت تحت حكم مصر من عام ٣٠١ إلى عام ١٩٨ قبل الميلاد.

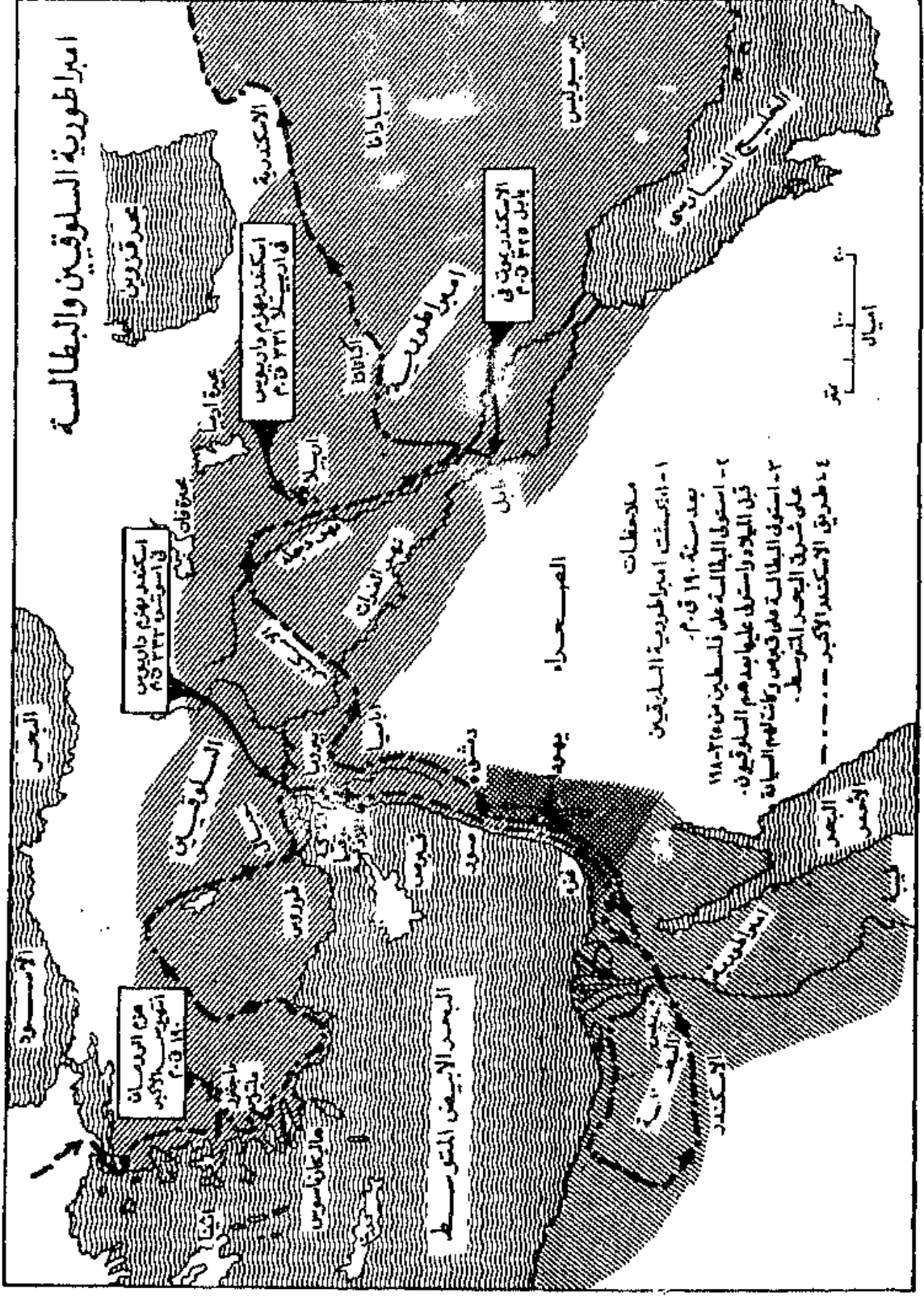
ولم تكن انتصارات الاسكندر هي كل حقيقة أمره، بل أن سعة أفقه كانت حقيقة واضحة تميز بها، فلقد كان يعارض النزعات الوطنية الاقليمية وكان يحث رجاله كي يتزوجوا من بنات فارس لينصهر الجنسان بالمصاهرة. ولم يكن متسامحا فيما يتعلق بالديانات وحسب، بل كان يبذل كذلك جهودا نشطة لانهاء الكراهية

الطائفية والدينية. وبالمثل كان البطالسة والسلوقيين متسامحين بالنسبة للأديان على حد سواء؛ وكانت لليهود الحرية المطلقة في العيش والعبادة كما يحلو لهم.

وحاولت كلا الامبراطوريتين إغراء أهل اليونان على الهجرة الى سوريا ومصر حيث كانت الكتائب اليونانية بمثابة العمود الفقري لجيوش كل منهما. وتدفق اليونانيون من رجال الأعمال ومن المستوطنين على الشرق الأوسط وأخذوا يبنون المدن لتي كانت يسكنها اليونانيون بالكامل تقريبا.

وقد ارتقى بطليموس الخامس ابيفابيس^(١١) (٢٠٤ - ١٨١ ق.م) العرش وهو في الخامسة من عمره، وكان معاصره هو السلوقي أنطوخيس الثالث الكبير، الذي هزم جيش بطليموس الخامس سنة ١٩٨ ق.م. في «بانيوم» (بانياس الحالية)، واستولى السلوقيون على فلسطين. إلا أن قوة جديدة أخرى كانت تزحف من الغرب، وفي سنة ١٩٠ ق.م. هزم الروم أنطوخيس في «ماجنيزيا» مما اضطره للارتداد الى شرق «طوروس» وبذا أصبحت أقاليم آسيا الصغرى تابعة للروم. والأدهى من ذلك وأمر، أن السلوقيين أجبروا على دفع تعويضات باهظة أدت إلى أفلاس امبراطوريتهم، منذ ذلك الوقت وصاعدا تجنّب الروم الحرب وحاولوا تدمير السلوقيين عن طريق الدسائس والمكائد، واضطر سلوقس الرابع فيلوباتور بن أنطوخيس الثالث لأن يرسل ابنه «ديمتريوس» رهينة الى روما. وفي سنة ١٧٦ ق.م. قتل أنطوخيس الرابع واعتلى العرش أخوه أنطيوخس الرابع ابيفانسس. وكان حاكما حاد الذكاء يتمتع بصفات خلاه ومحادثة جذابة فواجه الواجب الهائل، واجب لحفاظ على سلامة امبراطوريته غير المتجانسة مع استمرار دفع التعويضات لروما. إلا أن روما لعبت دوراً مزدوجاً فطالبت بمزيد من التعويضات بينما حرصت رعايا أنطوخيس على الثورة ضد الضرائب الفادحة التي كان أنطوخيس في شديد الحاجة اليها لدفع التعويضات.

(١١) شجرة البطالسة.



- ملاحظات
- ١- اكتشفت امبراطورية السلوقيين بعد سنة ١٩٠ ق.م.
 - ٢- استولى البطالسة على فلسطين من ٢٤٥-١١٨ قبل الميلاد واستولى عليها بعدهم السلوقيون.
 - ٣- استولى البطالسة على قبرص وكانت لهم السيادة على شرق البحر المتوسط.
 - ٤- طريق الإسكندرية الأكبر - - - - -

خريطة (١٠)

وقد سعى أنطوخيووس الرابع إلى تحقيق تماسك امبراطوريته عن طريق ربط مشترك بواسطة الحضارة اليونانية، وكانت سوريا، قلب الامبراطورية، تمتد من الساحل ونهر العاصى الى نهر الفرات بما فى ذلك، المدن اليونانية وهى انطاكية، سلوقيا، ولاديكيا (اللاذقية الحالية)، وأباميا^(١٢). وفى فلسطين تحول السهل الساحلى الى منطقة يونانية امتدت عليها المدن اليونانية: بطليموسية (عمكا الحالية) وأبولونيا، وبويا (يافا) وأزوتس (أسدود) وعسقلان وأنتيدون، وغزة، ورافيا (رفح)، واستوبولس (بيسان) وكانت هذه المدن تضم كثيرا من السكان اليونانيين. وأعيد بناء سينيبست (السامرة) على النمط اليونانى. وكان فى شرق الأردن عشر مدن يونانية (أطلق عليها اسم ديكابولس) هى: فيلادلفيا (عمون أو عمان الحالية)، وفيلوتريا، وأرسينو، وبيلا (خرابة الفحل الحالية)، وديون، وجراسا (جرش الحالية) وجدارا (أم قيس) وهيبوس، ويوسرا. وكان هذا التدفق اليونانى سببا فى تغيير التكوين السلالى لسوريا ولبنان والسهل الساحلى فى فلسطين حتى يومنا هذا^(١٣).

وكانت يهودا دولة معبد، وكان هناك كثير مثلها فى الامبراطورية وكان الحاخام الأكبر يلتزم بالضرائب الامبراطورية للملك السلوقى. ويعزى التدخل السلوقى الى دسياسة يهودية محلية، حين تشاجر شمعون (سيمون)، أحد موظفى المعبد، مع أويناس الثانى الحاخام الأكبر، واقترح على الحكومة السلوقية أن تستولى على كنوز المعبد، فهوجم الضابط الذى أرسل للتحقيق فى ذلك الأمر وأصيب بجراح نتيجة لذلك.

وفى أثناء ذلك كان صبيغ أورشليم بالصيغة اليونانية قد بدأ على أيدي اليهود أنفسهم، ولم يكن ذلك من قبيل التتكر للديانة اليهودية، بل لأن اليونان كانت هى الدولة القائدة فى ذلك الوقت، على نحو ما كانت عليه الولايات المتحدة

(١٢) خريطة (١٠).

(١٣) تاريخ كمبريدج القديم المجلد السابع والفصل الخامس.

كل التواريخ قبل الميلاد

سلالة السلوقيين

سلوقس الاول نيكاتور (٣١٢ - ٢٨١)
• أنتيوخس الاول سوتر (٢٨١ - ٢٦٤)
أنتيوخس الثاني تيموس (٢٦٤ - ٢٤٧)
سلوقس الثاني كالينيكس (٢٤٧ - ٢٢٦)

سلوقس الثاني سوتر (٢٢٦ - ٢٤٣)

أنتيوخس الثالث الاكبر (٢٢٣ - ١٨٧)

سلوقس الرابع فيلباتور (١٨٧ - ١٧٦)

أنتيوخس الرابع ايناش (١٦٧ - ١٦٣)

ديمتريوس الثاني نيكاتور (مات طفلاً)

أنتيوخس الخامس أو باور (١٦٣ - ١٦٢) (ظلم)

ديمتريوس الثاني نيكاتور (١٤٥ - ١٤٠ - ١٢٩ - ١٢٦)

المتصل
الكندي والامس (دعوى بنته أنتيوخس الرابع)
(١٤٥ - ١٥٠)

ديمتريوس الثالث فيلباتور (١٢٦ - ١١٦)

أنتيوخس السادس ايقيانس ديمتريوس
(١٤٥ - ١٤٣)

بعد ذلك اقتتل الاسماء السلوقيون الى أن جعل

بومبي سوريًا ولاية رومانية سنة ٦٤ ق.م

ديمتريوس الثاني نيكاتور وأنتيوخس السادس ايقيانس
كانا يحكمان من ١١٤٥ الى ١٤٣ وقد انهمكا في حرب أهلية.

الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى ذلك فكان تقليد اليونانيين يعتبر تعصرا، وعدم تقليدهم يعتبر تخلفا وتأخرا.

وسرعان ما بدأت مكيدة أخرى، فقد أغرى جاسون (لاحظ الأسماء الاغريقية) شقيق أوناس الثانى، الحكومة السلوقية لتنصيبه حاخاما أكبر (الكاهن الأعظم) فى المنصب الذى كان يشغله شقيقه. ولقاء ذلك يؤيد المريدين إدخال الهلينية الى أورشليم. وأخذ الفتية اليهود يلبسون القبعات اليونانية (قبعة الإله عطارد) ويزاولون الألعاب الرياضية وهم عراة فى «الجيمينيزيوم» مما أسخط اليهود المحافظين المتزميتين؛ لأن شغوب الشرق الأوسط كانوا شديدى التحفظ والتزمت بالنسبة لعرى أجسامهم. كما اشترك وفد يهودى فى احتفال هرقل فى صور (وهرقل هذا هو صديقنا القديم إله إيزابل الذى سمي بإسم يونانى لطيف). وهكذا، فإن مبادرة صينغ أورشليم بالصبغة الهلينية لم يفكر فيها أنطوخيوخوس، بل اتخذتها فئة من اليهود أنفسهم^(١٤).

وفى سنة ١٧٢ قبل الميلاد أحس أنطوخيوخوس بنية بطليموس غزو فلسطين فتحرك على رأس جيش إلى يوبا، وزار أورشليم حيث لقي ترحيبا ملكيا من جاسون فى احتفال كبير بالمشاعل، لكن دسائس جديدة مزقت أورشليم. ففى عا ١٦٩ رقبل الميلاد أعزى مينيلوس وهو شقيق شمعون الذى سبق ذكره، إلى الحكومة لكى تجعله حاخاما أكبر (الكاهن الأعظم)، مع أنه لم يكن ينتسب حتى إلى قبيلة ليفى. وفر جاسون الى عمون.

وبينما كان أنطوخيوخوس قائما بحملته فى مصر عام ١٦٩ قبل الميلاد، عاد جاسون واستولى على أورشليم ذبح أنصار مينيلوس. وانزعج أنطوخيوخوس من هذه القلاقل التى طرأت فى غيبته، خاصة وأنه كانت فى أورشليم جماعة موالية

(١٤) تاريخ كمبريدج، القديم، المجلد الثامن.

للمصريين. وقع الملك الذي كان عادة رجلاً ودوداً في خطأ فاحش. فقد كانت الامبراطورية تضم كثيراً من المجموعات الدينية الصغيرة تدين لها بالولاء. أما في يهودا فقد بدا أن الدين هو الذي يشير عدم الولاء. ولم يكن الأمر كذلك، ولكن كان سبب جميع القلاقل هو تنافس المطالبين بوظيفة الحاخام الأعظم. ونظراً لوجود حزب هلليني بالفعل في أورشليم فقد صمم أنطيوخس على أن يعجل بصيغ البلاد بالهللينية بالقوة. ومع هذا الأمر أدخل أنطيوخس محاولة لطمس الديانة اليهودية. وربما كان أنطيوخس سينجح لو أنه اقتصر على حركة صيغ البلاد بالهللينية وترك الديانة وشأنها. ولكنه تعجل الأمر وكانت روما تترصده به.

وقد احتلت القوات حصناً على جبل صهيون، وحرمت عملية الختان، واعتبر تحريم أكل لحم الخنزير جريمة لا تغتفر. وفي شهر ديسمبر سنة ١٦٧ قبل الميلاد منعت القرابين اليومية عن المعبد ونصب تمثال جيوثر في الهيكل، فكان هذا العمل اضطهاداً دينياً، ولم يقدم أنطيوخس على هذا العمل لأنه كان يحبذ أية ديانة أخرى، لكنه أقدم عليه لأنه ظن أن الديانة اليهودية هي مصدر القلاقل السياسية.

وقد ظهر حاخام صغير في إحدى القرى، اسمه مكابي من أسرة حشموناي من سبط هارون كان موظفاً حكومياً بينما كان يقدم قربانا وثنياً في قرية مدين^(١٥). ثم اتجه هو وأبناؤه الخمسة صوب التلال وأغاروا على القرى الأخرى وقتلوا اليهود المتشبهين باليونانيين. وفي عام ١٦٦ أو ٢٦٥ قبل الميلاد توفي متاتياس (متتياهو) وتولى القيادة من بعده ابنه الثالث يوحانان الشهير باسم يودس (يهودا) المكابي (أبي المكابي ذو القبضة الحديدية) وكان الفلاحون اليهود في عام ١٦٠ قبل الميلاد أشبه بالفلاحين «العرب» في عصرنا هذا. وحين كتب يوسيفوس بعد أكثر من مائتي عام مؤلفه، فقد استطاع أن يقول «لسنا شعباً تجارياً».

(١٥) خريطة (١١).

وأغلب الظن أن سفر دانيال كتب في ذلك العهد، وكان يكنى أنطوخوس
بعبارة «القرن الصغير»، ويشير إلى تمثال جيوبتر المقام في الهيكل بعبارة «معصية
الخراب (رجس المحرب)»^(١٦). وكان ناجح معاناة اليهود أن ذكرت كلمة «الخلود»
لأول مرة في المصادر اليهودية^(١٧).

وتوفى أنطيوخس في أصفهان عام ١٦٣ قبل الميلاد، وفي نفس الوقت
أجرى ليسياس نائب الملك تسوية مع اليهود، وصار الياكيم (السيموس باليونانية)
الحاخام الأكبر (الكاهن الأعظم)، واستؤنفت الصلوات في المعبد، ونصب
أنطوخوس أوباتور ملكا. إلا أن ديمتريوس وصل من روما سنة ١٦٢ ق.م. فقتل
أوباتور وجلس على العرش^(١٨) وبعث السيموس الحاخام الأعظم مفوضا إلى
ديمتريوس للشكوى من الحشمونيين وكانت عصاياتهم ماضية في نشاطها تحت
قيادة يوحانان المكابي، كما أرسل الحشمونيون إلى روما حيث حصلوا على
معاهدة مائة تحمل أكثر من معنى، وكانت تلك مكيدة رومانية لتقويض
السلوقيين.

وفي أورشليم بدأ الموقف طبيعيا، فعاد التسامح الدينى، إلا أن عصايات
الحشمونيين كانت لاتزال قائمة، بل أنها أوقعت قوة سلوقية في كمين عند بيت
حورون، فسارع ديمتريوس بإرسال القوات التى هزمت العصايات وقتل يوحانان
المكابي، وبقي على قيد الحياة إبنان فقط من أبناء مقايياس (المكابي)، هما:
شمعون ويوناتان.

(١٦) سفر دانيال الاصحاح الثامن وما بعده.

(١٧) سفر دانيال الاصحاح الثانى عشر / ٢، ٣.

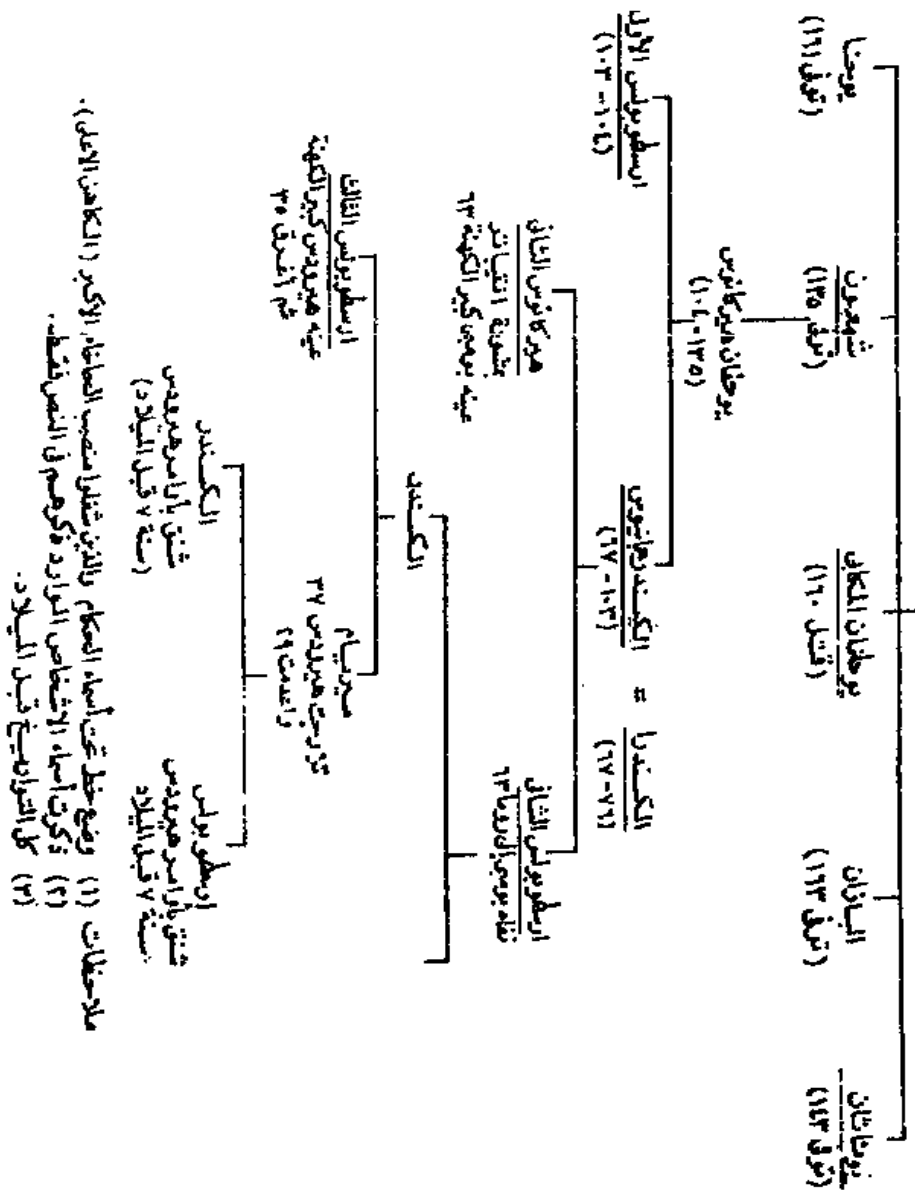
(١٨) شمعة سلالة الحشمونيين.

وقد كان ديمتريوس أهلا لإرضاء الروم الذين أرسلوا المدعو الكسندر بالاس للمطالبة بعرض السلوقيين. وطلب كل من ديمتريوس وبالاس المساعدة من يوناتان الحشمونى، الذى وجد نفسه على حين فجأة يتردد اليه الملوك بعد أن كان نائرا. وساعد يوناتان الكسندر الذى جعله الحاخام الأعظم. وكان لدى الكسندر ميزة العجز، بينما ديمتريوس شجاعا بارعا. وفى عام ١٥٠ قبل الميلاد سقط ديمتريوس وهو يقاتل فى الحرب، وأصبح الكسندر بالاس ملكا، إلا أن ديمتريوس الثانى بن ديمتريوس الأول هزم الكسندر وصار هو ملكا عام ١٤٥ قبل الميلاد. وقد حظى بتأييد يوناتان الذى استغل القوضى الضاربة ليقتل مؤيدى السلوقيين من اليهود. وكانت الامبراطورية المتداعية قد نبذت أصدقاءها لتؤيد الوطنيين المتطرفين - وتلك عملية مألوفة فى وقتنا الحاضر.

وفى عام ١٤٥ قبل الميلاد ثار ابن بالاس وتحول يوناتان لتأييده، وفى مقابل ذلك عين شمعون شقيق يوناتان حاكما على سوريا الجنوبية، واستخدم الجنود السلوقيين لزيادة الرقعة التى تتولاها هذه السلالة الجديدة. وفى عام ١٤٢ قبل الميلاد قام مغامر جديد اسمه تريفون فجعل من نفسه حاكما مطلقا على سوريا، وألقى القبض على يوناتان بينما كان فى زيارة لبطليموسية ثم قتله. واستولى شمعون على السلطة فى يهودا وعرض خدماته على ديمتريوس الثانى.

وفى مايو عام ١٤١ قبل الميلاد استسلمت الحامية السلوقية فى اورشليم ووجدت يهودا نفسها مستقلة. وفى شهر سبتمبر عام ١٤٠ قبل الميلاد جعلت الجمعية اليهودية (السنهدرين) وظيفة «الحاخام الأعظم» وراثية فى أسرة حشموناي، ورسم شمعون حاخاما وقائدا عاما، وأميرا على شعب الله وفتحت مدينة يونا اليونانية (يافا) وضمت الى يهودا.

شجرة سلالة العثمانيين



وفى عام ١٣٨ قبل الميلاد اغتيل شمعون بيد زوج ابنته، إلا أن ابنه جون (يوحانان) هيراكينوس استولى على السلطة. وفى نفس السنة استرجع أنطوخوس السابع السلوقى يوبا ثم استرد أورشليم، ولكنه سمح لليهود بالاحتفاظ بمدينة يوبا. وفى سنة ١٢٩ قبل الميلاد قتل أنطوخوس السابع وعمت الامبراطورية الفوضى فاستقل كثير من المدن اليونانية، وكانت هناك طائفة عربية تعمل بالتجارة تحت اسم النبطيين كانت تتخذ لها قاعدة فى بتر، وقد تمكنت هذه الطائفة من الاستيلاء على السلطة فى شرق الأردن. وقد حكم الحشمونيون يهودا حتى عام ٣٨ قبل الميلاد. ومع أن بداية حكمهم اتخذت طابع الثورة الدينية، إلا أن عهدهم تميز بالعداء الشديد بينهم وبين اليهود الأتقياء الذين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت باسم (الحسيديم)، إلا أنهم كانوا معروفين وقتئذ باسم «الفريسيين».

وعلى نحو ميلاد اسرئيل الجديدة العسكرية العدائية من الاضطهاد النازى، أحالت المقاومة الأصيلة ضد أنطوخوس الرابع يهودا الى ولاية عسكرية عدوانية متعصبة. وهاجم يوحانان هيراكينوس كل جيرانه، الذين كانوا حتى ذلك الوقت يشكلون إيلات تابعة للامبراطورية السلوقية، وكانوا يفتقرون إلى التنظيم العسكرى. كما قام بغزو الأدوميين (وكانوا يعرفون فيما مضى باسم الايدوميت) الذين كانوا يستوطنون الخليل فى الجنوب. ولكى يزيد يوحانان هيراكينوس من أعداد جيشه حول الأدوميين قسرا للديانة اليهودية - وهى سياسة جديدة تؤكد بطلان أية دعوى يهودية بالوحدة الجنسية العرقية.

وحوالى عام ١٠٨ قبل الميلاد استولى هيراكينوس على مدينة السامرة، وكانت أغليبتها السائدة من اليونانيين. فذبح جميع سكانها، كما لقيت نفس المصير مدينة سيتوبولس (بيسان الحالية) وكان معظم سكانها هى الأخرى يونانيين. وتوفى يوحانان هيراكينوس عام ١٠٤ قبل الميلاد.

وقد نعمت يهودا تحت حكم الحشمونيين بفترة قصيرة من الاستقلال بين الامبراطوريات الأمر الذي يشبه كثيرا ما حدث بالشرق الأوسط في أيامنا هذه بين البريطانيين والروس. وقد رجب المتحمسون لنهاية الامبريالية وباستقلال الدول الصغيرة، إلا أن الدول الصغيرة في ذلك الوقت، مثلها مثل الدول الصغيرة في وقتنا هذا، استخدمت استقلالها في مهاجمة جيرانها.

«لا المكابيون ولا البارثيون هم الذين قهروا السلوقيين، بل إن روما هي التي قهرتهم»^(١٩). والواقع أن الدور الذي تلعبه روسيا اليوم أشبه بالدور الذي كانت تلعبه روما في الفترة من عام ٢٠٠ إلى عام ٦٤ قبل الميلاد، فهي لا تتورط في الحرب ولكنها تثير الحروب بصورة دائمة، تماما كما أجمت روما الشرق الأوسط الى فوضى شاملة قبل أن تدخله بنفسها.

تواريخ تستحق أن تذكر

٥٨٧ ق.م	الغزو البابلي
٥٣٨ ق.م	قورش يأذن بإعادة بناء الهيكل
٤٤٠ ق.م	نحميا حاكماً على يهودا
٣٩٧ ق.م	اصلاحات عزرا حوالى
٣٣٢ ق.م	الاسكندر يحتل مصر
٣٠١ - ١٩٨ ق.م	فلسطين تحت حكم البطالسة
١٦٩ ق.م	أنطوخيس الرابع يحاول طمس الديانة اليهودية
١٦٦ ق.م	ثورة الحشمونيين
١٦٠ ق.م	وفاة يوحانان المكابى
١٥٠ - ٦٤ ق.م	تحلل الامبراطورية السلوقية

(١٩) تاريخ كمبريدج القديم، المجلدين السابع والثامن.

البطالسة

٣٢٣ - ٢٨٢ ق.م	بطليموس الأول سوتر
٢٨٣ - ٢٤٦ ق.م	بطليموس الثاني فيلادلفوس
٢٤٦ - ٢٢١ ق.م	بطليموس الثالث أورجيتس
٢٢١ - ٢٠٤ ق.م	بطليموس الرابع فيلوپاتور
٢٠٤ - ١٨١ ق.م	بطليموس الخامس ايفانى
١٨١ - ١١٦ ق.م	بطليموس السادس فيلوميتور
١٧٠ - ١١٦ ق.م	بطليموس السابع أورجيتس (فيسكون)
١١٦ - ١٠٨، ٨٨ - ٨٠ قبل الميلاد	بطليموس الثامن سوتر (لايروس)
١٠٨ - ٨٨ ق.م	بطليموس التاسع الكسندر
٨٠ ق.م	بطليموس العاشر السكندر
٨٠ - ٥١ ق.م	بطليموس الحادى عشر فيلوپاتور فيلادلفوس نوى (أوليتس)
٥١ - ٤٧ ق.م	بطليموس الثانى عشر فيلوپاتور وأخته كليوباتره
٤٧ - ٤٤ ق.م	بطليموس الثالث عشر فيلوپاتور مع كليوباتره
٤٤ - ٣٠ ق.م	بطليموس الرابع عشر سيزاريون مع أمه كليوباتره (يقال أنه كليوباتره ويوليوس قيصر)
٤٠ قبل الميلاد	مصو تصبىح ولاية رومانىة

خاتمة

- ١ - بدأ نشئت اليهود عام ٥٨٧ قبل الميلاد مع الفتح البابلى.
- ٢ - غيرت ثلاثة أجيال فى بابل اليهود من فلاحين الى رجال مجريين وواسعى الخبرة بالحياة.

٣ - بدأ عزرا فكرة «الأمة المقدسة» التي يتلوث دمها بالتزاوج من بقية بني الانسان.

٤ - منذ ذلك الوقت انقسم اليهودية بين الانعزاليين والدوليين.

٥ - سرعان ما أصبحت الارستقراطية الكهنوتية بالفساد، وكانت دسائسها داعية لتدخل السلوقيين.

٦ - كانت ثورة يوحانان المكابي مثيرة على الورق، إلا أنها عندما أحرزت النجاح انتكست فأصبحت ثورة قاسية وعسكرية عدوانية.

الفصل السابع اليهود يملأون العالم

« هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل لكل السبي الذى سبيته من اورشليم الى بابل.. اينوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلو ثمرها. اخذوا نساء ولدوا بنين وبنات واخذوا لبننيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلوا. واطلبوا سلام المدينة التى سبيتكم اليها وصلوا لأجلها الى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام..»

سفر ايرميا الاصحاح التاسع والعشرون: ٤ - ٨.

« انتعشت الحياة اليهودية فى بابل اقتصاديا وروحانيا، كما تطورت فى مصر طائفة يهودية سعيدة مزدهرة بلغت مليونى من الأنفس فى القرن الأول من العصر المسيحى. ومنذ ذلك الوقت انتقل مركز الحياة اليهودية إلى بابل ومصر.»

موشى منوحن، «أقول اليهودية فى عصرنا».

« إن تشتتهم على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، واستخدام اللغة اليونانية التى اتخذوها وسيلة للتخاطب عندما طردوا من فلسطين، كل ذلك مهد السبيل لدعاية لم يسبق أن قدمت المجتمعات القديمة مثيلا لها.. وصار الدين اليهودى هو الدين الحق بمعنى الكلمة. وقد أعطى الحق لكل من يرغب أن يدخل فيه وسرعان ما صار إدخال أكبر عدد ممكن فى هذا الدين عملا من أعمال الورع والتقوى.»

إرنست رينان، «حياة يسوع».

الفصل السابع

تميل الأحداث في يهودا الضيقة الصغيرة الى توجيه الالتفات اليها وبالتالي إغفال اليهود في الدول الأخرى. ولكي نعدل الميزان ينبغي لنا أن نترك يهودا لوقت ما، لتتفكر في أمر يهود العالم.

بدأ الشتات مع الغزو البابلي عام ٥٨٧ قبل الميلاد (وكانت عشر قبائل من القبائل الاثنتى عشرة قد زالت من الوجود بالطبع عام ٧٢٢ قبل الميلاد مع الغزو الأشورى). وترك الغزو البابلي يهودا وقد نقص سكانها الى حد كبير بعد أن أرسلت الطبقة الحاكمة الى السبي. إلا أن كثيرا من اليهود فروا إلى مصر حيث استقر بعضهم في العاصمة ممفيس واستقر البعض الآخر في الأقاليم وتزوج كثير منهم من مصر.

وترتب على فتح الاسكندر لمصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد أن زادت الهجرة من يهودا، ويذكر يوسيفوس^(١) أن «الاسكندر اذ تلقى تأييدا ايجابيا شديدا ضد المصريين من اليهود، منحهم مكافأة على تأييدهم، وهى التصريح بالاقامة فى المدينة (الاسكندرية) مع مساواتهم باليونانيين الغزاة. «وقد تأيد هذا الامتياز من خلفائه الذين خصصوا لليهود، فضلا عن ذلك، حيا خاصا لسكانهم كي يتمكنوا، اذا ما قل اختلاطهم بالأغراب، من ممارسة أحكامهم على نحو أكثر كمالا ودقة، وسمح لهم أيضاً باتخاذ لقب المقدونيين، كما سمح لهم بعمل ادارة خاصة ونظام قضائى خاص، وبعبارة أخرى، كانت الطائفة اليهودية تشكل مدينة داخل المدينة تتمتع بسلطات مساوية من الناحية العملية لسلطات الاسكندريين»^(٢).

(١) فلافيوس يوسيفوس، «حروب اليهود»، الكتاب الثانى:

(٢) اش، آى، بل، «اليهود ر لسيحيين فى مصر».

ويجوز أن نذكر فيما يتعلق بالمعزل اليهودى (الجيتو)، الذى قام فيما بعد، أنه فى عام ٣٠٠ قبل الميلاد كان اليهود يفضلون أن يعيشوا فى مجتمع يهودى خاص بهم، رغم أنهم كانوا، فى ذلك الوقت، يتمتعون بامتيازات خاصة، وكانوا أبعد ما يكونون عن الاضطهاد.

كان سكان الاسكندرية يشكلون فئات أربع:

١ - المقدونيون - وهم طبقة تتمتع بامتيازات خاصة، ويفترض أنهم كانوا جنود الاسكندر القدامى.

٢ - الاسكندريون - وهم اليونانيون المقيمون فى الاسكندرية.

٣ - النزلاء الأجانب مثل الفرس.

٤ - أبناء البلد المصريين - الصناع والعمال، وكانوا لا يعتبرون مواطنين فى البلدة.

وكانت الاسكندرية مدينة مستقلة، من يصبح مواطنا بها يعد ذلك له امتيازاً. وكان هناك يهود فى الفئات الأربع على حد سواء: «المقدونيون» وهم المنحدرون من أولئك الذين ساعدوا الفتح اليونانى، كما قد يكون اليهود فى الفئة الرابعة، طبقة أبناء البلد، أى من أولئك الذين اندمجوا فعلاً مع المصريين، أو من المصريين الذين اعتنقوا الديانة اليهودية.

وقد عمل البطالسة على استمرار الامتيازات التى منحها الاسكندر لليهود، كما استخدموا اليهود فى جيوشهم، وارتقى بعضهم إلى المراتب العليا. وبالمثل منح سلوقى الأول اليهود صفة المواطن على قدم المساواة مع اليونانيين. وقبل عهد الاسكندر كان اليونانيون يحتقرون الأجناس الأخرى ويعدونهم برابرة، تماماً كما كان اليهود يزدرون بقية بنى الانسان باعتبارهم وثنيين، إلا أن الاسكندر كان يعارض التمييز العنصرى معارضة شديدة.

وعندما التقى اليونانيون لأول مرة باليهود أثاروا اهتمامهم. وكانوا يعتقدون أن نبيهم موسى كان على درجة غير عادية من الحصافة والبسالة وقام متعمدا بجعل عاداتهم مغايرة لعادات الشعوب الأخرى بغرض الابقاء عليهم كأمة متفردة^(٣). وعندما أخذ اليونانيون يعرفون اليهود على حقيقتهم بدأ الاحتكاك بين الجانبين. فقد كان اليهود يجتنبون الملتذات الاجتماعية في حياة المدنية اليونانية مثل المسارح وساحات الألعاب الرياضية والاحتفالات العامة، حتى لقد أثار عدم مراعاتهم للأصول الاجتماعية الامتعاظ والغیظ. وقد اتهمت المسيحية بكراهة اليهود، إلا أن أسباب كراهة اليهود كانت قائمة منذ ٣٠٠ قبل الميلاد.

وبعد عام ٣٣٠ قبل الميلاد، انتشرت المدن اليونانية في الشرق الأوسط، وكانت هذه المدن تميل إلى الديمقراطية ومناهضة الأباطرة والملوك، أما اليهود فكانوا بالطبع يؤيدون الأسرات الحاكمة، وليست الديمقراطيات، بشرط أن تترك لهم الحرية المطلقة لممارسة عاداتهم الخاصة. وحيثما وجدت جالية يهودية كبيرة في مدينة من المدن اليونانية كانوا يقيمون لأنفسهم معبدا يهوديا ويعيشون سويا. وغالبا ما سمح لهم بإقامة أسلوبهم القضائي الخاص، وفقا لتقاليد الشرق الأوسط المرعية.

وقد منح اليهود خاصية الحصول على الوظائف الرسمية الهامة، ويحتمل أنهم كانوا يأملون أن يضمنوا من وراء هذه الوظائف أسباب أمنهم وطمأنينتهم بوصفهم أقلية غير محبوبة. وفي عهد البطالسة عمل كثير من اليهود، في جباية الضرائب. وقد اختار اليهود أنفسهم الحي الذي كانوا يسكنونه في الاسكندرية على مقربة من القصر الملكي.. وكانت اللغة العبرية غير مستعملة (لغة ميتة) في يهودا نفسها، حيث كان اليهود يتكلمون اللغة الأرامية، وكانوا يتكلمون اللغة اليونانية تحت حكم البطالسة والسلوقيين باعتبارها كأنها لغتهم الأصلية. وفي عهد

(٣) هيكتايوس، يهود ديودورس سيكولس، اقتباس اس. ديفيز، والواقع أنه لم يكن موسى بل كان عزرا.

بطليموس فلايلفوس (٢٨٣ - ٢٤٦ ق.م) يدعى في اخراج أول ترجمة باللغة اليونانية للعهد القديم (الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة) بالاسكندرية. وقبيل هذا التاريخ مباشرة استبدل كبار اليهود في يهوذا اسم «يهوه» بالإسم «أدوناي» (وكان قد بدأ التفكير في يهوه كرب العالمين وليس كإله القبيلة) وقد استخدمت كلمة «كربوس (الرب) «لتعني» «أدوناي» في الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة، وبالتالي أصبح «شعب يهوه المختار»، دون أن يلحظ أحد، «شعب الرب المختار».

وقد كان اليهود في مصر وسوريا يعيشون في جو يوناني، وكانوا يدرسون الفلسفة اليونانية. وبينما كان الأغلبية مواظبة على مراعاة أحكام الدين، كانت أفكارهم مشبعة بالثقافة اليونانية، وترتب على هذا أن نقصت مشاركتهم أهل يهوذا نظرتهم المحدودة شيئاً فشيئاً. وكان شغفهم بالفكر اليوناني قد أوجد فيهم ميلاً إلى العالمية، إلا أن سيادة اليونانيين الفكرية كانت تمضي جنباً إلى جنب مع مذهب تعدد الآلهة، وشعر اليهود بأن الديانة اليهودية إذا ما ارتبطت بالثقافة اليونانية فإنها قد تخرج مجتمعاً مثالياً، وبناء على هذا عقد اليهود المشتتون في المهجر العزم على تحويل وهداية العالم اليوناني.

ولم يكن في العالم القديم من يهتم بعلم الأعراق البشرية، لذا يتعذر علينا أن نكتشف من كانوا اليهود في المهجر. ويقول سترابون (ولد عام ٦٣ قبل الميلاد)، العالم الجغرافي الروماني - اليوناني، أن اليهود كانوا يملأون الدنيا حوالي سنة ٨٧ ق.م، بحيث «كان يصعب أن نجد مكاناً في الدنيا ليس به جالية ضخمة ذات نفوذ كبير».

وفي عام ٥٩ قبل الميلاد قال شيشيرون في روما دفاعاً عن فلاكيوس: «إنكم تعرفون كم يشكلون (اليهود) مجموعة ضخمة، وكيف أنهم عند اجتماعهم يلتصقون ببعضهم، وكيف أن نفوذهم جد عظيم في الشؤون السياسية».

وتختلف تقديرات نسبة أعداد اليهود في العالم الخارجي الى أعدادهم في يهودا، قبل ظهور المسيح بوقت قصير، اختلافا شديدا، بل انها تختلف من القول بأن «اليهود في المهجر كان عددهم مساويا، على الأقل، لعدد اليهود في يهودا» إلى القول بأنه «ربما كان عدد اليهود في خارج فلسطين عشرة أمثال عددهم في يهودا». ومن الأرجح أن عدد اليهود في المهجر كان مساويا لأربعة أمثال أو خمسة أمثال عددهم في يهودا، وهذا يعتبر تخميننا مقبولا. ويكتب الحاخام ريزين في معرض حديثه عن فترة الحشمونيين (١٦٦ - ٣٨ ق.م) عن «تدفق اليهود المستمر إلى الدول الأخرى»، ويستطرد فيقول أن «كثرة عدد اليهود في جميع أنحاء العالم قبيل غزو الروم لفلسطين لم تكن ناجمة عن كثرة التوالد الطبيعي، فان نسبة كبيرة منهم كانت من الوثنيين الذين تحولوا إلى الديانة اليهودية»^(٤).

ويشير جان جوستر إلى «حمى التهود» التي انتابت اليهود من سنة ٢٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٠٠ بعد الميلاد^(٥). ويشير الحاخام ريزين إلى «الزيادة الهائلة في التهود» في القرنين السابقين لظهور المسيح. وطوال خمسمائة عام - من ٣٠٠ قبل الميلاد إلى ١٠٠ بعد الميلاد - كان اليهود أكثر تقدما في الروحانيات عن اليونانيين والرومانيين. وكانت الديانة الرومانية قد أخذت تصبح أكثر وأكثر ديانة الطقوس الرسمية. وعلى العكس من ذلك، كانت الديانة اليهودية الجديدة بدعوتها للتوحيد، وإقبال الأفراد عليها، شديدة الأثر في الجماهير. وتمثلت العقبة الرئيسية التي اعترضت التحول إلى الديانة في التشريع الذي يفرض عملية الختان (الطهارة) والمحافظة على اعتبار يوم السبت هو اليوم الديني المخصص للراحة، والتزام طرق وأنواع خاصة في الطعام. وكانت عملية الختان مانعا للرجال، إلا أن المحافظة على احترام يوم السبت كانت أمرا محبوبا ومألوفاً. أما قوانين الالتزام في الطعام فقد

(٤) الحاخام ريزين، رد فعل الوثنيين على المثل العليا اليهودية.

(٥) جان جوستر، اليهود تحت حكم امبراطورية الروم.

كانت تضطر المهتدي حديثا الى أن يترك أهله وأصدقائه ويدخل في المجتمع اليهودي، إذ لا سبيل له للحصول على الطعام اليهودي إلا عن هذه الطريق. وبالنظر إلى الألم الشديد المترتب على اتخاذ هذا القرار، فإنه جدير بالاعتبار كم من المهتدين حديثا دخلوا في الدين اليهودي.

ويكمن سر اجتذاب الديانة اليهودية للوثنيين في سمتها الروحانية وفي اقبال المتعبد عليها مخلصا. وهكذا يبدو لنا أن الأصرار على عدد لا يعد ولا يحصى من القواعد بشأن الطعام، أمر تافه، إذا ما قورن بهذه الأساسيات الجوهرية. إلا أن اليهود كانوا على درجة شديدة من الصلابة وقسوة الفؤاد، إذ يجب أن يعيش، أولئك الذين تحولوا عن دينهم لليهودية، معيشة اليهود فيما بين اليهود، وأن يقطعوا أنفسهم نهائيا عن العالم الوثني، لأنه لا يمكن لهم أن يكونوا يهودا أو يونانيين أو فارسين في نفس الوقت.

وكانت نتيجة ذلك ظهور أنصاف اليهود ممن عرفوا بأنهم يخشون الله. فلقد استهوى هذه الفئة التوحيد بالله والقبول الروحاني للديانة اليهودية، إلا أنهم كانوا أما غير راغبين أو غير قادرين على الاستجابة لجميع الالتزامات المفروضة على الطعام. ويقدر جوستر عدد أولئك الذين «يخشون الله». بما يساوي عدد الذين غيروا دينهم تغييرا تاما، ولا بد أن يكون مجموع هؤلاء قد شكل نسبة هائلة من سكان الامبراطورية. ولا يعتبر هذا المعدل السريع للتحويل الديني داعية للدهشة عندما نفكر في أن الديانة المسيحية كانت ستحول الامبراطورية الرومانية كافة إليها على مدى ثلثمائة عام أى في المدة من عام ٣٢ بعد الميلاد إلى عام ٣٢٥ ميلادية.

والواقع أن اليونانيين والرومانيين، بكل أمجادهم الفكرية، كانوا يعانون من الجذب الروحاني، والانسان ان كل انسان يتحرق اشتياقا الى الله، حتى ولو كان ذلك بغير وعى أو شعور، وإذا ما أثير وحرك ظمأه الى الله فقد يمكن غمر الأرض بفيض من ادراك الله كما يذخر البحر بالماء.

ولقد قام جوستر بدراسات عن المدن التي كان اليهود يشكلون بها جالية هامة في العصر الروماني، وشملت هذه الدراسات جميع المدن، على الأغلب، في فرنسا، وإيطاليا وصقلية، وسردينيا، وأسبانيا، وجزر البليار، واليونان، وتراسيا، ودماسيا، وبانونيا، ومقدونيا، وآسيا الصغرى، وسوريا، وأرمينيا، وأرض الجزيرة (العراق)، وآشور وبابل، وشمال وجنوب فارس، وجزيرة العرب، واليمن، ومصر، وأثيوبيا، وليبيا وطرابلس وإفريقيا حتى موريتانيا، والولايات الألمانية في حوض نهر الراين. وقد جمع هذه القائمة من النقوش والمخطوطات ومن المقابر اليهودية والمصادر الأدبية.

ويزعم فيلون فيلسوف الاسكندرية اليهودي أن «نصف الجنس البشري» كانوا من اليهود، وتذهب مراجع أخرى إلى القول بأنه، في عهد المسيح، كان في مصر مليون يهودي من بين سكانها البالغ عددهم سبعة ملايين، أي بنسبة ١٤ ٪، وكانت نفس النسبة في طرابلس. وفي روما تحت حكم تيبيريوس (٤٢ قبل الميلاد - ٣٧ بعد الميلاد) تواجد ستين ألف يهودي من بين سكانها الثمانمائة ألف، أي بنسبة ٧٥ ٪. وقد قدر عدد سكان الامبراطورية في عهد أوغسطس أوكتافيوس بخمسة وخمسين مليون نسمة، كان من بينهم خمسة ملايين من اليهود تقريبا، أو حوالي ٩ ٪. ويقول بر هيبيريوس، وهو يودي تحول إلى المسيحية (حوالي سنة ١٢٧٠) بأنه كان هناك تحت حكم كلادايوس (٤١ - ٤٥ بعد الميلاد) سبعة ملايين يهودي أو ما يساوي ١٢٥ ٪ من سكان الامبراطورية.

وإذا سلمنا بتقدير جوستر القائل بأن أنصاف اليهود (الذين يخشون الله) كانوا كثيرين مثل اليهود، فإنه يمكننا أن نرى أن اليهود كانوا يشكلون مشكلة خطيرة للغاية بالنسبة للروم. ولا تشمل الأعداد المذكورة أنفا اليهود في فارس أو بابل أو جزيرة العرب، أي تلك المناطق التي كانت خارج الامبراطورية.

ومن المليون يهودى الذين كانوا بمصر فى عهد بطليموس، كان بعضهم واسع الثراء، كما عمل كثير منهم فى جباية الضرائب. وهكذا يبدو أن الارتباط التقليدى بين اليهود والشئون المالية بدأ فعلا فى الاسكندرية قبل ظهور المسيح. فلما كتب يوسيفوس بعد عام ٧٠ ميلادية، أن اليهود لم يكونوا شعبا تجاريا، كان يشير إلى أهل يهودا. ويمكن عمل مقارنة شائقة بين اليهود والإيرلنديين فى القرون الثلاثة الأخيرة. فقد كانت أيرلندا دولة فلاحين فقراء، إلا أن المهاجرين الايرلنديين حققوا قدرا كبيرا من الشهرة عندما غادروا جزيرتهم الى بريطانيا والولايات المتحدة.

وقد خدم يهود الاسكندرية البطالسة قرابة ثلاثمائة عام، إلا أنهم عندما وصل الرومانيون تركوا اليونانيين وأخذوا يقدمون المساعدات للغزاة الجدد لقاء مزايا خاصة من أباطرة الروم^(٦). وسحب أوغسطس الاستقلال الديمقراطى من السكندريين، ولكنه أكد امتيازات اليهود. وبناء على ذلك كره اليونانيون فى الاسكندرية اليهود باعتبارهم التابع الذى يدلله غزاتهم الرومان. ويبدو أن اليهود ينجحون دائما فى أن يكونوا فى صف الجانب الغالب.

فى صيف سنة ٣٨ ميلادية نزل أجريبا الأول^(٧) فى الاسكندرية قادما من روما فخف اليهود لاستقباله استقبالا ملكيا رائعا، ولكى يبدى اليونانيون استياءهم من تدليل الرومان لليهود قلبوا الاحتفالات اليهودية فى قالب هزلى بأن ألبسوا شخصا معتموها لباسا ملكيا فكان ذلك داعية لأعمال شغب عنيفة، ونهبت أحياء اليهود وقتل عدد منهم، وأرسل كل من الجانبين مندوبين عنه الى روما، لكن كاليجولا المزدول الشائن السمعة كان امبراطورا حينئذ فلم يحصل أى من الجانبين على ما يرضيه.

(٦) اتش، آى. بل، «اليهود والمسيحيون فى مصر».

(٧) أنظر الفصل الثالى.

وتجددت أعمال الشغب فيما بعد وكان اليهود هم المعتدين هذه المرة، ولم يكن «يهود الاسكندرية كلهم فلاسفة أفلاطونيين (على شاكلة فيلون)، ولا أيضا شهداء معذبين لكنهم كانوا غوغاء هائجين يشيرون الفتنة كلما عانوا من الفتنة»^(٨).

وفي الرابع والعشرين من شهر يناير عام ٤١ ميلادية اغتيل كاليجولا، وأصبح كلادايوس إمبراطور، فأرسل الطرفان المتخاصمان وقدين الى روما، ولا يزال رد كلودايوس موجودا، ومستترا بعبارات وضعت في دقة تامة، حيث وجه اللوم لليونانيين على كراحتهم لليهود، وأكد على جميع الامتيازات التي كانت لليهود، فقد كتب الامبراطور يقول: «ان من حقى أن أغضب غضبا لايلين هلى اكل من تسول له نفسه أن يكون السبب فى تجدد هذا الشغب. وإنى أعلنها صريحة أنكم أن لم تقلعوا عن هذا العدا المتقص البلغى فلسوف أكون مضطرا لأن أبين كيف يكون الأمير المتسامح عندما ينال منه الغضب. وإنى أمر اليهود بأن يفيدوا بما فى أيديهم ومن الخير العميم، كما أمرهم ألا يستقدموا اليهود من سوريا فيجبروننى أن أتوجس ريبة، وإلا فلأنتقم منهم بكل وسيلة ممكنة كأنهم يشيرون فتنة عامة للعالم كافة»^(٩).

وتستوجب أعمال الشغب فى الاسكندرية الاهتمام لأسباب عدة، حيث أنها تنقض الادعاء بأن الأعمال العدوانية ضد اليهود نشأت عن المسيحية، إذ أن هذه الظاهرة نفسها كانت موجودة فيما قبل أيام المسيحية.

وأحيانا يستشهد بأعمال الشغب فى الاسكندرية، كدليل على أن اليهود التعساء يتعرضون دائما للاضطهاد، إلا إن الحقيقة هى أنهم كانوا هم المدللين من الحكومة، بل إن كثيرا من اليهود السكندريين كانوا يشغلو وظائف هامة فى

(٨) إس. ديفز «العلاقات العنصرية فى مصر القديمة».

(٩) إتش. آى. بل: «اليهود والمسيحيون فى مصر».

الأفرع المالية بالإدارة الحكومية مما أعطاهم القوة والنفوذ ولكن لم يدخل فى حساب أحد أن يجعلهم غير محبوبين.

وإذا كان المجال لا يسمح بدراسة مفصلة لليهود فى كل دولة، فإن الفقرة التالية من رينان قد تؤخذ كأنموذج حيث، يقول: «إن اليهود قدموا فى وقت مبكر جدا الى بلاد الغال قبل مولد المسيح بزمان طويل، وقد أستقبلوا استقبالا طيبا ونجحوا فى تحويل ديانة كثير من الناس إلى اليهودية، فقد «كانت هناك جماعات من الناس ربطوا أنفسهم بالديانة اليهودية دون أن يكون لهم سلف واحد فى فلسطين. وعندما يتذكر المرأ أن يهود إنجلترا وألمانيا قد جاءوا من فرنسا، فإن الأسف يتملكنا لأننا لانملك بيانات أكثر. وقد يدرك المرء أن يهودى الغال فى عهد جوتتران أو شلبرك (المتوفى عام ٥٨٤ ميلادية) غالبا ما كان مجرد غالى يقر الدين الاسرائيلى».

فى الفصل السابق تركنا يهودا عام ١٠٤ قبل الميلاد، وهى تحت حكم يوحانان هيراكينوس، وسنستأنف السرد فى الفصل التالى، أما الآن فاننا نتوقف عن السرد التاريخى لنكتب بعض كلمات عن التطور الدينى لليهودية، ذلك التطور الذى جعل هذه الديانة جذابة بدرجة كبيرة للوثنيين فى الامبراطورية الرومانية.

رأينا كيف أن الشخص العادى من بنى اسرائيل قبل الفتح البابلى كان يؤمن بيهوه باعتباره الاله القبلى لاسرائيل، وأنه لم يكن لديه أى مفهوم للعالم الكلى، ناهيك عن الكون. وهذا فى رأى المتواضع، لم يكن ليمنع موسى وإشعيا والأنبياء من تلقى تجارب روحانية حقيقية، لأنه من حسن طالعنا أن الله لم يقصر رحمته على أولئك الذين يعتبر علمهم اللاهوتى صحيحا من الناحية العقلية.

والحق أن دين يهوه الاسرائيلي أمر بعبادة إله واحد فقط، إلا أنه لم يستبعد وجود آلهة أخرى، إلا أنه عندما اندمج بنو اسرائيل في أهل البلاد وأصبحوا على درجة كبيرة من الثراء اتسعت كذلك آفاق دينهم، وأدت تجارتهم المتزايدة الى النتائج الحتمية التي يمكن أن نراها اليوم في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، ألا وهي المادية والوصولية، والذي يحدث دائما في مثل هذه الأحوال هو أن تقع الكارثة. إلا أنه كان من نفس تلك الكارثة أن قامت ديانة اليهود الروحانية وذهبت كل العوامل المادية التي كان الدين معتمدا عليها وبدأ يبرز حثيثا شيئا أكبر وأشد روحانية، وأكثر استدامة.

وتمر السجلات اليهودية مر الكرام على الفترة من أيام عزرا الى عهد أنطوخينوس، إلا أن الديانة اليهودية في هذه الفترة كانت قد وصلت في هدوء إلى مستويات أخلاقية^(١٠) جديدة، حيث بدأت، اعتباراً من هذه المرحلة، تعظ بأن الله ينبغي أن يعبد لذاته، لا طمعا في جزائه. وفي حوالي عام ٢٠٠ قبل الميلاد ظهر كتاب يشوع بن سيراخ الذي يطلق عليه في أسفار «الابوكريف»، أي الاسفار الخفية أو الغير موثوق بها والتي لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة، ولكنها بالرغم من ذلك مليئة بالجمال والحكمة:

يا بني، كن لين الجانب في معاملاتك
يجبك الناس أكثر مما يجون الجواد الكريم
ولتكن متواضعا كلما عظم شأنك
كى تنال رضى الله العظيم

(١٠) دجى. اف. مور، «الديانة اليهودية».

ما أكثر الذائعى الصيت المتعاضمين
لكن الله يوحى بسره إلى المتواضعين
فهو جلت عظمته
يقبل دعاء الخاشعين.

وما أطول سنى التقدم الهادىء التى تباعد بين هذا الشعر وبين مطالب
صموئيل بإبادة العماليق بالكامل.

وبالنسبة للفرد، يمكن أن تؤدي المعاناة الى نتيجتين مختلفتين فقد يزداد
عمق سمة المعاناة فتجعله أكثر رقة، وأشد شفقة، وأعظم عطفا على الآخرين، أو قد
تجعله مغيظا من الله ومن الناس فتؤدى به إلى التعصب المتزمت جريا وراء الانتقام
لنفسه. وقد ألحت زوجة أيوب على زوجها لكي يجافى الله ويموت ولكنه أجاب
«الخير نقبل من عند الله والشر لانقبل؟» ويبدو لى أن رد فعل اليهود كان على
هذا النحو، فان الكارثة المروعة التى حلت بهم، كارثة الغزو البابلى، أدت إلى
نتيجتين، فأصبح البعض قديسين، بينما صار البعض الآخر متعصبين متزمتين،
وكان للأنموذجين الاثنيين أن يمضيا معا جنبا إلى جنب.

ولا يمكن القول بأن «اليهود»، فى أى وقت من الأوقات، كانوا يؤمنون بهذا
أو بذاك، فما أشد تعقيدات أحوال البشر. ومع هذا، يمكن الاستدلال على
الاتجاهات التالية حوالى عام ٢٠٠ قبل الميلاد.

أولا، لم تكن أغلبية اليهود الساحقة موجودة فى يهودا، بل إن اليهود كانوا
يملاؤون الدنيا، وكان أكثرهم من الوثنيين الذين تهودوا حديثا. ثانيا، فى يهودا

اصطبغت الى حد كبير الكهنوتية الارستقراطية (وسرعان ما سميت بالصدوقية) بالهللينية وأصبحوا قابلين للرشوة وقاسدين للغاية. ثالثاً، بدأ كثير من المفكرين الهادئين يفكرون في الله باعتباره رب العالمين، وليس باعتباره رب اسرائيل دون غيرها. رابعاً، قبل بابل، كان تفكير بنى اسرائيل تفكيراً قبطياً، يعنى طائفاً وقد جاهر الأنبياء بأن اسرائيل أذنبت وأنه لا مفر لها من العقاب. لقد كانت الطائفة جميعها مسئولة، وجعل زوال يهودا والهيكل والهجرة الى الدول الأخرى الأفراد مسئولين عن نفس تقواهم وولائهم للدين.

وقد أدى الاحساس التدريجى بأن يهوه (أو أدوناي كما سمي أخيراً لتحريم نطق حروف الجلالة ي. هـ. و. هـ. ونطق الحروف أ. د. ن. ي. بدلا منها. المترجم) هو رب العالمين الى الارتياح فى أن اسرائيل قد لا تكون هى الوحيدة التى ستنال رحمته. وجعل «الاعتقاد بأن الدين الحق يجب أن يكون ديناً شاملاً، آخر الأمر، فى حد ذاته، وجعل من الديانة ديانة تبشيرية»^(١١).

ويستطرد دجى. اف. مور فيقول: «ان العبادة المقصورة على إله واحد فقط.. لاعتبر، بمقتضى قانون الدين القومى، توحداً على الاطلاق»، لأن التوحيد هو الاعتقاد بوجود إله واحد فقط. «ولما عرف مضمون التوحيد، وجد أنه يصطدم بعدم شمول العلاقة المتبادلة بين الله واسرائيل» وبناء على هذا تخمس اليهود حماساً شديداً لتغيير دين العالم. إلا أنهم ظلوا يتوقون للاحتفاظ بالدور الرئيسى لأنفسهم ومن ثم ظهر التعارض بين فكرة تحويل العالم الى الديانة اليهودية من جهة، وبين سيادة اليهود المستمرة، من جهة أخرى، وكان الحل هو أن الوثنى الذى يغير دينه يجب أن تتبناه الطائفة اليهودية على غرار تبني الأبناء والبنات فى العائلات فى العصور الكلاسيكية بحيث يصبح المتبنى عضواً كاملاً فى عائلته الجديدة بعد أن ينكر عائلته القديمة انكاراً تاماً.

(١١) دجى. رف. مور «الديانة اليهودية».

كان هذا الاحتياط عقبة في وجه كثير ممن يرغبون التحول لليهودية، لكنه ضمن الابقاء على الصفات المميزة للطائفة اليهودية، وهى استقلال الأصول السلالية. وهكذا لم يقدر للديانة اليهودية أن تكون ديانة عالمية بل بقيت ديانة طائفية معينة. وفي كثير من الدول كان العنصر السلالي «اليهودى - الفلسطينى» قليلا لدرجة غير ملموسة، إلا أن المجتمع اليهودى احتفظ بالمميزات الخاصة للحياة اليهودية.

وقد كان الاصرار على حتمية أن يصبح الوثنى المهتدى يهوديا من جميع الوجوه (تاركا جنسيته الأصلية وعلاقته بأسرته مع ضرورة معايشة الجالية اليهودية) أمرا حاسما، وكان ذلك هو مفتاح ظاهرة كيف يستطيع اليهود أن يتشابهوا فى كثير من الأمور، بالرغم من انتمائهم الى سلالات مختلفة لاتدخل تحت حصر. وتزعم الديانة اليهودية أنه قد أوحى بها من الله الى موسى عليه السلام، فلا يمكن والأمر كذلك أن يتغير شىء منها أو يتبدل من الوجهة العملية، دون القول ضمنا بأن الوحي الأصلي كان مخطئا، ولكن فى الواقع، تغيرت الديانة اليهودية تغييرا كليا. وقد تم هذا التغيير على أيدي الحاخامات الدينيين الذين استطاعوا أن يستنبطوا ايماننا روحانيا جديدا من آيات هنا وهناك فى العهد القديم. كما أنهم أيضا وضعوا بأنفسهم قواعد جديدة فرضت بمنتهى الصرامة. ولم يظهر الاعتقاد فى الخلود الا حوالى سنة ١٥٠ قبل الميلاد، إلا أن الديانة اليهودية كانت، حتى ذلك الوقت، تتطلع إلى عصر ألفى سعيد على الأرض ولم تكن تنظر إلى الحياة الأخرى.

وقد أعطى الغزو البابلى بتدميره الهيكل الفرصة لميلاد المعبد أو الكنيس (دار العبادة لليهود) حيث ما تجتمع عدد منهم (عشرة على الأقل)*. وكان الكنيس (المعبد) فى الأصل مدرسة لتعليم التشريع الدينى، إلا أنه صار بعد ذلك بوقت

(*) يطلق على المسلمين العشرة اللازمين لاقامة الصلاة إسم «مبنا» بالعبرية (المترجم).

طويل مكانا للعبادة. وعلى ذلك كانت هذه المدرسة فى كل مكان اشارة إلى الجالية اليهودية حيث لم يكن للوثنيين مدارس دينية أو أساليب منظمة لتعليم دينهم.

وكانت مدرسة الكنيس «بيت - همدراش» هى الأداة الرئيسية التى يتم عن طريقها الدخول فى دين اليهود، وكانت مفتوحة للجميع. ولما كان التعليم فيها باللغة اليونانية واللغات المحلية الأخرى فان كثيرا من الوثنيين كانوا يستمعون إلى الدروس التى تلقى فيها. وقد تأثر بهذه الدروس كثير من الناس فى ذلك العالم البائس المتدهور.

ويقول دجى. اف. مور بأنه «فى عصر يوحانان المكابى، على سبيل المثال، لم يكن هناك يهودى واحد فى الجليل ولكن بعد قرن كان اليهود أغلبية عظمى». وكان بعض هؤلاء قد تحول من الوثنية قسرا كما سئرى فيما بعد، إلا أن بعضهم تحول طائعا مختارا.

«ولست هناك طريقة لاحصاء التبشير اليهودى (لتحقيق التحول الدينى) فى الحقبة التى يتناولها بحثنا هذا، إلا أنه لاشك فى أنها كانت جد كبيرة، وكان الداخولون فى دين اليهود من أجناس كثيرة، ومن كل طبقات المجتمع» (١٢). وقد كان بعض من أكبر الباحثين البارزين فى القرن الثانى بعد الميلاد من أصل وثنى مثل الحاخام عقيبا الشهير.

وإذا كنا بصدد الدخول فى العصر الرومانى، فقد يكون من المفيد أن نذكر كلمة عن الامتيازات اليهودية التى أشرنا إليها فيما تقدم، حيث كان التسامح الدينى فى العصور القديمة أمرا محوطا بالاحترام الشديد الصادق. فقد كانت آلهة

(١٢) دجى. اف. مور «الديانة اليهودية».

الدول يجامل أحدهم الآخر، إلا أن إله إسرائيل كان عفيفا، لا يحب المعاشرة، وكان يرفض الأخذ والعطاء في مجال التسامح الذي كانت الديانات الأخرى على أتم الاستعداد لتبديده له»^(١٣). وكان يبدو في نظر الوثنيين غيورا يرفض السماح لعباده بأن يؤدوا كثيرا من الأفعال التي كانت اجبارية بحكم القانون.

وبالنسبة للحكومات الأخرى، كان اليهود يشكلون معضلة، فإما أن يجبروا على طاعة القانون وهنا كانوا يرفعون عقيرتهم بالشكوى على أساس أن ذلك اضطهاد ديني، وكان تلك فكرة لاتتلاءم أو تتناسب مع طبقة القدامى، أن أن يمنحوا الامتيازات التي تستثيهم وحدهم من القانون. ولم يكن اليونانيون والرومانيون يعاقبون الناس بسبب معتقداتهم ولكن فقط بسبب أفعالهم.

ومن بين الامتيازات العديدة التي كانت ممنوحة لليهود وحدهم دون غيرهم الاعفاء من الخدمة العسكرية، ومن العمل أيام السبت، وفي روما عندما كان يجرى توزيع الغذاء على الفقراء يوم السبت كان اليهود ينالون نصيبهم يوم الأحد. وإذا كان الغذاء من النوع الذي يرفضونه أخذوا بدلا نقديا عوضا عنه. وكان تصدير الذهب محظورا، إلا أن اليهود فقط كان في أماكنهم جمعه وإرساله إلى أورشليم.

وكان لليهود، نبي بعض الجهات، أسواق خاصة للمواد الغذائية، كما كان لهم جهاز شرطتهم وقضاؤهم الخاص الذي يمكنه النظر في القضايا المدنية والجنائية ويوقع العقوبات. كما كان لهم الحق في عقد الاجتماعات العامة وتشكيل الجمعيات وجمع التبرعات وإنفاقها. ولم يكن لأي طائفة أخرى مثل هذا الحق. وكان تعدد الزوجات محرما بحكم القانون الروماني، إلا أن اليهود كانوا قادرين على أن يجمعوا بين أي عدد من الزوجات كيفما شاءوا.

(١٣) جين جوستر، «اليهود تحت حكم الروم».

وكان على موظفى الحكومة أن يحضروا الاحتفالات العامة، وكانت اليمين القانونية التى يؤديها الموظف لدى استلام وظيفته تتضمن الإشارة الى صفات الامبراطور الإلهية، وعلى ذلك ففى بعض الأحيان كان اليهود لا يعينون فى الوظائف، لأنهم كانوا لا يقبلون أداء هذه اليمين. وفى مناسبات أخرى كان المسئولون يتنازلون عن هذه الرسميات بالنسبة لليهود فقط أو يتخذون صيغة أخرى لليمين القانونية. وعلى أية حال فقد وصل كثير من اليهود إلى مرتبة فارس روماني كما كان هناك أعضاء من اليهود فى مجلس الشيوخ الروماني. وليس بمستغرب كذلك أن تضحج الطوائف الأخرى بالشكوى من أن اليهود ينالون جميع المزايا التى ينالها المواطنون الآخرون مع أنهم، يعنى اليهود، كانوا معفيين من معظم الواجبات».

ولم تسبب الثورات فى يهودا أى إنتقاص لهذه الامتيازات فى جميع أنحاء الامبراطورية. ففى أعقاب ثورة من هذه الثورات أخذ كثير من اليهود الى روما كرقيق، وعمل جزء منهم فى القصر الامبراطورى. وعلى مر السنين أعتقوا تدريجيا، وكان اليهود الذين أعتقوا من القصر معروفين للامبراطور فكانوا يرسلون الى الولايات بصفة مبعوثين شخصيين له لتوزيع الرسائل السرية وللتحقيق فى المشاكل. ويقال أن بوبيا عشيقة نيرون ثم بعد ذلك زوجته، كانت من المؤمنات بالدين اليهودى، وان كانت غير ملتزمة بكثير من قواعده. وعلى أية حال كانت تستخدم نفوذها الواسع فى مساعدة اليهود.

وكان أوغسطس يبعث بالهدايا القيمة إلى المعبد فى أورشليم وكان لزوجته ليفيا وصيفة يهودية. وقد عاش أطفال الأسرة اليهودية^(١٤) عددا طويلا من السنين فى روما وكانوا على علاقة طيبة مع العائلة الامبراطورية، كما «انتقلت بعض

(١٤) انظر الفصل الثانى.

العادات اليهودية الى الدوائر الرومانية الوثنية، بل لعلها انتقلت كذلك إلى الدوائر الاجتماعية العليا. وكان اليهود نشيطين في الحصول على مهتدين لآرائهم وعاداتهم الدينية»^(١٥).

وكان سعيهم النشط لتهويد الأهالي هو الذى سبب لهم المتاعب فى روما من آن لآخر، وبخاصة عندما كان الداخلون فى دينهم من «صفوف الطبقات الاجتماعية العليا»، ولا يمكن أن توصف الشكايات من اضطهاد اليهود الخفيف على أيدي الرومان بأنها تاريخية.

تواريخ تستحق الذكر

الفتح البابلى	٥٨٧ ق.م
الاسكندر الأكبر	٣٣٦ - ٣٢٣ ق.م
فتح الاسكندر لمصر	٣٣٢ ق.م
استبدال اسم يهوه باسم «أدوناي» حوالى	٣٠٠ ق.م
بدء الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة حوالى	٢٨٠ ق.م

خاتمة

- ١ - بدأ التشتت بالفتح البابلى سنة ٥٨٧ قبل الميلاد.
- ٢ - وجد اليهود حياة أكثر ترفا وشمولا أرحب فى بابل ومصر وسوريا واليونان ولم يرجع الى يهودا سوى قليل منهم.
- ٣ - بعد عام ٣٠٠ قبل الميلاد تحول عدد كبير من الوثنيين الى الديانة اليهودية.
- ٤ - أدت الكارثة البابلية الى نتيجتين متضادتين.
أ - روحانية اليهودية التى تتخيل ألها واحدا لجميع البشر.
ب - قومية متعصبة ضيقة الأفق تطالب بالعزلة عن الجنس البشرى من غير اليهود.

(١٥) هنرى جى ليون «يهود روما القديمة».

الفصل الثامن الهيروديون (ملوك اليهودية عند مولد المسيح)

لم يكن هيرود يالكامل بشعا نازعا الى الشر.. فقد كان جذابا فى شبابه.. بل إن سحره وفتنته كانتا تسيطران على الرجال والنساء.. والرجل الذى استطاع أن يصادق أنطونيو أوغسطس لا يمكن أن يكون خاويا أو خاملا. فلقد كان كل الناس يتملقون هذين الرجلين، وبخاصة عملاؤهما، ولك هيرود فقط اكتسب صداقتهما، وكان هيرود فقط هو الذى أصبح أمين سر أجريبا، وهو وحده الذى عينه أوغسطس مستشارا رسميا لحاكم سوريا الرومانى، ويوحى كل هذا.. بمقدرة هيرود الفائقة.. وإثبات أن هيرود كان يملك هذه الصفات هو كفايته الإدارية.. فقد عرفوا أنهم يستطيعون الاعتماد عليه اعتمادا مطلقا. وكان السلام يرفرف على البلاد فى عهده، وانتعشت التجارة وأعيد بناء المدن وأقيمت مدن جديدة

ستيوارت بيرونى «حياة وزمن هيرود الأكبر».

الفصل الثامن

خلف إنهاء السلوقيين الشرق الأدنى في حالة من الفوضى، ففي يهودا أدت ثورة المكابيين إلى انفجار ونشاط العدوانية الحربية، وأصبح الهدف الآن يوضح ليس حماية الدين اليهودي، بل تقوية النفوذ اليهودي وامتداده^(١).

وفي عهد يوحانان هيراكينوس المتوفى عام ١٠٤ قبل الميلاد، زاد كثيرا العداء بين الحشمونيين (الأسرة الحاكمة) وبين الفريسيين (غلاة المتدنيين). وصاحب ذلك تزايد القومية العدائية التي كشفت عن نفسها في التوسع الإقليمي عن طريق الغزو. ولما كان هيراكينوس مكروها في وطنه فقد استخدم المرتزقة المجندين في آسيا الصغرى. وبعد غزو ادومية استولى على ماريسا وأدورا في سهل فلسطين، ومرة أخرى أجبر السكان على إجراء عمليات الختان. ومنذ الفتح البابلي كانت الرغبة الجامحة في ادخال العالم في دين اليهود آخذة في الازدياد، ومع أن الحشمونيين لم يكونوا متديتين أصلا، إلا أنهم كانوا قوميين عدوانيين استخدموا القوة لادخال الناس في دينهم.

وقد خلف يوحانان هيراكينوس ابنه يهودا، وكان يسمى بالاسم اليوناني ارستوبولس (١٠٤ - ١٠٣ قبل الميلاد)، وكان محبوبا من اليونانيين مع أنه، بناء على ما ذكره يوسفوس، قتل أمه وأخاه. وقد فتح الجليل الذي كان يسكنه أناس أطلق عليه اسم، الذين أجبروا على إجراء عملية الختان.

وفي عصر يوحانان المكابي لم يكن هناك فعلا يهود في الجليل^(٢) حتى لقد أطلق عليها إشعيا اسم «جليل الوثنيين». ولا بد أن يكون سلف أهل الجليل في

(١) اميل شورر، «تاريخ الشعب اليهودي».

(٢) دجي. اف، موز «الديانة اليهودية».

عهد يسوع المسيح كانوا من الوثنيين^(٣). وقد يزعم كثيرا من المسيحيين أن يسمعون أن بعض الحواريين الاثني عشر لا ينتمى إلى الملة اليهودية.

وقد خلف ارستوبولس الكسندر جاناي (يونان) (١٠٣ - ٧٦ ق.م) الذي اتخذ لنفسه لقب ملك و«أثبت الملك - الكاهن الجديد أنه وغد أقيم لأن عهده كان عهد حروب، وامتدت مملكته بقوة السلاح إلى أن طبقت عمليا مملكة داود»^(٤).

وهاجم الكسندر جاناي (يونان) بطلميوس ولكنه صده بخسائر كبيرة فتحول شرقا واستولى على المدينة اليونانية جادارا، وفي عام ٩٦ قبل الميلاد غزا السهل الساحلي المصبوغ بالصبغة الهلينية واستولى على غزة وأحرقها. وبعدئذ غزا الجولان^(٥)، حيث هزم هزيمة منكرة ووصل إلى يهودا هاربا عام ٩٠ ق.م. وكانت هذه الهزيمة إشارة لبدء الثورة التي دبرها الفريسيون واستنفدت سنتان من الحرب الأهلية موارد جاناي فطلب الاتفاق، إلا أن الثوار أصروا على قتله. واستمر القتال، وكان يساعد الثوار الأمير السلوقي ديمتريوس الثالث وهو من سبط شقيق أنطوخوس ايفانس، ومرة أخرى هزم جاناي.

إلا أن ظهور السلوقيين أزعج كثيرا من اليهود، وكان ذلك مدعاة لأن يحصل جاناي على المساعدة واستطاع أن يخوض الثورة بعد ست سنوات من الحرب الأهلية الوحشية. وقد احتفل بانتصاره بطريقة اتسمت بأبشع الأعمال البربرية في التاريخ، حيث ذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس أنه «بينما كان يحتفل مع حظياته على مرأى من المدينة كلها أمر بصلب ثمانمائة منهم (يعنى من

٣ تاريخ كمبريدج القديم: المجلد التاسع.

٤ تاريخ كمبريدج القديم، المجلد التاسع.

٥ تقدمات الجولان التي استولت عليها دولة اسرائيل الحديثة سنة ١٩٦٧ (المترجم).

الثوار)، وبينما كانت الحياة لاتزال تنبض في أجسادهم أمر بذبح أبنائهم وزوجاتهم أمام عيونهم. وكان ذلك على سبيل الانتقام للضرر الذي أوقعوه به»^(٦).

وما أن استرجع سلطته حتى استأنف حروبه العداونية. وبينما كان يحاصر قلعة على مقربة من جراسا (جرش) عام ٧٦ قبل الميلاد مات متأثرا من التسمم الكحولي بسبب الإفراط في تناول الخمر «وكان يعاني منه طوال سنوات ثلاث»، واجتاحت فتوحات جاناي البربرية مدن جنوب سوريا اليونانية كما اجتاحتها عاصفة مدمرة، فأصبحت خرابا يبايا وكانت من قبل عامرة بالسكان^(٧).

وخلفت جاناي زوجته سالومي الكسندرا التي حكمت تسع سنوات، وبما ما تولت السيدات الحكم في اسرائيل، إلا أن ذلك الأمر كان مألوفاً في الأسر المصرية واليونانية الحاكمة. وقد نصح جاناي زوجته، وهو على فراش الموت، بأن تفعل عكس سياسته وتنتهج سياسة التصالح مع الفريسيين بل وترتبط بنفسها معهم^(٨). وقد عملت الملكة مخلصاً بهذه النصيحة فنعم حكمها بالسلام، لأن الفريسيين كانوا يحظون بتأييد شعبي واسع. وقد عين ابنها هيراكينوس الثاني حاكماً أعظم، وكان رجلاً ضعيفاً يسيطر عليه الفريسيون. وورث ابنها الآخر، إرسطوبولس الثاني روح العنف عن أبيه. وعندما توفيت الأم نشبت الحرب الأهلية بين الأخوين وكان الصدوقيون في صف إرسطوبولس الثاني.

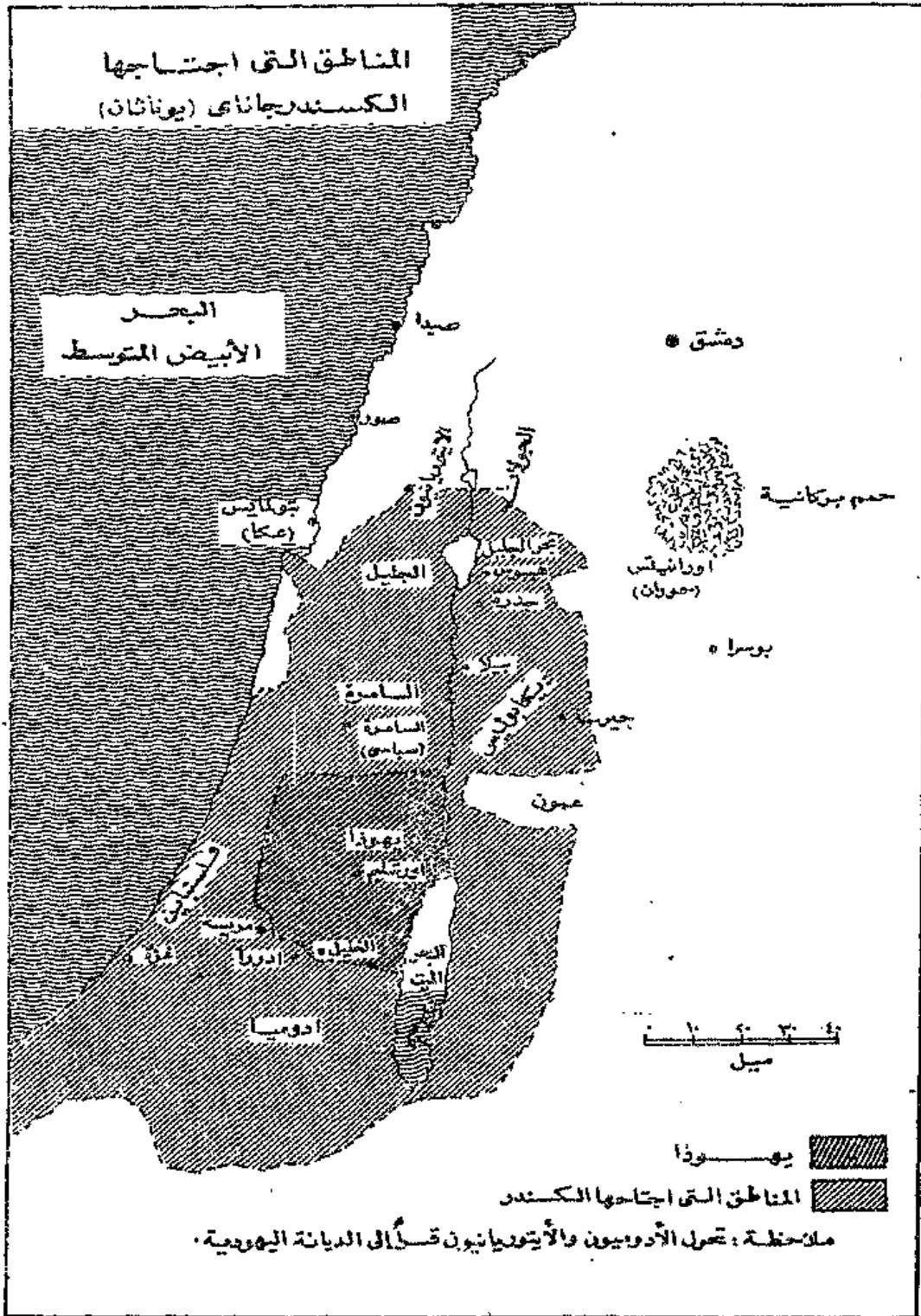
وكان يوحانان هيراكينوس قد عين أنيباتر الادومي حاكماً على ماريس وأدورا. وقد تزوج ابنه انيباتر الثاني من وريثة تبرا التي أنجبت له أربعة أبناء هم فزال وهيرود ويوسف وفيروراس. ومع أن أصل سلالة العائلة كان من الادوميين إلا أنها أجبرت على اعتناق الديانة اليهودية على يد يوحانان هيراكينوس^(٩).

(٦)

(٧) تاريخ كمبيدج القديم.

(٨) يوسيفوس فلافيوس «آثار اليهود».

(٩) شجرة سلالة الهيروديين.



خريطة (١٢)

وتولى انيباتر الثانى السلطة تحت إمرة هيراكينوس الثانى، الرجل الضعيف الذى سرعان ما أجبره على الانسحاب أخوه العنيف أرسطوبولس الذى نصب نفسه حاخاما أهظم. ولكن عرض أنيباتر النبطيون على تأييد هيراكينوس الثانى وحوصر إرسطوبولس الثانى فى المعبد.

وفى غضون ذلك، أى عام ٦٦ ق.م. أرسل مجلس الشيوخ الرومانى بومبى قائدا عاما للشرق. وفى عام ٦٤ ق.م. وصل بومبى الى دمشق حيث استقبلته ثلاثة وفود يهودية متنافسة، وكان وفد منها من قبل هيراكينوس وعلى رأسه انيباتر، والثانى من أرسطوبولس والثالث من شعب يهودا ليلتمس إبعاد الحشمونيين جميعا. واستولى بومبى على أورشليم ودخل قدس الأقداس، إلا أنه على نقيض انطوخوس أبيفانس لم يستولى على الكنوز، وأرسل إرسطوبولس الى روما ليحضر موكب نصر بومبى، بينما حصلت ديلوماسية انيباتر لهركانايوس الثانى على لقب الحاكم.

وحرر بومبى المدن اليونانية التى فتحها الحشمونيين، بما فى ذلك كل السهل الساحلى واحتفظت يهودا بجزء من ادوميا الجليل وجزء من بيريا التى هود سكانها رغما عنهم. ولكن وضعت يهودا نفسها، مع حاكمها اليهودى، تحت ادارة الوالى الرومانى فى سوريا. وهكذا مثلما كان التنافس على منصب الحاخام الأعظم دافعا للسلوقيين للحضور الى أورشليم، أحضرت الحروب الأهلية الحشمونية الرومان.

كان انيباتر هو القوة الحقيقية، فى أورشليم، وراء هيراكينوس، ولقد أثار الكسندر بن إرسطوبولس الثانى حرب عصابات إلا أنها أخمدت. وعقد هيرود الابن الثانى لانيباتر صداقة وطيدة مع ضابط رومانى شاب اسمه مارك انطونيو.

وكانت روما فى تلك الفترة تمزقها الحرب الأهلية بين بومبى ويوليوس قيصر. وفى شهر أغسطس عام ٤٨ قبل الميلاد هزم بومبى فى فرسالوس وفر إلى مصر، حيث أعتيل عندما كان ينزل الى البر. وسرعان ما وصل يوليوس قيصر بعد

ذلك على رأس قوة صغيرة، الا أنه وجد نفسه في موقف حرج، لأن الحامية الرومانية كانت في صف بومبي. وسرعان ما حول أنيباتر صديق بومبي صداقته في اتجاه القيصر. فسار على رأس ثلاثة آلاف يهودى لمساعدة قيصر في مصر مغريا ملك النبطيين على إرسال خياله، وأعرب قيصر عن امتنانه العميق مظهرا مودة ملحوظة لليهود. وفي مقابل هذه المساعدة سمح لهيراكينوس بضم مدينة يوبا اليونانية التي حررها بومبي والتي كانت مخرج أورشليم الوحيد الى البحر.

وأغرى انيباتر اليهود في مصر على مساعدة قيصر، كما فعل يهود روما وهكذا تحول انيباتر بمهارة فائقة الى الجانب الرابع. وأعلن قيصر أن منصب الحاخام الأعظم وراثيا في سلالة هيراكينوس، وحصل انيباتر على لقب مواطن روماني، وسمح له ببناء أسوار أورشليم، وذلك بمقتضى قرار أصدره قيصر في انطاكية فيما بين الثالث عشر والثامن عشر من شهر يوليو عام ٤٧ ق.م^(١٠). وقد حكم على يهودا بأن تقدم ربع محصولها من القمح الى روما. ولم يتمكن انيباتر من إعادة بناء أسوار أورشليم وحسب، بل أضاف سورا خارجيا جديدا أيضاً على الجانب الشمالي^(١١).

وفي ذلك الوقت كان هيروود الابن الثاني لانيباتر فى السادسة والعشرين من عمره، وسيما طويل القامة، ذا صفات خلابة، وكان على علاقة طيبة مع اليهود والعرب واليونانيين والرومانيين والمصريين، كما كان قويا شديد المراس نظرا لمعيشته فى معمران الحروب الأهلية التى لم تتوقف، وفى خضم الخيانة والاختيالات وإراقة الدماء فى يهودا. وقد أثار رجل يدعى ايزيكيا (حزقيال) حرب العصايات اليهودية فى الجليل، وأرسل هيروود لاختماد هذه الثورة وسرعان ما هزمهم وقتل ايزيكيا.

وقد أثار السلطة المتزايدة، التى أتاحت لهذه الأسرة الأيدومية غيرة الارستقراطية الدينية، فحرضت هيراكينوس، الرجل الضعيف، على محاكمة هيروود

(١٠) ستورات بيرون «حياة وحكم هيروود الأكبر».

(٢) خريطة (١٨).

أمام السنهدرين وهى هيئة مؤلفة من الفريسيين والصدوقيين والأعيان. وكان واضحا أنها سوف تحكم بإعدام هيروود لقتل ايزيكيا، وبناء على ذلك، فر إلى سكتوس قيصر الوالى الرومانى فى سوريا الذى عينه حاكما على سوريا الجنوبية والسامرة. وقد أقتع هذا الحادث هيروود بعدم الوثوق فى اليهود وضرورة الاعتماد على صداقة روما».

وظلت الحروب الأهلية الرومانية قائمة، فقتل سكتوس بأيدى عصابة بومبي التى كانت مجتمعة فى بارثيان. وفى الخامس عشر من شهر مارس ٤٤ قبل الميلاد قتل يوليوس قيصر فى روما. ويصف سوثينوس^(١٢) حزن يهود روما العميق على يوليوس قيصر الذى كان قد أفاض عليهم فضلا وخيرا كثيرا، حيث أكد حقوقهم فى ممارسة دينهم والتخلف عن الاحتفالات الرسمية، وسمح لهم بجمع الأموال وارسالها الى أورشليم وأعفاهم من الخدمة العسكرية.

وجاء كاسيوس أحد قتلة قيصر إلى سوريا واليا عليها سنة ٤٣ ق.م. وغير أنيباتر صديق قيصر المبدأ مرة أخرى، اذ كان كاسيوس فى حاجة إلى المال فجمع له أنيباتر مبلغا كبيرا من يهودا. وإبان هذه الأزمات قتل أنيباتر بالسهم الذى دسه له منافسوه فى أورشليم، إلا أنه كان قد استطاع أن يكسب كاسيوس الى جانبه فى الوقت المناسب، فأرسل كاسيوس مجدة إلى هيروود الذى كان لا يزال حاكما على سوريا الجنوبية، وسيطرت الفوضى على يهودا، وكان هيراكينوس الثانى طاعنا فى السن، وعمل على تشجيع أعداء هيروود. وهكذا بقيت يهودا فى الفوضى بسبب الحروب الأهلية والدسائس.

وتحركت الجيوش الرومانية المتنافسة بعضها صوب بعض فى اليونان، وكان مارك أنطونيو واكتافيون (أوغسطس المستقبل) على رأس حزب يوليوس قيصر، بينما كان بروتس وكاسيوس على رأس الجمهوريين. وكان لهيروود صديق حميم

(١٢) حياة القياصرة، سوثينوس.

فى كل من الجانبين المتخاصمين - مارك أنطونيو وكاسيوس اللذين وطد بعناية صداقته معهما فى سوريا. واذ كان هيرود يأمل فى أن يخلف هيراكينوس فقد تقدم لخطبة ماريام حفيدة الرجل العجوز آملا أن يستطيع بذلك التسلل الى الأسرة الملكية. وكان هيرود متزوجا بالفعل، ولكن كانت الديانة اليهودية تسمح بتعدد الزوجات.

وفى أكتوبر عام ٤٢ ق.م. هزم مارك أنطونيو واكتافيوس بروتس وكاسيوس فى فيلبى. وفى سنة ٤٣١ ق.م. جاء مارك أنطونيو الى صور حيث رحب به صديقه القديم هيرود، كما جاءت إليه وفود من يهودا لترفع شكواها ضد هيرود، إلا أن إلحاحهم وازعاجهم كان سببا فى إغضاب انطونيو الذى أمر بالقبض عليهم، وحصل كل من هيرود وأخوه فزال على لقب حاكم مقاطعة.

ومن سوء الطالع أن أنطونيو ذهب إلى مصر حيث وقع فى أسر كليوباترة التى أمضى معها عام ٤١ - ٤٥ ق.م، وغزا البارثيون سوريا دون أن يلقوا أية مقاومة وكانوا قد اصطحبوا معهم أنطوجينوس ابن إرسطوبولس الثانى حفيد الكسندر جاناي^(١٣). وقد دعى هيراكينوس الثانى فزال الى مؤتمر حيث ألقى القبض عليهما بطريقة غادرة وقتل فزال بينما نفى هيراكينوس الى بابل وأصبح أنطوجينوس ملكا وحاخاما أعظم.

وفجأة وجد هيرود نفسه، والذى كان منذ ستة أشهر مضت الصديق المبجل لحكام روما، محاطا بالأعداء، وهاربا من أورشليم. وترك هيرود عائلته فى قلعة مسارا فارا الى مصر. وكان مارك أنطونيو قد سافر الى روما، فوجهت كليوباترة الدعوة إلى هيرود الشاب الوسيم لتمضيه الشتاء معها، ولكن هيرود أبى أن يضيع وقته فى الغزل والمداعبة. ومع أن الوقت كان شتاء وكان السفر بالبحر يعتبر مخاطرة

(١٣) شجرة سلالة الحشمونيين.

كبيرة، فإنه أبحر إلى رودس وتخطمت السفينة التي كانت تقله تقريبا فنزل إلى البر بعدما موحلا، إلا أنه لم يكن قد فقد فتنته الشخصية فاستطاع، وهو في رودس، أن يجمع من المال ما يكفي لاعداد سفينة رائعة ذات صفوف ثلاثة من المجاديف وصل بها الى برنديزى فى صورة ملكية. وقد رحب به مارك أنطونيوس فى روما، واكتسب صداقة أوكتافيوس الشاب، ووافق مجلس الشيوخ بالاجماع على قرار بتعيين هيروود ملكا على يهودا.

ومن حسن حظ هيروود أن أنطوجينوس منافسه الحشمونى كان قد ربط نفسه بالبارثيين، وبالتالي تأكد لهيروود معاونة روما التامة. وعلى الرغم من ذلك كان نجاحه السريع مكافأة غير عادية لشخصيته «فلقد فتح هيروود روما، ولازال باقيا أمام الملك هيروود أن يفتح أورشليم»^(١٤). وفى غضون ذلك كان البارثيون قد انسحبوا تاركين أنطوجينوس ملك يهودا.

وعلى حين فجأة نزل هيروود فى بتولمايس فى أوائل عام ٣٩ قبل الميلاد. وقد أتاحت له زيارة خاطفة قام بها للجليل، التى كان حاكما عليها فيما سبق، أن يحصل على المجددين، ومن ثم تحرك بسرعة جنوبا على السهل الساحلى مستوليا على يوبا ثم استأنف تقدمه إلى ادوميا حيث حرر أسرته التى حاصرها أنطوجينوس فى مسادا، ودونما راحة تحرك هيروود شمالا حيث ضرب الحصار على أورشليم، وفى أثناء ذلك جاهرت السامرة، التى دمرها الحشمونيين تدميرا ذريعا، بهيروود. وأصبحت أورشليم الآن محاصرة من كل جانب، ولكنها قامت مقاومة مستميتة ولم يتمكن هيروود من الاستيلاء عليها.

وكان من حسن طالع هيروود أن مارك أنطونيوس نزل فى سوريا عام ٣٨ قبل الميلاد فتبادل الصديقان التحية واقترض هيروود فرقتين رومانيتين من صديقه، وبين

(١٤) ستورات بيرونى، «حياة وعصر هيروود الأكبر».

مناظر العنف والدم المرافق اقتحمت قوات هيروود أورشليم مستولية عليها، وأعدم انتوجينوس وأعلن هيروود نفسه ملكا. وهكذا منذ ثورة يوحانان المكابي عام ١٦٦ قبل الميلاد، ظل العنف يمزق فلسطين والدم يجرى فيها أنهارا طوال المائة والثمان وعشرين عاما التالية.

وفي عام ٣٢ قبل الميلاد قطع أنطونيوس الذي كان يعيش مع كليوباترة علاقته مع أوكتافوس. وكانت الملكة التي تمقت هيروود نظرا لصدده إغوائها له عام ٣٠ قبل الميلاد قد أغرت أنطونيوس ليعطيها سوريا والسامرة وحتى أريحا، إلا أن أنطونيوس هزم في الثاني من شهر سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد على يد أوكتافوس في معركة اكتيوم ومات بعد ذلك وقت قصير. وكان على هيروود صديق أنطونيوس الحميم أن يتحول إلى الجانب الآخر، فأبحر ليقابل أوكتافوس المنتصر في جزيرة رودس. ومرة أخرى كسبت جاذبيته الموقف وثبته أوكتافوس في مملكته.

وجاء أوكتافوس الى سوريا ثم سار إلى مصر إلى جانبه هيروود وسط هتافات الجماهير (لم يكن هناك بطبيعة الحال أية مدن يهودية على السهل الساحلي)، وهو ما أقنط أعداء هيروود، الذي كان في عهد الحروب المستمرة دائما في الجانب الفائز.

وابتداء من عام ٤٠ قبل الميلاد فصاعدا تمتعت يهودا تحت حكم هيروود بالشراء والأمن لأول مرة خلال مائة وست ثلاثين سنة، حيث كتب له النجاح بفضل سياسة المودة التي كان ينتهجها مع روما وبفضل اتصالاته الشخصية مع أوغسطس. وكانت مملكة هيروود هامة بالنسبة لروما، لأنها كانت في منتصف الطريق بين سوريا ومصر، وهما ولايتان من أغنى الولايات في الامبراطورية. ثانيا، كانت بارثيا أقوى منافس لروما، وكان من الأهمية بمكان أن يظل الشرق الأدنى مواليا لروما. ثالثا، كانت تجارة الشرق الغنية تحمل عن طريق القوافل من عدن عبر مصر وسوريا مارة بأقليم النبطيين أقارب هيروود من ناحية أمه.

كانت يهودا سببا في متاعب لاحصر لها، إلا أنها كانت مستقرة ومخلصة تحت حكم هيروود. ونتيجة لذلك ترك الاقليم وشأنه مع أدنى ما يمكن من التدخل الامبراطورى، وكان هيروود إداريا ممتازا مثلما كان سياسيا بارعا. وكانت حكومته أقل فسادا من حكومة روما، وكانت الطرق مأمونة والتجارة منتعشة ويهودا مزدهرة. وقد ملأ هيروود الشرق الأدنى بالمدن والمسارح والقلاع، وشيد مدينة رائعة جديدة وميناء فى قيصرية، لأن فلسطين كانت تفتقر إلى الموانئ الطبيعية، وكانت ذروة أعمال هيروود إعادة تشييد المعبد فى أورشليم.

كانت، سيرة هيروود العامة مشرفة إلا أن حياته العائلية كانت مأساة مفرجة. ولعله أراد أن يتزوج مريم لكي يتسلل إلى العائلة الحشمونية ولكنه أحبها أيضا. ولم تبادلها هى الحب، بل أنها كانت تفكر فقط فى إعادة الحشمونيين وأغررت هيروود على تعيين أخيها إرسطوبولس الثالث^(١٥) حاكما أعظم لكي تستخدمه فى تدمير زوجها. وأوغرت دسائس مريم صدر هيروود الذى احتال لاغراق إرسطوبولس فى أريحا.

وصارت الحياة فى القصر جحيما لاتطاق فقد كان هيروود يحب مريمنى لدرجة العبادة ولكنها كانت تمقتة. وكانت سالومى أخت هيروود تكره مريم كرها كبيرا وأقنعت أخواها بأنها غير مخلصة وأمام مجلس اختيار أعضاؤه من المؤيدين لسالومى حوكت مريم وحكم عليها بالاعدام و نفذ الحكم. وكاد هيروود الذى كان يحبها من كل قلبه، أن يصبح مجنوننا كئيبا وطاغية مرتابا، وكانت هذه واحدة من أكثر المآسى التى تتخللها المفاجآت المفجعة والأحداث المحزنة فى التاريخ.

(١٥) شجرة السلالة.

وكان اليهود أيضا يكرهون هيروود لتعاونه مع روما، مع أنه جلب لهم بذلك السلام والازدهار، وربما كان ذلك مصير هيروود الاغتيال لو لم يكن يحميه حرسه الخاص المكون من أربعمائة من رجال الغال^(١٦).

وبالإضافة إلى حرسه الخاص احتفظ هيروود، بجيش نظامى من المرتزقة يضم التراقيين والألمان والايديوميين، كما ضم أبناء آسيا الصغرى. وقد بنى المستعمرات العسكرية لهؤلاء العسكريين المتمرسين، وبالتالي أضاف مزيدا من العناصر الغريبة إلى الخليط السلالي فى فلسطين.

وفى عام ٢١ قبل الميلاد زار أوغسطس انطاكية حيث ذهب هيروود لتقديم ولائه. وكان هناك اضطرابات فى أورائيس (حوران) جنوب دمشق فأعطى أوغسطس المنطقة جميعها لصديقه هيروود^(١٧) مما كان سببا فى مضايقة النبطيين. وكانت القومية غير ذات بال فى نظر الروم، ولم يكن هناك يهود فى اورانتس، إلا أن هيروود كان مواليا وكان اداريا قديرا. ثم قام هيروود بزيارة رسمية لروما حيث استقبل استقبالاً رائعا وقد اصطحب معه، لذى عودته، الكسندر وأرستوبولس، ابنيه الباقيين على قيد الحياة من زوجته مريم واللذين كانا فى روما حيث تلقيا تعليمهما.

وكانت أخباريات سنين هيروود جد مفاجئة، حيث كانت له عشر زوجات وكان أبناؤهن ينفرد بعضهم من بعض، وكان أكثرهم نشاطا فى الكيد والفساد الكسندر وإرستوبولس ابنى مريم اللذان انتهى أمرهما الى حبل المشنقة بناء على أمر الملك الطاعن فى السن.

(١٦) الحاخام رابين، «رد فعل الوثنيين للمثل العليا اليهودية».

(١٧) خريطة (١٥).

وأصبح هيرود يشكو من مرض عضال أثر في قواه العقلية، كما كان يشكو من الألم الموجه المستمر علاوة على اصابة الجزء الأسفل من جسمه بالنغل (الغرغرينا). وصار القصر مستشفى للمجاذيب، واتهم هيرود أكبر أولاده انبياتر وأمر بإعدامه بينما كان هيرود نفسه على شفا الموت. ولا بد أن يكون في هذا الوقت - بينما كان يحتضر، ولعله كان وقتئذ في هذيان الحمى والألم الجسماني البالغ - قد أصدر الأمر الذي جعله مرذولا شائن السمعة، وهو الأمر الخاص بذبح الأبرياء في بيت لحم.

وقد مات هيرود في أريحا في شهر أبريل سنة ٤ قبل الميلاد وكان في السبعين من عمره، وقد كرهه اليهود، ويمكن الحكم بصورة أفضل على ما قدمه من أجلهم بما حدث بعد موته.

ترك هيرود، في وصيته، يهودا لابنه أركلوس (أرخيلاس) وكانت أمه سامرية^(١٩) وترك الجليل وبيريا انتباس شقيق أركلوس (ارخيلاس)، وتولى فيليب، وكانت أمه يهودية، جولونيتس وأورانيس وتراكونيتس. وقد ذهب وفد شعبي من يهودا إلى روما للمطالبة بالحكم الروماني المباشر وإبعاد أسرة هيرود، إلا أن أوغسطس أكد وصية هير د. وعلى أية حال، كان حكم أركلوس (ارخيلاس) سيئا للغاية لدرجة أن أوغسطس نفاه إلى بلاد الغال سنة ٦ بعد الميلاد، وانتقلت يهودا لتصبح تحت الحكم الروماني المباشر، كما طلب بذلك الوفد الشعبي، واحتفظ هيرود انتباس وفيليب بولاياتهما. واختار حاكم يهودا مدينة هيرود اليونانية الجديدة، قيصرية (قيساريا) مقرا لحكمه. وفي عام ٢٧ بعد الميلاد عين بونتيس بيلاتس حاكما حيث استمر لمدة عشر سنوات. وكان اداريا حازما وأقل فسادا من أسلافه^(٢٠) إلا أن اليهود كانوا يعارضونه معارضة شديدة. وقد هيا لأورشليم موردا

(١٩) انجيل متى الاصحاح الثاني / ٢٢.

(٢٠) آف. أم. آبل، «تاريخ فلسطين».

منتظما للمياه، الأمر الذي كان ضرورة ملحة. وقد أعده بأن بنى مجرى ماء يرتفع على أعمدة (مجرى عيون) يمتد لمسافة سبعة وثلاثين ميلا، وفي هذا يكتب يوسيفوس: «غضب اليهود غضبا شديدا بسبب الخطوات التي اتخذها لامدادهم بالماء»^(٢١). وقد أنفق في هذا الغرض أموالا من كنوز المعبد. ولعل الشكاوى المستمرة المتحاملة أحيانا - التي رفعها اليهود الى تيريوس ضد بيلاطس هي التي جعلته يتردد في اطلاق سراح يسوع، «إن اطلقت هذا فلست محبا لقيصر» فهل كان معنى ذلك تهديدا بإرسال شكوى أخرى الى روما^(٢٢).

وقد أثبت هيروود أنتباس أنه أهل لأن يكون حاكما على الجليل وبيريا، وكان قد تزوج ابنة ملك النبطيين، إلا أن زواجه المحرم الذي تمنعه الشريعة عام ٢٦ ميلادية من هيرووديا قريته ضايق رعاياه كما ضايق النبطيين. وكان هيروود أنتباس هو الذي أطاح برأس يوحنا المعمدان وهو الذي سخر هو وجنوده من المسيح صبيحة يوم صلبه. ومات فيليب عام ٣٣ ميلادية بعد سبع وثلاثين سنة قضاها في حكم هادىء على ولايته التي كانت تضم قليلا جدا من اليهود. ولما لم يكن قد أنجب ولدا فقد اندمجت مقاطعته الصغيرة في ولاية سوريا الرومانية.

تواريخ تستحق الذكر

يوحانان	١٣٥ - ١٠٤ ق.م
الكسندر جاناي	١٠٣ - ٧٦ ق.م
هيروود الأكبر	٣٩ - ٤ ق.م

(٢١) يوسيفوس «آثار اليهود».

(٢٢) انجيل يوحنا الاصحاح التاسع عشر / ١٢.

خاتمة

- ١ - لم يمتلك اليهود «فلسطين» ابتداء من الرجوع من بابل الى تدمير الهيكل سنة ٧٠ بعد الميلاد، ولكنهم كانوا يسيطرون فقط على مقاطعة يهودا الصغيرة.
- ٢ - غزا الحشمونيون الادوميين وسكان الجليل حيث أجبروهم على اجراء عملية الختان قسرا. وقد أصبح كل هؤلاء يهودا بالدخول فى ديانة اليهود دون أن يكونوا يهودا من أصل أسلافهم، ولم يحدث قط أن احتل اليهود السهل الساحلى.
- ٣ - أصبح الحشمونيون، فيما بعد، أوغادا قساة القلوب.
- ٤ - أعطى هيروود الأكبر للأرض المقدسة سلاما ظل أربع وثلاثين عاما ومات من المرض المبرح الذى صاحبه الهذيان واضطراب الاعصاب.
- ٥ - إبتداء من عام ١٦٦ قبل الميلاد الى عام ١٣٥ ميلادية، أى طوال ثلاثة قرون من الزمان، كانت فلسطين غارقة فى لجنة من الدم بسبب العدوان اليهودى العسكرى، إلا أنه مع الثنائية المتناقضة فى الظاهر، والتي تبدو وكأنها تلح على القصة جميعها، كانت هناك بذرة دقيقة تنمو فى قلب هذه الوحشية، وكان على هذه البذرة أن تؤدى بالعالم الى الرقة الروحانية، فكان من الكارثة التى جلبها هؤلاء المتعصبون على أنفسهم أن ظهر مفهوم الله الواحد، رب العالمين، مالك الملك، وصاحب الأمر. تلك مشيئة الله، ولا راد لمشيئته.

الفصل التاسع انهيار الكفاح

فمن يشفق عليك يا اورشليم

ومن يعزيك

ومن يميل ليسأل عن سلامتك

سفر إرميا الاصحاح الخامس عشر / ٥

«حقا ماذا عساه أن يكون هذا الذى استفز جيش الروم على أمتنا؟ ألا يكون ذلك هو عقوق وعدم تقوى الأهلين؟ من أين ابتدأت عبوديتنا؟ أليس ذلك ناشعا من التحريض على الفتنة الذى كان سائدا بين آبائنا وأجدادنا عندما استقدمت حماقة إرسطوبولس وهيراكينوس وخلافاتنا المشتركة مع بومبى الى هذه المدينة، وعندما أخضع الله لسلطان الرومان أولئك الذين لا يستحقون الحرية التى كانوا ينعمون بها؟ ان من يسكن هذه الأرض المقدسة ينبغى له أن يسلم بأن الأمور كلها تجرى بإذن الله.. أما أنتم فماذا قدمت أيديكم؟ السرقة والخيانة والكيد للانسان وارتكاب الفحشاء.. إنكم تقاتلون فى سبيل النهب والسلب وسفك الدماء والقتل.. فهذا الهيكل نفسه.. قد لوثته أيدي أولئك الذين ينتمون الى وطننا..»

نداء يوسيفوس للمدافعين عن اورشليم كى يسلموا
فلافيوس يوسيفوس: «حروب اليهود» الكتاب الخامس الفصل التاسع.

الفصل التاسع

كان هيروود أجريبا حفيد هيروود الأكبر يتلقى العلم فى روما حيث كان كلوداس ووالد كاليجولا زميله فى الدراسة. وفى عام ٢٣ بعد الميلاد عاد إلى الشرق الأدنى، ولكن سرعان ما أودت به عاداته الرومانية المبذرة الى الفاقة. وبعد مضى بضع سنين قضاها على غير هدى هنا وهناك وهو يقترض النقود، عاد إلى روما حيث وجد نفسه فى السجن. وبوفاة تيبيريوس عام ٣٧ ميلادية تغير كل شىء فى روما حيث انحط مقام أصحاب تيبيريوس وارتفع شأن أعدائه. وبناء على ذلك أخرج كاليجولا، الامبراطور الجديد أجريبا من السجن ونصبه ملكا على مقاطعة فيليب السابقة^(١). وبعد ذلك بوقت قصير نفى هيروود انتياس الى بلاد الغال بسبب دسائسه وأضيفت الأراضى الخاضعة له الى تلك الخاصة بأجريبا. وفى عام ٣٩ بعد الميلاد أراد كاليجولا أن يقيم تمثالا له فى الهيكل، إلا أن أجريبا أدى له له خدمة قيمة بأن أثناه عن عزمه.

كان أجريبا لا يزال فى روما فى شهر يناير عام ٤٠ ميلادية عندما اغتيل كاليجولا، وبسرعة وضع أجريبا أشرعتة فى الوضع الملائم حيث ساعد على رفع مقام زميل المدرسة القديم كلودياس الى كرسى الامبراطورية. واعترافا من كلودياس بالجميل أضاف يهودا الى مملكة أجريبا، بحيث جعل مملكته تشارك فى حدودها حدود مملكة هيروود الأكبر.

ولكى يكفر أجريبا عن حياته القديمة ذات السمعة السيئة أقام فى أورشليم حيث كان يقدم القرابين فى المعبد كل يوم، وهو هيروود الذى جاء ذكره فى أعمال الرسل الاصحاح الثانى عشر/ الآيات من ١ إلى ٣ حيث قطع رأس يعقوب

(١) خريطة (١٦).

شقيق يوخنا، وسجن بطرس . إلا أن أجريبا التقى الورع في أورشليم كان رجلا مجربا واسع الخبرة في بيروت وقيصرية، حيث كان يقيم مهرجانات الألعاب احتفاء بكلوداس . وبينما كان يلقي خطابا في هذه المهرجانات في ربيع عام ٤٤ ، فاجأه المرض وتوفي بعد خمسة أيام^(٢) . وعلى أثر وفاته عين حاكم روماني على يهودا مرة أخرى .

وفي عام ٥٣ ، أعطى ابنه أجريبا الثاني إقطاعية فيليب السابقة، وأضاف نيرون، الذي ارتقى عرش الامبراطورية عام ٥٤ ، الى اقطاعية طبرية أربع عشرة قرية في الجليل وهكذا أصبح الهيروديون ملوكا محترفين حتى في المناطق التي لا يوجد بها يهود .

في غضون ذلك كانت الأحوال في يهودا تتدهور وتتفكك، وكان اللصوص يصلون ويجولون في أنحاء البلاد، والسيكاركين السفاحون يخفون المدى والسكاكين الطويلة في ملابسهم ويقتلون من يشاءون . وفي عام ٦٤ ميلادية عين فلورس، صنيعة بويبا عشيقه نيرون، حاكما على يهودا، فشرع من فوره في حشر جيوبه، فاستولى في مايو عام ٦٦ ميلادية على ما يوازي مائة وسبعين ألف من الجنيهات ذهبية من كنوز الهيكل ليدفع الضرائب الامبراطورية المستحقة . وثار الشعب في أعقاب ذلك وسقط كثير من القتلى . ووصل أجريبا الثاني ليخطب في الغوغاء محذرا من حماقة الثورة ضد روما، ولكنه تعرض للاهانة والقذف بالحجارة فعاد أدراجه مسرعا إلى مملكته الشمالية .

عندئذ خرج الوطنيون عن السيطرة فاستولوا على مسادا معقل هيروود السابق وذبخوا حاميتها . وفي أورشليم توسل المعتدلون والصدوقيون إلى فلورس كي يتخذ إجراء حاسما سريعا، إلا أن توسلهم ذهب أدراج الرياح .

(٢) أعمال الرسل الاصحاح الثاني عشر / ٢٠ - ٢٣ .

وأرسل الملك أجريبا الثاني ألفين من فرسانه احتلوا الجزء الأعلى من المدينة وكان الثوار مرابطين، فى الجزء الأدنى منها وفى الهيكل. ونشب قتال مرير ثم انتهى الأمر بانسحاب رجال أجريبا، إلا أن القوات الرومانية الاحتياطية - وأغلبها من الفلسطينيين غير اليهود - أبيدت عن آخرها. وتم الاستيلاء على حصن انطونيا الهائل الذى يطل على الهيكل حيث ذبحت حاميته. وانتقاما لذلك ذبح اليونانيون فى قيصرية جميع يهود المدينة.

وفى جميع أنحاء البلاد، قتل اليهود الوثنيين الذين انتقموا من اليهود عندما سنحت لهم الفرصة وسيطر الارهاب على فلسطين، قاضطر والى سوريا سيستىوس جالوس للتدخل. وكان تحت إمرته أربعة فرق (لجيون) فى سوريا إلا أنه استعان بواحدة منها فقط، وهى الفرقة الرومانية الثانية عشر، ولو أنه أضاف إليها عددا كبيرا من القوات المساعدة المحلية.

ومع أن هذا حدث فى شهر أكتوبر عندما كان موعد هطول الأمطار متوقعا، إلا أن تحركه كان بطيئا، وقد عسكر على بعد ألف ياردة شمالى أورشليم. وقامت الفرقة (اللجيون) الثانية عشر بالهجوم، وسرعان ما احترقت السور الخارجى ووصلت إلى انطونيا التى بدأ فى هدمها. ولو أن جالوس، بناء على رواية يوسيفوس، شدد ضغطه هجومه لسقطت المدينة، إلا أنه لم يفعل ذلك، بل فقد أعصابه وأمر بإيقاف الهجوم ثم التقهقر.

وغالبا ما يكون التقهقر خطيرا عندما يكون القتال دائما مع عدو غير نظامى، فقد احتشد اليهود، الذين كانوا على وشك التسليم، خارج المدينة فى هرج شديد وباغتوا الرومان الهائمين جنوب وادى بيت حورون الضيق. وتجمع اليهود على الجبال حيث ألقوا على الرومان سيلا من الحجارة وصبوا على طوابيرهم وابلا من القذائف^(٣).

(٣) خريطة (١٧).

وقد قتل قرابة ستة آلاف جندي في هذه الكارثة وترك جالوس مهماته وأدوات حصاره والتجأت شردمة واهنة العزيمة إلى أنتيباتريس. وبدأت الامبراطورية الرومانية في أعين الثوار الذين أسكرتهم نشوة الانتصار وكأنها قد توقفت عن الوجود، فأزيل من يهودا كل أثر من أثار روما.

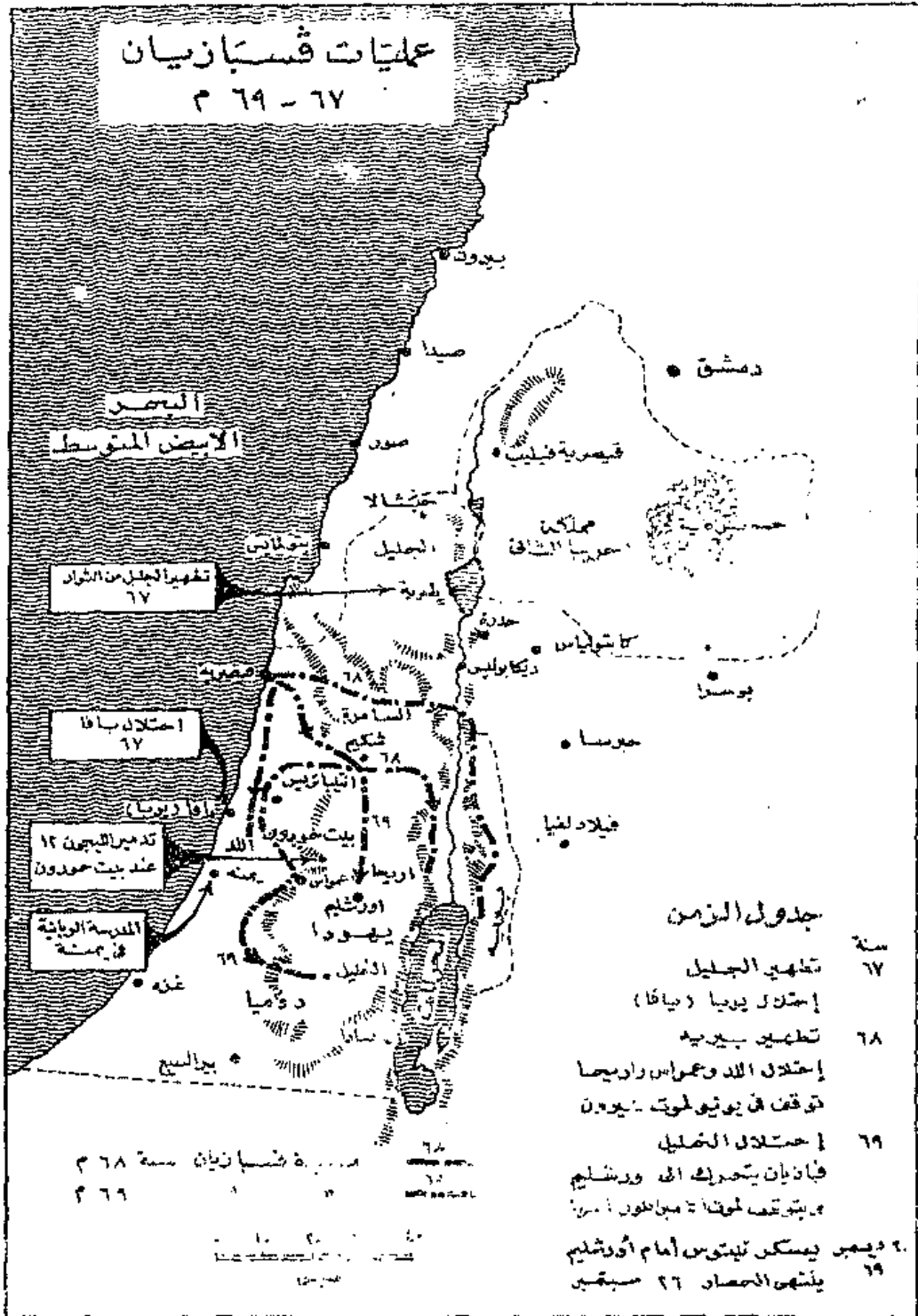
وبانت فلسطين في فوضى ضاربة الأطناب، ويقول يوسيفوس أن كثيرا من اليهود البارزين تنبأوا بالنهاية المتوقعة فغادروا أورشليم في هدوء، أما الطائفة المسيحية الصغيرة، وهي تذكر أن سيدها قد منح بركته لصانعي السلام، فقد آثرت أن تتحرك إلى بيللا فيما وراء نهر الأردن، وكانت مدينة من مجموعة المدن اليونانية (ديكابوليس).

وفي أورشليم أقام الثوار حكومة، ونودي بالحاخام الأعظم أنانوس رئيسا للدولة يساعده بن جوريون. وقد وقع الاختيار على المؤرخ اليهودي يوسيفوس ليكون حاكما على الجليل حيث اتخذ مقره في فيسيفوريس^(٤).

إلا أنه، على نحو ما يحدث دائما في فلسطين انشق الثوار على أنفسهم وأصبح كل من يستطيع من قطاع الطرق أن يجند عصابة، قائدا مستقلا. وحقد زعماء العصابات في الجليل على يوسيفوس ونشبت حرب عصابات وحشية بينه وبين يوحنا زعيم عصابة جيشالا.

وفي شهر فبراير عام ٦٧ ميلادية عين نيرون فسبازيان قائدا عاما في يهودا (وكان فسبازيان قد نال شهرته بعد أن استولى على جزيرة وايت إيان حملة كلاديوس على بريطانيا سنة ٤٣ ميلادية). وكان فسبازيان الذي يناهز الثامنة والخمسين من عمره يرتدي زي الجندي العادي، وكان حريصا مدققا أكثر منه

(٤) يوسيفوس: «حروب اليهود»، خريطة ١٧.



خريطة (١٧)

بارعا عبقريا. ولم يكن ينوى أن يعرض نفسه لكارثة كما فعل جالوس، وكان يعرف أن تقدم الجيش النظامي في صورة قاسية ضارية من شأنه تدمير معنويات أعدائه غير النظاميين. وكان ابنه تيتوس البالغ من العمر سبعة وعشرين عاما يعمل في هيئة أركان حربه.

ويقول يوسيفوس، أنه كان تحت إمرة فسبازيان ثلاثة فرق رومانية (الجيون)^(٥) قوامها ثمانية عشر ألف أو عشرين ألف مقاتل، ومعهم أيضا عدد أكبر من الجنود المحليين - الفلسطينيين الوثنيين والتبطين والسوريين.

وبعد أن استرجع فسبازيان الجليل ضرب الحصار على جوتاباتا، وهي مدينة حصينة يحيط بها الوحل من كل جانب، ويقوم على الدفاع عنها الحاكم يوسيفوس بنفسه. وبعد مقاومة عنيفة دامت سبعة وأربعين يوما أمكن التغلب على المدينة بعد أن تسلل تيتوس مع فرقة قليلة من رجاله قبل الفجر وفتح أبوابها. وقتل أغلب المدافعين عن المدينة، إلا أن يوسيفوس أخذ أسيرا ثم صار صديقا شخصيا لتيتوس الذي كان مثله في العمر.

وانقضى صيف سنة ٦٧ ميلادية في هذه العمليات وفي احتلال طبرية وتاريكيا وجوبا، وانتهى الأمر باستيلاء الرومان على جيشالا، وفر زعيم العصاة المحلي يوحنا الى اورشليم حيث استطاع، بتفاخره بجرأته على الرومان، أن يجمع كثيرا من الأعوان.

وكانت اورشليم غارقة في الفوضى، حيث اندفع السفاحون من جمع أنحاء البلاد الى المدينة لسلب المواطنين المحترمين. وكتب يوسيفوس: «إن أولئك الذين كانوا تواقين للحرب بشبابهم وجرأتهم قسوا على المتقدمين في السن المتبصرين لعواقب الأمور. ولقد اجتمع هؤلاء المغامرون على نهب الشعب فلم يكن هنالك

(٥) كتب سبتونيوس أن فسبازيان كان لديه فرقان إضافيتان.

فى مجال البربرية والطغيان اختلاف بين أولئك الذين ينتمون الى أمة واحدة وبين الرومان» .

ووجد «الزيلوت» (طائفة يهودية متعصبة قديمة كانت وطنية متطرفة) ، فلاحا لايدرى من أمر الدنيا شيئا فألبسوه لباس رجال الدين ورسومه، وسط عاصفة من الضحك والمجون، حاخاما أعظم. ووطد الزيلوت أنفسهم فى الهيكل الذى أحالوه الى قلعة مسلحة وأهاب أنانوس بالشعب أن يطرد الزيلوت من الهيكل. وكان الجمهور يود إطاعة أمر الحاخام ولكنه هزم على يد رجال العصابات الذين قتلوا عدد كبيرا من الجمهور.

وبعد ذلك، أرسل الزيلوت فى طلب الادوميين الذين اندفعوا إلى المدينة حيث نهبوا البيوت وقتلوا كثيرا من الناس بما فيهم أنانوس الحاخام الأعظم. ويبدو أن ما يقرب من ثلثى رجال العصابات فى أورشليم كانوا من الأدوميين أو سكان الجليل أو البراثيين ممن أجبروا بواسطة الحشمونيين على اعتناق الديانة اليهودية.

* * *

وفى أوائل عام ٦٨ ميلادية طهر طابور رومانى المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن وحين سمع فسبازيان بالثورة فى بلاد الغال على نيرون، فإنه خشية قيام الحرب الأهلية، عجل بعلمياته الحربية. وتحرك خارجا من قيصرية ليستولى على اللد ووضع الفيلىق العاشر فى عمواس.

بعدئذ عبر فسبازيان الجبال عن طريق شكيم واستولى على أريحا وقام بتحسينها. وفى شهر يونيو عام ٦٨ ميلادية كان على أهبة الاستعداد للتحرك إلى أورشليم، وعندما سمع بيا وفاة نيرون وقبول جليا تولى زمام الامبراطورية أوقف تقدمه وأرسل تيتوس إلى روما ليسأل عن أوامر الامبراطور الجديد.

ولما وصل تيتوس الى كورنثوس سمع بمقتل جاليا في شهر يناير على ٦٩ ميلادية وقبول أوثو عرش الامبراطورية. وعاد تيتوس الى أبيه الذى ظن أن الحرب الأهلية قد انتهت فأستأنف تقدمه عبر السامرة حيث عسكر على مسيرة أميال شمال أورشليم. واستولت الفرقة الخامسة على الخليل.

عندئذ عقد يوحانان بن زكاي، وهو واحد من أبرز أجبار ذلك العصر، العزم على الهرب من أورشليم. ولما كان يخشى رجال العصابات فقد تظاهر بالموت وحمل فى تابوت الموتى على أكتاف تلاميذه. وما أن ابتعد عن المدينة حتى ذهب الى فسبازيان وحصل على الأذن بافتتاح مدرسة لدراسة الشريعة فى يفنه على السهل الساحلى وكان عمله هذا هو ما غير تاريخ اليهودية.

وفى مستهل صيف عام ٦٩ ميلادية كان كل شيء معدا للهجوم على أورشليم عندما جاءت الأنباء بهزيمة أوثو وتقدم فيتليوس الى روما، فأمر فسبازيان بالتوقف مرة أخرى. إلا أن الفيالق الجرمانية التى جاءت مع فيتليوس كانت فى غاية الشراسة، وكانت روما شديدة الاستياء من امبراطورها الجديد، الذى كان على حد وصف سيتونيوس رجلا «اصطيغ بجميع ألوان الخسة والحقارة». وكانت من المقربين الى نيرون، ورفضت فرق الدانوب تقديم ولاءها له.

وفى أول يوليو سنة ٦٩ ميلادية أعلنت الفرقتان (اللجيونان) المرابطان فى مصر ولاءهما لفسبازيان، وفى اليوم التالى حذت حذوهما الفرق الأربعة المرابطة فى سوريا تحت قيادة موسيانوس. وكان تحت إمرة فسبازيان نفسه ثلاثة فرق. ومع أنه نودى الآن به (فسبازيان) إمبراطورا، الا أنه ظل يمارس عمله الروتينى المعتاد دون أن يبدو عليه أى تفاخر أو استعلاء^(٦). ثم اجتمع مجلس أعلى فى بيروت فقرر أن يزحف موسيانوس على روما، وأن ينتظر فسبازيان فى مصر، وأن ينهى تيتوس الحرب فى يهودا. وفى العشرين من شهر ديسمبر عام ٦٩ نادى روما بفسبازيان إمبراطورا،

(٦) تاسيتوس، «التاريخ».

وقتل فيتيليوس، ولكن فسبازيان انتظر في الاسكندرية حتى الصيف، أى عندما يصبح البحر مأمونا للملاحة قبل أن يبحر الى روما.

* * *

ولعدة أشهر بينما كانت العمليات متوقفة تنتظر نتائج الصراع على العرش الامبراطورى لم يقم اليهود بإعداد أنفسهم للحرب القادمة ولكنهم استمروا فى محاربة بعضهم بعضا. وفى اورشليم احتفظ يوحنا الجيشالى والجيلليون بأعلى المدينة بينما احتفظ الزيلوت بالهيكل. وجعلت حرب فرعية بالخناجر والسكاكين الشوارع الضيقة تجرى بالدماء. وعندئذ ظهر رجل يدعى شمعون برججورا يعيش مع عصابته على نهب أهالى منطقة الخليل. ودعا مواطنوا اورشليم شمعون الى مدينتهم ليحميهم من يوحنا الجيشالى والزيلوت. واحتل شمعون مع عصابته الجزء الأوسط من المدينة وأصبحت الفوضى أكثر شيوعاً وتأكيذاً. وبدأت كل العصابات تستخدم المدفعية (القذائف) ملقاة بأحجار كبيرة كانت تطن فوق الأسطح ثم تشق طريقها بصوت مزعج الى داخل المباني. وقد نهبت معظم المؤن التى جلبت وجمعت. من أجل الحصار بواسطة هذه العصابات.

وفى شهر أبريل سنة ٧٠ ميلادية تقدم تيتوس من قيصرية الى اورشليم. وكان جيشه يتألف من الفرق (اللجيون) الثلاثة التى كانت تحت قيادة فسبازيان من قبل - الفرقة (اللجيون) الخامسة فى عموس، والعاشر فى أريحا، والخامسة عشر فى الشمال - وقد أضيف الى هذه الفرق الثلاثة الفرقة الثانية عشر التى كانت متلهفة على محور العار الذى وصمت به عندما كانت تحت قيادة جالوس. وبعد وصول ألفين من الامدادات من مصر وثلاثة آلاف من سوريا بالإضافة إلى القوات الإضافية المحلية بلغ تعداد هذا الجيش خمسة وستين ألف مقاتل^(٧).

(٧) ستورات بيرون: «الهيروديون الأواخر».

وكان تيتوس على وشك الوقوع فى أسر جماعة انبرت للهجوم من المدينة بينما كان يقوم بعملية استطلاع على صهوة جواده. وفى العاشر من شهر مايو سنة ٧٠ ميلادية تحرك الرومان الى أن صاروا على بعد ثلثمائة ياردة من الأسوار. وكانت الفرق الثانية عشر والخامسة عشر فى الخط الأمامى بينما أبقيت الفرقة الخامسة فى الاحتياط. وقامت الفرقة العاشرة التى تحركت من أريحا، باحتلال جبل الزيتون.

ومع أن يوحنا الجيشالى وشمعون برجيبورا واليعازر الزيلوتى اتفقوا فى بادىء الأمر على مقاومة الرومان، إلا أنهم الآن استأنفوا حروبهم الخاصة فأخذ أحدهم يطعن الآخر فى الطرقات الضيقة بينما كانت آلة الحرب الرومانية تدك الأسوار وتهشمها فلم يكابدوا من الرومان أسوأ مما كابد بعضهم من بعض»^(٨).

وسرعان ما اخترق الرومان السور الخارجى، ثم تقدموا الى السور الثانى. وكان سيمون يدافع عن النصف الغربى من هذا السور بينما دافع يوحنا الجيشالى عن النصف الشرقى وأنطونيا. وفى الرابع من شهر يونيو، وبعد حصار دام خمسة وعشرين يوما استولى الرومان على السور الثانى. وكانت مداخل المدينة من الشرق والجنوب والغرب محمية بالأخاديد بينما سيطرت قلعة أنطونيا على المنطقة التى يتحتم على الرومان، أن يتقدموا منها. وبدأ المهاجرون، وهم أشبه بخلية النمل، العمل فى ملء الحفرات لكى يتمكنوا من إحضار ابراجهم المتحركة وآلات هدم الأسوار الى أسوار أنطونيا، إلا أن اليهود انبروا لهم فى هجمة محمومة واستطاعوا أن يحرقوا الأبراج الخشبية المتحركة.

وقرر تيتوس أن يحيط المدينة كلها بمتراس بارتفاع تسعة أقدام على امتداد خمسة أميال. وقد أقيم هذا المتراس فى وقت مدهل، إذ تم بناؤه فى ثلاثة أيام

(٨) يوسفوس، «حروب اليهود».

فقط، وكان جنود الروم عمالا راعين، وبإقامة هذا المتراس تعذر وصول المؤن والامدادات الى المدينة التي حكم عليها بالهلاك، وحاول البعض أن يهرب بعد أن قضى الأمر، إلا أنهم ضبطوا وصلبوا على مرأى من المدافعين.

وتجدد الهجوم على أنطونيا، وفي الساعة الثالثة من صباح الرابع والعشرين من شهر يوليو زحف ألفا عشر جنديا ومعهم نافخ البوق وحامل رمز الفرقة الخامسة عبر القلعة المحطمة حيث ظهروا على الأسوار ونفخ نافخ البوق في بوقه وما أن سمع الصوت حتى تقدمت الفرقة واندفع تيتوس وحرسه الخاص خلال القلعة المهدامة الى أبواب الهيكل حيث أوقع المهاجمون في عراق يائس بالسيوف والخناجر مع الزيلوت^(٩).

ورغبة من تيتوس في انقاذ الهيكل أرسل يوسيفوس ليهيب بالمدافعين أن يستسلموا فذهب يوسيفوس ومعه بعض زعماء اليهود ومن بينهم إثنان من الحاخامات الكبار السابقين ممن كانوا مع الرومان. وطلب إلى العصايات أن تقبل الصلح، إلا أن العصايات سخرت منه، واستؤنف القتال وأضرمت النيران في أبواب الهيكل.

ومرة أخرى أمر تيتوس بالحفاظ على الهيكل، ولكن في عراق بالقاعة ألقى أحد الجنود مشعلا، وما هي إلا دقائق معدودة حتى كسا اللهب تحفة هيروود، وذلك في التاسع والعشرين من شهر أغسطس سنة ٧٠ ميلادية. وكان هيروود أجريبا الثاني هو وجيشه يحاربون في صفوف الرومان، وكانت أخته نيريتيس عشيقة تيتوس. ولعل هؤلاء ويوسيفوس واليهود البارزين الكثيرين في معسكر الروم هم الذين أقنعوا تيتوس أن يأمر بالحفاظ على الهيكل.

وسرعان ما اقتحم الروم المدينة السفلى من الهسكل حاجزين ومطوقين الثوار في المدينة العليا، ومرة أخرى عرض تيتوس عليهم الصلح، وفي هذه المرة جاء

(٩) يوسيفوس، «حروب اليهود».

تيتوس شخصياً ليتحدث الى الزعماء الذين رفضوا عروضه، وقد أطلق سراح أربعين ألفاً من المواطنين الذين استسلموا.

وفي السادس والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٧٠ ميلادية استولى الروم على قصر هيرود في المدينة العليا بعد أن قتلوا أو أسروا المدافعين القلائل الذين بقوا على قيد الحياة. ومات عدة آلاف من الأسرى اليهود في حلبة المصارعين وأرسل كثير منهم كعبيد الى روما، وقد أعتق أغلب هؤلاء بعد ذلك وانضموا الى الجالية اليهودية الكبيرة التي كانت تعيش في المدينة.

* * *

إن النظرية القائلة بأن اليهود تعرضوا للاضطهاد بصفة دائمة نظرية صائبة بصفة جزئية فقط. حقيقة كان حصار الرومان لأورشليم مأساة مفزعة، ولكن لنحاول تحليل بعض العوامل على أساس تاريخي:

أولاً، لم يكن المتطرفين الذين ثاروا ضد روما هم أغلبية اليهود في فلسطين. وما يشير الدهشة أن أكثرهم كان من سكان الجليل أو الادوميين الذين أجبروا على اعتناق الديانة اليهودية ومن لم يعترف بهم اليهود باعتبارهم، من غير السلالة اليهودية الأصيلة، ولا يبدو أن وازعهم كان وازعا دينياً، حيث كانوا يقتلون الحاخامات ويدنسون الهيكل، ولعل وازعهم كان بغض الأجانب وكرهتهم وشهوة السلطة والجشع. وقد هرب الصدوقيون والفريسيون البارزون من المدينة على قدر ما أمكنهم.

ومن الأرجح أن طوائف اليهود المسالمة كانت تتمتع بحماية تيتوس وفسبازيان فلم تتعرض لاضطهادهما. حقيقة، كانت المعاملة التي يلغاها الأسرى معاملة وحشية، إلا أنها كانت متمشية مع العادات المرعية في ذلك الوقت، حيث رأينا

الكسندر جاناى ملك يهودا يصلب ثمانمائة من إخوانه اليهود، وعندما استولى اليهود على السامرة ذبحوا سكانها جميعا.

ثانيا، لا يمكن القول بصفة دقيقة، أن تيتوس طرد اليهود من فلسطين، أو حتى من يهودا. وكان أولئك الذين يعتنقون الديانة اليهودية فى العالم خمسة أمثال اليهود فى فلسطين، كما كانت هناك مشاغبات من اليهود فى الاسكندرية وطرابلس فى بداية الحرب، ولكن فيما عدا ذلك، لم يتأثر اليهود فى العالم، بل أن شيئا أكثر مغزى، هو أن الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها لم ينتقص منها شىء، والظاهر أن الحكومة الامبراطورية اعتبرت هذه الحوادث، مجرد تفرقة فى فلسطين، ولم تعتبرها ثورة من جانب اليهود. ويبدو أن السبب هو أن كثيرا من يهود العالم كانوا من المحليين الرومان المتهودين أو الأسبان أو الغاليين أو البربر أو الجرمان - ممن لم تكن لهم روابط مع فلسطين.

إن التدمير الذى أصاب يهودا وأورشليم لا يمكن أن نطلق عليه إسم اضطهاد دينى، لأن كثيرا من اليهود كانوا يساعدون الروم، حيث كان فى معسكر الروم اثنان من الحاخامات العظام السابقين، كما أن أجريبا الثانى، الملك اليهودى، إنحاز هو وجيشه الى جانب روما. ولايعنى هذا بالطبع أن اليهود فى فلسطين كانوا يميلون إلى الروم، إلا أن الطبقات المتعلمة كانت تدرك أن الثورة يجب أن تفشل، وبالتالي كان أغلب المدافعين عن أورشليم، من الفلاحين الجهلاء.

وقد رأينا أن الحاخام يوحنا بن زكاي حصل على إذن من فسبازيان بافتتاح مدرسة حاخامية فى يفته، وهو تحول غريب فى التاريخ اليهودى. فمن المنازعات الضارية للزيلوت المتعصبين الى حوار معلمى الشريعة المثقفين، ومن المحاكم الدموية الخاصة بشمعون برجيوورا ويوحنا الجيشالى والزيلوت اليعازار، الى الباحثين المسالمين عند جمليئيل،^(١٠) ومن قعقة الأسلحة وفوضى المدن المحاصرة

(١٠) جمليئيل الصغير، وهو غير معلم بولص.

ومساوىء القحط والمذابح والحرائق الى المجادلة فى اللحوم غير النظيفة والأحلام الجديدة ومراعاة عطلة السبت^(١١).

ويستخس كانون ميلمان تقدير أهمية يفنه حيث ارتفعت الديانة اليهودية الروحانية من جديد فوق «الدم والتراب»، وفوق التجمعات السلالية والكرامية القيصرية الى مرتبة الاخاء الحقيقى، ويقول الحاخام يوحانان إن «اليهودى هو كل انسان لا يعبد الأصنام».

ويقول الحاخام بريزين «لقد أعلنت الديانة اليهودية فى يفنه بصفة رسمية أن ذرية ابراهيم لاتعتمد على الدم والتراب، بل إنها تتخطى جميع الحواجز العنصرية والقومية وتدعو كل جائع الى مائدتها ليأكل منها بغض النظر عن معاملة أسلافه الأوائل لليهود»^(١٢).

وظل بعض الأخبار يصرون على الختان والعماد، «إلا أن البعض الآخر جعل هذه الطقوس الرسمية غير أساسية، وبالحا من مأساة أن تهزم هذه المفاهيم الروحانية الكريمة المرة تلو المرة بالإنزالية والتعصب الأحمق، ورأى بعض الأخبار فى الشتات امتيازا وليس قصاصا، فقد كان من واجب اسرائيل أن تنشر الدين الروحانى بين الأمم جميعا «وكان من فضل إله على إسرائيل أن نشرهم بين الأمم».

«ويعتبر كل من ٦ حل فى دين اليهود وكأنه طفل يهودى حديث الولادة انحدر من ذرية ابراهيم بالمفهوم العملى والروحى وهكذا تتحطم كل علاقة تربطه بأصله الوثنى القديم.. فلا تربطه صلة الدم بأقاربه بعد»^(١٣).

وقرر الأخبار فى يفنه أيضا أن العهد القديم لم يوح به من الله كلمة فكلمة وحرفا بحرف بل كتبه الانسان، أما المسيحيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يهودا

(١١) هنرى هارت ميلمان، «تاريخ اليهود».

(١٢) الحاخام ريلين، «رد فعل الوثنيين للمثل اليهودية».

(١٣) المرجع السابق.

حتى عام ٧٠ ميلادية، فقد كانوا يتمسكون بالاعتقاد اليهودى السابق، بأن العهد القديم يتضمن كلمات الله بنصها وروحها. وبناء على ما ذكره الحاخام بيرزين كان الأحرار اليهود يقيمون العهد القديم على أساس أنه مصدر للموعظة أكثر منه ذو صفة تاريخية. وهكذا أنتج تدمير الهيكل عام ٧٠ بعد الميلاد أثرا روحانيا، كما فعل الغزو البابلي تماما، من حيث أنه ربط اليهود جميعا برباط روحاني وهكذا «أثبتت مدرسة يفنه أكثر مما أثبت أى حدث فى التاريخ أن الروح أقوى بأسا من السيف»^(١٤).

* * *

كان تراجان (٩٨ - ١١٧ م) فى أواخر أيامه قائما بحملة عسكرية فى بابل وكان اليهود فى تلك الدولة يدينون بالولاء لبارثيا فكتبوا الى يهود مصر وطرابلس أن يشوروا ضد روما. فاستجابوا لذلك بالهجوم على جيرانهم الوثنيين. وحاول هادريان، الذى كان يعارض الحرب، عبثا أن يهدىء من نائرة هؤلاء اليهود عندما خلف تراجان كامبراطور.

وعندما نفذ صبر هادريان آخر الأمر، عكس الاية فغير مسلكه السلمى (كما فعل أنطوخوس أيفانوس من قبل) وأصدر تشريعا يقضى بتحريم الختان. فثار رجل فى يهودا يطلق على نفسه اسم «بركوخبا» (ابن الكوكب)، وقد باركه الحاخام عقيبا، عالم التلمود الشهير، بوصفه بالمسيح المخلص. وفى عام ١٣٥م أخدمت ثورة بركوخبا بعد أن أريق دماء كثيرة، وأعدم الحاخام عقيبا، وأعيد بناء أورشليم كمدينة رومانية سميت باسم إيليا كبتوليننا، وهكذا «فشل أسلوب السيف فى الحفاظ على حياة اليهود، وكان الأسلوب الروحاني هو الأسلوب الآخر الذى اتبع بحماس شديد.. فلقد قدر لليهود الا يقيموا مملكة على هذه الأرض»^(١٥).

(١٤) سليمان جريزل: تاريخ اليهود، إقتباس موسى منوحين.

(١٥) موسى منوحين مرجع سابق الذكر.

ولم يتحول كل يهود فلسطين إلى الإدراك الروحاني، بل كانت هناك أيضا حركة عنيفة من كراهية الأجانب كراهية شديدة.. وأعدت التوجيهات في يهودا بغرض قطع أي اتصال بالعالم، وحرّم أكل كل شيء يتناوله غير اليهود كما حرّم سماع شهادة غير اليهود أو قبول هداياهم، بل حتى حرّم أيضا تعلم لغاتهم.

ومع ذلك كان أغلب أحبار اليهود لا يزالون يؤمنون بأن واجب إسرائيل هو تغيير ديانة العالم، وعلى أية حال كانت ردود الفعل الشديدة هذه مقصورة على يهودا. وفي جميع أنحاء امبراطورتي روما وبارثيا الشاسعتين استمر التعاون مع الوثنيين على أساس قبول قوانين التحريم بالنسبة لبعض الأطعمة «وطوال الفترة موضوع هذه الدراسة (حكيم هادريان وما بعده) كانت مراتب الديانة اليهودية يشغلها المهتودون بصفة دائمة، ولم يكن الختان ليعوقهم عنها، ولم يكن الاضطهاد ليحول بينهم وبينها»^(١٦).

تواريخ تستق الذكر

٣٧ ميلادية	تنصيب هيروود أجريا الأول ملكا على أورانثيس والجليل
٣٧ ميلادية	نقى هيروود انتيباس الى بلاد الغال
٤٠ ميلادية	الحاق يهودا بمملكة أجر! بأمر كلادايوس
٤٤ ميلادية	وفاة هيروود أجريا الأول
٥٣ ميلادية	أجريا الثاني ملكا على أورانثيس
٦٦ ميلادية	هزيمة سيستيوس جالوس
٦٧ ميلادية	فسبازيان يطهر الجليل
٦٨ ميلادية	ايقاف العمليات الحربية نظرا لموت نيرون

(١٦) الحانام ريفين؛ مرجع سابق الذكر.

٦٩ ميلادية	هرب يوحانان بن زكاي الى يمنه
٧٠ ميلادية	حصار اورشليم وسقوطها
من سنة ١٣٢ - ١٣٥ ميلادية	ثورة بركوخبا

أباطرة الرومان

سنة ٢٧ ق.م - سنة ١٤ ميلادية	أوغسطس
١٤ - ٣١ ميلادية	تيبريوس
٣٧ - ٤١ ميلادية	كاليجولا
٤١ - ٥٤ ميلادية	كلادئوس
٥٤ - ٦٨ ميلادية	نيرون
٦٨ - ٦٩ ميلادية	جالبا، أوثو، فيتليوس
٧٩ - ٨١ ميلادية	فسبازيان
٨١ - ٩٦ ميلادية	تيتوس
٩٦ - ٩٩ ميلادية	دوميتان
٩٩ - ١١٧ ميلادية	نيرفا
١١٧ - ١٣٨ ميلادية	تراجان

خاتمة

تحت حكم الرومانيين إنطلقت يهودا مرة أخرى في غزلتها الحربية التي أدت إلى تدهور الديانة الروحانية وقيام الكراهية العنصرية كما حدث تحت حكم الحشمونيين .

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة المترجم
٣٠	«المتفى - الحل العصابى» (أ. ب. يهوشواع)
٥٢	الفصل الأول: آباء ورعاة
٧١	الفصل الثانى: الرب يهوه
٨٦	الفصل الثالث: الغزو
١٠٠	الفصل الرابع: أيام مجيدة
١١٨	الفصل الخامس: التفسخ والأفول
١٣٥	الفصل السادس: العزلة أو الدولية
١٥٩	الفصل السابع: اليهود يملأون العالم
١٧٩.	الفصل الثامن: الهيروديون
١٩٩	الفصل التاسع: إنهيار الكفاح
	الخرايط
٥٥	١ - طبوغرافية الشرق الأدنى.
٦٥	٢ - سيناء والخروج
٨٢	٣ - الغزو
٩٢	٤ - الفتح
١٠٣	٥ - فلسطين فى عهد شاول (أول ملك على اليهود)
١١٢	٦ - فلسطين أيام مملكة إسرائيل ومملكة يهودا

الصفحة

الموضوع

١٢٣	٧ - فلسطين تحت حكم داود وسليمان
١٣٠	٨ - الأمباطوريبتان الأشورية والبابلية
١٣٩	٩ - فلسطين بعد العودة من بابل
١٤٦	١٠ - إمبراطوريتا السلوقيين والبطالسة
١٥١	١١ - يهودا تحت حكم الحشمونيين الأوائل
١٦٧	١٢ - الأمباطورية الرومانية
١٨٣	١٣ - المناطق التي اجتاحتها الكسندر جاناى (يونانان)
١٨٦	١٤ - تسوية يومية
١٩٥	١٥ - ممتلكات هيرود الأكبر
١٩٦	١٦ - فلسطين أيام يسوع المسيح
٢٠٤	١٧ - عمليات فسبازيان
٢١٠	١٨ - إستيلاء تيتوس على أورشليم
	أشجار السلالات
١٤٨	١ - البطالسة - السلوقيون
١٥٤	٢ - الحشمونيون
١٨٧	٣ - الهيروديون



كان إبراهيم (عليه السلام) هو المهاجر الأول من أرض الرافدين إلى أرض كنعان. كما كان أيضا التازح الأول إلى مصر. عندما حل القحط بالبلاد. ومن بعده ارتحل يعقوب وأبناؤه إلى مصر ليقبوا فيها رديحا من الزمن إلى أن خرجوا منها. عائدين مرة أخرى إلى أرض كنعان. لتبدأ هناك الديانة اليهودية متأثرة بالديانات المصرية والبابلية والكنعانية إلى أن أصبحت على ما هي عليه محملة بكل التحنة الدينية والثقافية لحضارات المنطقة. وبالرغم من أن الديانة اليهودية في صيغتها الأخيرة. سعت لتثبيت فلسطين في الوعي والتراث الديني باعتبارها «أرض الميعاد». إلا أن اليهود ظلوا على مدار وجودهم التاريخي لا يقيمون فيها، ويفضلون البقاء خارجها. اعتبارا من فترة السبى البابلي (القرن السادس ق.م) وحتى الآن. بالرغم من أن أبوابها كانت في معظم فترات التاريخ مفتوحة أمامهم دون قيود، إلا أنهم اكتفوا بتريديد عبارات الشوق إلى العام القادم في اورشليم، وانتظار «المسيح المخلص» الذي سيقودهم إليها. حول هذا التلازم بين تطور العضدة اليهودية وبين نشأة وتطور الصهيونية القديمة في إقامة كيان سياسي في وجه الحضارات الكبرى وبين نشأة ظاهرة الشتات إلى فلسطين. إلى أن أصبحت للوجود اليهودي تدور مود يلقي بظلال الماضي اليهود على الواقع المعاصر الذي

البحر بقى بالعلم

استلزاما وروحيين فسيه اللغة العربية والدينية
 حلتها الآداب كما بعد حين تسمى
 صارت لغة الحضارات التالية
 1- التناخ والتاريخ اليهودي (1978)
 2- حروبنا في الشرق واليهودية (1976)
 3- اللغة العبرية المتناخية (1978)
 4- تاريخنا في اللغة العبرية (1978)
 5- تاريخنا في الأدب العبري الحديث (1978)
 6- المجتمع اليهودي الإسرائيلي في القرن العشرين (1978)
 7- الصهيونية والإحسان في الأدب العبري (1978)
 8- تاريخنا في الأدب العبري الحديث (1978)
 9- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 10- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 11- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 12- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 13- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 14- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 15- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 16- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 17- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 18- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 19- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)
 20- اللغة العبرية الحديثة في الأدب العبري (1978)

الناشر
 مكتبة
 القاهرة
 0353068
 Bibliotheca Alexandrina
 مكتبة
 القاهرة
 0353068

To: www.al-mostafa.com